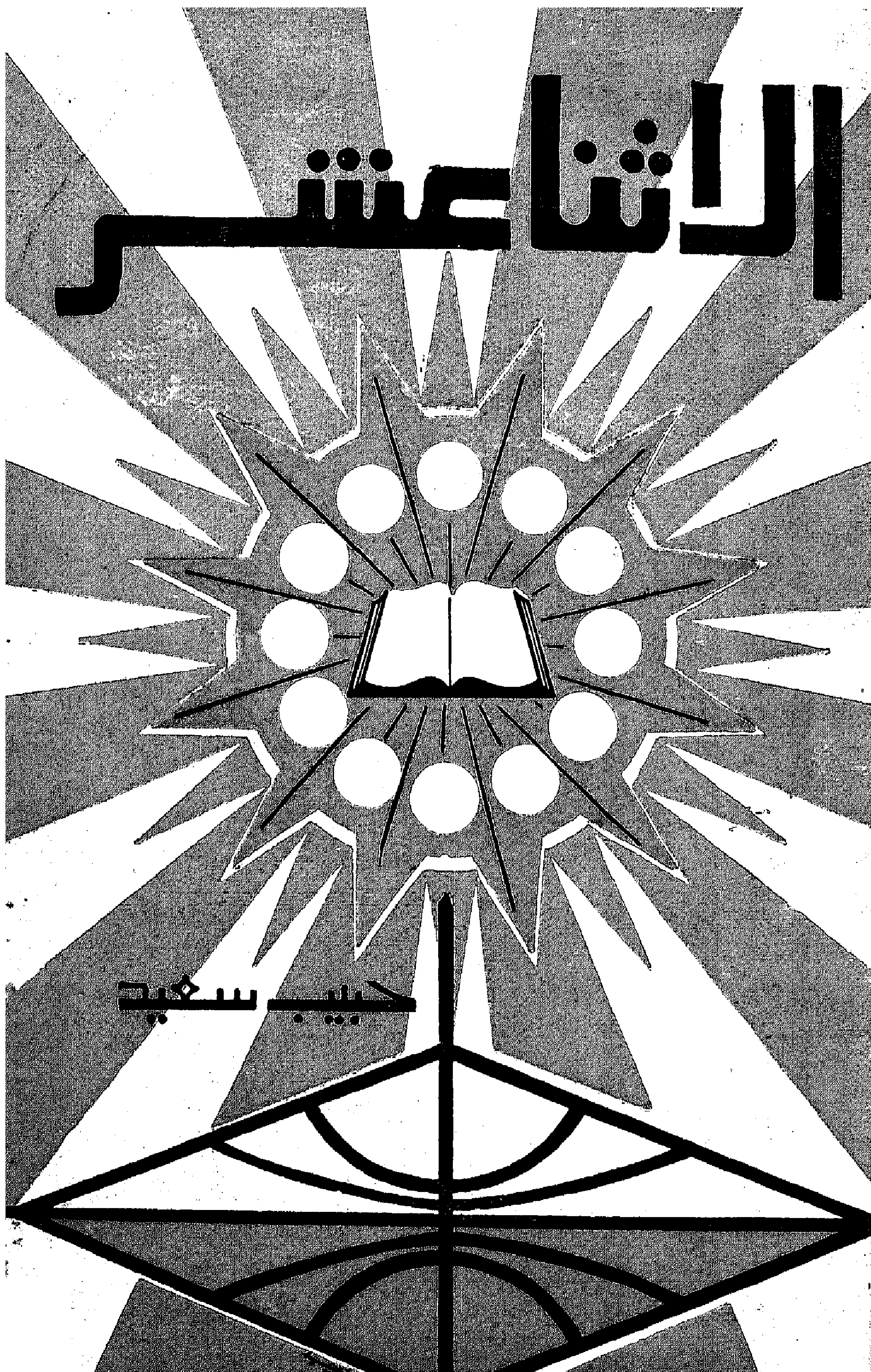




الاثنا عشر
حبيب سعيد

الاثنا عشر

وهو تحليل موجز لشخصيات التلاميذ الاثنى عشر ،
وشرح لبعض الحوادث فى حياتهم

بقلم
حبيب سعيد

(طبعة ثانية)

صدر عن دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية بمصر

تمهيد

ما أقل المؤلفات المسيحية التي كتبت عن التلاميذ الاثني عشر في اللغات الأوروبية. أما في عالم الناطقين بالضاد، فما وقفت على كتاب حديث عالج سير هؤلاء الرواد، الصحابة الأولين، الذين حملوا مشعل النور في فجر الدعوة المسيحية. ولم تذكر قصة الانجيل ذاتها إلا النذر اليسير من العبارات المبعثرة والأقوال المقتضبة التي تلقي نوراً باهتاً على تلك الشخصيات. وقد كان هذا طبيعياً، فما اراد البشيرون أن ينهجوا نهج كتّاب السير في العصر الحديث، الذين يكتبون لجماهيرَ تهوى حب الاستطلاع، وتأبى التفكير والإستنتاج. ولا نجد في قصص الإنجيل أثراً لتمجيد البطولة والعناية بالتفاصيل والدقائق، ولا ذلك الهوس الذي أصيب به كتّاب السير والتراجم في العصور المتأخرة. فضلا عن هذا لم يكن التلاميذ بالذات موضوع كتّاب بشائر الانجيل، ولا محور حديثهم، بل كان المسيح بطلهم وسيدهم، وربهم. وكانت كل رغبتهم أن يتحدثوا عما عرفوه عنه. لقد حدّقوا بأبصارهم دائماً في «شمس البر». وفي ضيائه الوهاج بهرت عيونهم، ولم يبصروا السيارات والكواكب المحيطة به، الدائرة في فلكه، سواء أكانت من السيارات الكبرى أم الأنجم الصغرى. وفي العصور المتأخرة أراد بعض الكتاب المسيحيين أن يستقصوا مصائر أولئك التلاميذ المجهولين، فنسجت التقاليد والأحاديث المتواترة حولهم حوادث وقصصاً مستقاة من مصادر خارجة عن أسفار الانجيل، إشباعاً لرغبات العالم المسيحي، التائق إلى المزيد من سير الرواد الأولين، الذين شقوا الطريق لرسالة الانجيل، لا بالسيف والرمح، بل بقوة الألم والمحبة، في مشارق الأرض ومغاربها.

وقد آليت على نفسى أن أبذل محاولة لرسم صور تخطيطية لأولئك التلاميذ الاثنى عشر ، مستعيناً بما جاء من نصوص فى الانجيل الكريم ، وبما كتبه كتّاب الغرب القلائل فى هذا الموضوع: مثل الدكتور بروس الأمريكى، والدكتور كامل مورجان الأنكليزى ، والدكتور اوسكار كولمان الفرنسى . كما استشرت كتابات قدماء المؤرخين أمثال يوسيفوس المؤرخ اليهودى ، ويوسابيوس المؤرخ المسيحى ، وبعض المخطوطات القديمة فى مكتبات البطريركيات الشرقية .

وفى تواضع ، واعتراف بالعجز ، أقدم هذا الكتاب لقراء العربية راجياً أن يلقوا فيه بعض الإشباع لحاجة ملحة فى النفوس ، ودروساً نافعة من ذلك الولاء المنقطع النظير ، والشجاعة النادرة ، والبذل الكريم ، بل من الضعف البشرى الذى امتزج بالفضائل السامية ، والكمالات الإنسانية العليا .

المؤلف

فهرس الكتاب

الفصل الأول

اللقاء الأول

نحن الآن فى إقليم « بيت عبرة »، على ضفاف نهر الأردن ، فى مجراه الجنوبى، والذين نشهدهم على مسرح الحوادث كلهم من أبنـاء الجليل ، وقد جاءوا ليروا بعيونهم ذلك الإنسان العجيب الذى ذاع صيته ، والذى كان مقدراً له أن يكون رائد المسيح ... هو يوحنا المعمدان الذى قضى أيام شبابه ناسكا فى البيداء ، يعيش على الجراد والعسل البرى ، ويرتدى عباءة من وبر الإبل .

وكان الرجل قد خرج من خلوته ، وظهر بين الناس نبياً لله ، ونادى بصوت النذير « توبوا لأنه قد اقترب ملـكوت الله » . وفى فترة قصيرة جذب إليه طوائف وزمراً من الناس . والأكثرون سمعوا مناداته ، وعادوا إلى ماضيهم خاسئين ، كأن بآذانهم وقراً فلا يسمعون ، وكأن بعيونهم عمشاً فلا يبصرون. ولـكن الأقلين تأثروا به ، والتفوا حوله ، واعترفوا بخطاياهم ، واعتمدوا فى نهر الأردن . ومن بين هؤلاء الذين اعتمدوا ، تألفت نخبة مختارة من التلاميذ الأنصار[1] ، تلاميذ يوحنا المعمدان . وأغلب الظن أنه كان بينهم الخمسة الذين أشار إليهم البشير يوحنا فى هذه العبارة : —

« وفى الغد أيضا كان يوحنا واقفا هو واثنان من تلاميذه. فنظر إلى يسوع ماشيا فقال هو ذا حمل الله. فسمعه التلميذان يتكلم فتبعا يسوع. فالتفت يسوع ونظرهما يتبعان فقال لهما ماذا تطلبان . فقالا ربى الذى تفسيره يامعلم اين تمكث .

---

(١) ما تزال حتى اليوم بقية باقية من تلاميذ يوحنا المعمدان فى مدينة بغداد يسمون انفسهم « الصابئة » . وهم يطلقون لحاهم ، ويقطنون فى حى خاص بهم ، ويتخذون النقش على الفضة صناعة لهم. وقد تحدث المؤلف إلى كثيرين منهم على الرغم من تحفظهم الشديد وتمنعهم عن الـكلام.

فقالا لهما تعاليا وانظرا . فأتيا ونظرا ، أين كان يمكث . ومكثا عنده ذلك اليوم ، وكان نحو الساعة العاشرة . كان اندراوس اخو سمعان بطرس واحدا من الاثنين اللذين سمعا يوحنا وتبعاه . هذا وجد اولا أخاه سمعان فقال له وجدنا مسيا ، الذى تفسيره المسيح . فجاء به إلى يسوع. فنظر إليه يسوع وقال انت سمعان بن يونا . أنت تدعى صفا الذى تفسيره بطرس.

« في الغد أراد يسوع أن يخرج إلى الجليل . فوجد فيلبس فقال له اتبعني . وكان فيلبس من بيت صيدا من مدينه اندراوس وبطرس . فيلبس وجد نثنائيل وقال له وجدنا الذى كتب عنه موسى في الناموس والانبياء يسوع ابن يوسف الذى من الناصرة . فقال له نثنائيل أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح قال له فيلبس تعال وانظر .

« ورأى يسوع نثنائيل مقبلا إليه فقال عنه هوذا إسرائيلى حقا لاغش فيه . قال له نثنائيل من أين تعرفني . أجاب يسوع وقال له : قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك . أجاب نثنائيل وقال له : يا معلم أنت ابن الله . أنت ملك اسرائيل . أجاب يسوع وقال له : آمنت لانى قلت لك إنى رأيتك تحت التينة . سوف ترى اعظم من هذا » .

(يوحنا ١ : ٣٥ — ٥٠)

وهؤلاء الخمسة هم :

اندراوس أخو سمعان بطرس — وآخر (أحد الاثنين) — وسمعان بطرس — وفيلبس — ونثنائيل .

ومَن هو « الآخر » الذى كان مع اندراوس ، ومَن هو أحد الأثنين ؟ لا نشك أن « الآخر » ، أو الخامس الذى لم يذكر اسمه هو « يوحنا » ، صاحب البشارة. وقد كانت طريقته ، حينما يشير إلى نفسه ، أن يغفل ذكر اسمه . كان أحد الاثنين ، اللذين سمعا المعمدان وتبعاه ، هو يوحنا البشير بعينه .

وكان المعمدان قد أذكى في هؤلاء رغبة في أن يروا يسوع ، وأعدّ أذهانهم وقلوبهم للإيمان به. ذلك لأن يوحنا في مناداته وأحاديثه ألمح إلى مَن هو أعظم منه ، آت بعده ، بعبارات تثير العواطف ، وتحمل السامعين على توقع أحداث جسام على يدي هذا الآتي المرتقب . وجعل نفسه مجرد صوت صارخ في البرية أن « قوِّموا طريق الرب ... أنا أعمد بماء ، ولكن في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه ، هو الذي يأتي بعدي ، الذي صار قدامي ، الذي لست بمستحق أن أحل سيور حذائه » .

وكانت النتيجة المحتومة لمناداة يوحنا المعمدان ، أن يتركه تلاميذه ويتبعوا يسوع . ولا نظن أن الخمسة الذين ذكروا هنا تركوا المعمدان على التّو ، ولكن هذا اللقاء الأول مع يسوع كان بدء تعارف أدى فعلاً إلى هذه النتيجة .

وجدير بنا أن نمعن النظر في رواية البشير ، ولعلنا نستلخص منها شيئاً عن أخلاق هؤلاء الخمسة ، الذين التقوا بيسوع لأول مرة بهذه الطريقة الغريبة التي وصفها الانجيل . وعلى الرغم من إيجاز العبارة ، فإن فيها ما يؤكد لنا أنهم كانوا أتقياء متدينين . ولا شك أنهم كانوا من الفئة المختارة التي ترقبت تعزية الله ومجيء مَن سيكمل مواعده ، ويحقق آمال النفوس الورعة المتعبدة . وفضلا عن هذا الإستنتاج الذي نستمده من اعترافهم المشترك عند لقاء يسوع ، فإن في القصة بعض النوافذ نطلّ منها ، لنعرف شيئاً عن أولئك الغيورين ، باكورة المؤمنين بيسوع ...

من المؤكد أن اثنين منهم كانا من تلاميذ المعمدان ، وأغلب الظن أن كلهم كانوا أيضاً من تلاميذه . وهذه الحقيقة وحدها تطلعنا على غيرتهم الروحية ، ذلك لأن أتباع يوحنا كانوا من الجياع والعطاش نحو البر ، قد سئموا البر التقليدي الطقسي ، وأمّنوا على أقوال نبي البرية في تعريضه بالاوضاع الدينية القائمة ،

ومظاهر التقوى الجوفاء ، وتاقت نفوسهم إلى قداسة غير تلك الخرافات المصطنعة والرياء الفريسى ، وفطنت ضمائرهم إلى صدق قولة النبى : «قد صرنا كلنا كنجس ، وكثوب عدة كل أعمال برنا ، وقد ذبلنا كورقة ، وآثامنا كريح تحملنا » ، وصلوا بحماس لإحياء الدين الحق ، وحلول ملكوت الله ، ومجىء المسيا الملك ورفشه فى يده ليفصل الحنطة عن القش ، ويقوم المعوج من المسالك ... تلك بلا شك كانت أحاسيس الذين نالهم الشرف أن يكونوا باكورة تلاميذ المسيح .

وسمعان ، وهو أشهر الأثنى عشر ، والمعروف باسم بطرس ، يقدم لنا هنا يوصف عرفه به يسوع بعين النبوة ، لأنه حين جىء به إلى يسوع « نظر إليه وقال أنت سمعان بن يونا . أنت تدعى صفا الذى تفسيره بطرس » . و «صفا» هى الكلمة السريانية المماثلة للكلمة اليونانية « بطرس » ، على قول البشير . وقد ميزت نظرة يسوع الثاقبة فى هذا التلميذ قوى كامنة مستترة ، هى الإيمان والولاء والجرأة .

ولم تقل القصة شيئاً عن فيلبس ، إلا أنها عينت مسقط رأسه . ومما روى عنه هنا ، ومما جاء عنه فى مواضع أخرى فى بشائر الانجيل ، نستنتج أنه كان حريصاً محاذراً ، بطيئاً فى البت والفصل . والدليل على ذلك نجده فى العبارة الفاترة المحاذرة التى قالها لنثنائيل فى وصف يسوع بعد أن لقيه : «وجدنا الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء يسوع بن يوسف الذى من الناصرة » . على أن هذه العبارة وغيرها مما أثر عنه تصوره لنا باحثاً أميناً مخلصاً وراء الحق ، وإنساناً بحث ونقب فى الكتب حتى عرف مسيا المواعد والنبوات . وفى محاولته إقناع صديقه نثنائيل للسير معه ، نرى الروح السمحة الكريمة ، التى هى من خواص الباحثين الأمناء . وقد تمثلت هذه الروح عينها فيما بعد ، يوم حمل طلبة أتقياء اليونان لرؤية يسوع .

أما ما قيل عن نثنائيل ، صديق فيلبس ، فقد كان أكثر إسهاباً مما قيل عن

غيره . ومن الغريب حقاً أن يقال هنا هذا الكثير عن إنسان لا نكاد نعرف عنه شيئاً . ويذهب بعض الشراح إلى أنه ليس من الاثنى عشر ، على أن الأغلبية من الشرّاح يسلمون أنه هو بعينه المسمى « برثلماوس » فى قائمة التلاميذ ، كما جاءت فى بشائر الانجيل الثلاث الأولى . ومما يؤيد هذا الرأى أن الاسم « برثلماوس » يرد مباشرة بعد فيلبس فى قوائم الرسل . ومهما يكن من أمر ، فأنّا على يقين أن نثنائيل كان من أفاضل الناس ، أدباً وخلقاً . فما أن يراه يسوع حتى يقول : « هوذا اسرائيلى حقاً لا غش فيه ! » . وهذه الكلمات تعنى رجلا طاهر القلب ، خلت نفسه من البواعث الدنسة ، والميول المعوّجة ، رجلاذا روح رقيقة مفكرة ، تنعكس السماء على ذهنه وتفكيره ، كما تنعكس زرقة السماء الصافية ، على صفحة بحيرة هادئة ، فى يوم من أيام الربيع الصافية . كان الرجل شغوفاً بالتعبد والتفكير فى الروحيات ، وقد كان منهمكاً فى رياضة روحية ، تحت ظلال شجرة من أشجار التين ، قبل أن يلتقى بيسوع . لذلك نسمع السيد يقول له عند أول لقاء : « قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك » . ويخيل الينا أن نثنائيل فهم من هذه العبارة : « رأيت ما فى داخل قلبك ، وعرفت ما كنت تفكّر فيه ، لذلك أيقنت أنك اسرائيلى لا غش فيك » . وقد اتّخذ من هذا القول دليلا على معرفة يسوع بالغيب ، واطلاعه على دبيب النى وأسرار القلوب ، لذلك صرح قائلا : « يا معلم ، أنت ابن الله ، أنت ملك اسرائيل ! — ملك ذلك الملكوت المقدس الذى تحسبنى مواطناً فيه » .

وغريب حقاً أن يكون هذا التلميذ — الذى منحته السماء حساسية روحية — هو الوحيد بين التلاميذ الخمسة الذى يبدى تردداً فى قبول يسوع مسيحاً لهم . فإنه حينما أخبره فيلبس انهم وجدوا المسيا فى شخص يسوع الذى من الناصرة ، أجاب ناكراً : « أمن الناصرة يمكن أن يكون شىء صالح ؟ » ولأول وهلة ،

لانكاد نصدق أن يصدر مثل هذا القول من إنسان وديع ، ودود ، محبوب .
ولكن بعد قليل من التفكير ، تزول دهشتنا . ذلك لأن تعصب نثنائيل ضد الناصرة لم يكن مرده إلى الكبرياء ، شأن أهل اليهودية الذين احتقروا أهل الجليل عامة ، إنما كان سببه التواضع والوداعة . فقد كان نثنائيل نفسه جليلياً ، والناصرة من الجليل . وكان هدفاً لاحتقار اليهود ، مثل الناصريين تماماً، وقد أوحت اليه نفسه : « ان المسيا لن يخرج من وسط شعب فقير مرذول محتقر مثلنا ، لا من الناصرة ، ولا من أية مدينة جليلية أخرى » . وأكبر الظن أن الرجل قد انساق فى تفكيره مع تيار الرأى العام المدفوع بعواطف لا يشترك هو فيها . وهذه خاصية كثيراً ما نجدها فى الأتقياء الطيبين الذين يستسلمون عادة إلى سلطان الرأى العام، ويسايرونه كارهين فيما يفكر فيه .

على أن بعضهم يذهب إلى أن الناصرة فى ذلك العهد كانت مدينة وبيئة بالمفاسد والشرور ، واشتهرت بسوء الأحدوثة بين مدن الجليل وقراه . ولذلك استبعد نثنائيل أن يخرج منها المسيا المرتقب .

ونثنائيل هذا — وإن يكن أبدى شيئاً من التعصب والتردد — فأنه تغلب سراعاً على هذا النقص فيه ، إذ قام وجاء ونظر . وهذا العقل المفتوح دليل على السمو النفسى والأخلاق ، لأن الرجل الذى « لاغش فيه » لا يتصلف ، ولا يستبد برأيه ، ولكنه يبحث ويناقش ، إلى أن يصل إلى الصواب أخيراً . أما الإنسان الشرير ، ذو القلب السقيم «الذى كله غش » ، فلا يأتى ولا ينظر، لأنه يأبى أن يرى شيئاً قد يتعارض مع العقائد الوضعية التى درج عليها ، واعتصم بها عن ضيق فى الفكر ، وصلابة فى القلب .

* * *

تلك كانت أخلاق الرجال الذين آمنوا أولا بيسوع . فماذا كان ايمانهم فى

أول العهد ؟ انه ليبدو لنا لأول وهلة — اذ غضضنا الطرف عن تردد نثنائيل — أن ايمانهم كان فجائياً ، ونضج قبل الأوان . فهم آمنوا بيسوع من أول نظرة ، وعبّروا عن هذا الإيمان بألفاظ وعبارات لا يفهمها غير المتقدمين في إدراك معانى المسيحية وأسرارها . وفى مستهل هذا التعارف ، وفى أول لقاء ، نراهم يطلقون على يسوع ، ليس ألقاباً مثل المسيح ، والمسيا ، وملك اسرائيل وحسب ، بل ألقاباً أخرى مثل ابن الله ، وحمل الله — وهذه ألقاب تعبّر لنا عن العقائد الأساسية فى المسيحية ، عن التجسد والكفارة .

على أن العجلة ، والنضج السريع ، والإدراك الفجائى ، مما اتسم به إيمان التلاميذ الخمسة ليست إلا ظواهر سطحية . فما يختص بالعجلة ، نقول ان أولئك الرجال آمنوا بأن المسيا آت يوماً ما ، وتمنوا على الله أن يكون هذا المجىء سريعاً لشدة الافتقار اليه . كانوا فى حالة ترقب وانتظار ، وقد تأهبوا لمجىء المعزى فى أية ساعة . ثم يظهر المعمدان ، ويذيع فيهم أن المسيح قد جاء فى شخص قائم بينهم ، هو الذى عمّده أمام أعينهم ، والذى اقترنت معموديته بعلامات غريبة من السماء . وأولئك الرجال آمنوا يقيناً بما قاله لهم يوحنا . ثم يلتقون بيسوع ، فيجدون فيه مايؤيد شهادة يوحنا ، إذ يرونه جديراً بالمسيا[1] المنتظر .

وكذلك نحسب النضج السريع فى إيمانهم ظاهرة سطحية أيضاً . فلقب « حمل الله » قد خلعه عليه يوحنا المعمدان لاهم . وكان هذا اللقب «اسم المعمودية» الذى تلقاه نبي البرية بوحى خاص . ولعله فهمه فهماً غامضاً ، ولم يدرك ماانطوى عليه من معنى عميق . وعندنا أن تكرار هذا اللقب على لسانه دليل على أن

(١) المسيا هى الصيغة اليونانية للكلمة « مشيحا » ، والعبرية « مشيح » ، والعربية « المسيح » ، أى الملك المسوح من الله والمنتظر من الشعب اليهودى وفيه تتم النبوات .

المتعلِّم الملقَّن يحاول أن يكتنه سره . والذى نعتقده أن ما فهمه الآن المعمدان فهماً غامضاً ، لم يفهمه التلاميذ إطلاقاً إلا بعد ان رأوا الحوادث بأعينهم ، وبعد انقضاء زمن طويل فى التدريب والترويض .

ولست أدرى لماذا يدهشنا ان تجرى هذه الألفاظ على لسان المعمدان ، وقد سبقه فيها نبى قديم فى الفصل الثالث والخمسين من نبوات اشعياء ، أفلا يكون شاهد البرية قد نقل الفكرة عن النبى القديم ؟ أما أن يكون المعمدان قد أدرك تماماً مغزى أقواله ، وما انطوت عليه ، فلسنا مضطرين أن نؤمن به . انما نؤيد انها كانت فى نظره سراً ، كما كانت فى نظر انبياء العهد القديم .

أما لقب « ابن الله » فقد خلعه عليه أحد التلاميذ الخمسة ، كما خلعه عليه المعمدان ، وهو لقب حلا للتلاميذ فيما بعد أن يعبروا به عن ايمانهم الناضج بربهم . على أنه بعيد أن يكونوا قد استعملوا هذا اللقب فى أول لقاء ، بالمعنى عينه الذى فهموه فى نهاية المطاف مع سيدهم . وكان من الجائز استعمال اللقب كأحد ألقاب العهد القديم الدالة على المسيا ، المرادف للمسيح . وما من شك فى أن نثنائيل قصد هذا المعنى الذى أردفه بقوله « ملك اسرائيل » .

إذاً كان ايمان التلاميذ الأولين ايمان المبتدئين . وكان جوهر ايمانهم أن يسوع هو النبى المرسل من الله ، والملك ، وابن نبوات العهد القديم . وقيمة هذا الايمان البدائى ليست فى مدى نضوجه ، ولا فى دقة تعبيره ، بل فى تقريبهم واتصالهم بسيِّد جديد ، أخذ يدربهم ويروضهم ليروا تدريجاً عظائم وعجائب ، ويعرفوا حقاً بعد آخر ، يتألق فى سماء أذهانهم وقلوبهم ، كما تتألق الكواكب فى المساء تدريجاً ، وعلى التعاقب ، كلما أخذ نور النهار فى الزوال والإدبار .

الفصل الثانى

على شاطىء البحر

« وفيما هو يمشى عند بحر الجليل أبصر سمعان وأندراوس أخاه يلقيان شبكة فى البحر . فانهما كانا صيادين . فقال لهما يسوع هلم ورائى فأجعلكما تصيران صيادى الناس . فللوقت تركا شباكهما وتبعاه . ثم اجتاز من هناك قليلا فرأى يعقوب بن زبدى ويوحنا أخاه وهما فى السفينة يصلحان الشباك . فدعاهما للوقت . فتركا أباهما زبدى فى السفينة مع الأجرى وذهبا وراءه » .
(مرقس ١ : ١٦ - ٢٠ وانظر أيضاً متى ٤ : ١٨ - ٢٢)

رأينا فى الفصل السابق كيف كان اللقاء الأول بين المسيح وبين خمسة ممن اصطفاهم فيما بعد تلاميذ له . وقد توطدت العلاقة بين المسيح وتلاميذه فى أطوار متتابعة. ففى أول الأمر نراهم مؤمنين به ايماناً بدائياً ، مسيّا الموعود به ، يرافقونه فى فترات متقطعة ومناسبات خاصة . وقد روى البشير يوحنا فى الفصول الأولى من بشارته بعض الذكريات التى تشرح لنا كيف تعرّف بعض التلاميذ إلى يسوع ، وتصورهم لنا ملازمين له فى بعض المواسم والأعياد ، مثل حضور عرس فى قانا الجليل (يوحنا ٢ : ١) ، أو فصح فى اورشليم (يوحنا ٢: ١٣و١٧ و٢٢) او زيارة إلى موضع يوحنا المعمدان (يوحنا ٣ : ٢٢) ، او رحلة من السامرة إلى جنوب الجليل (يوحنا ٤ : ١ — ٢٧ و ٣١ و ٤٣ — ٤٥) .

ثم تتطور هذه الصلة المتقطعة ، اتغدو ملازمة مستمرة له ، وهجراً لأعمال حياتهم العادية ، والانقطاع للسير وراءه والتعلم منه . والآن نشهد يسوع ، عند

شاطىء بحر الجليل ، يدعو اليه أربعة من الصيادين ، منهم ثلاثة من معارفه القدماء الذين عرفهم من قبل — وهم بطرس واندراوس ويوحنا . اما الرابع — وهو يعقوب أخو يوحنا — فاننا نلقاه هنا لأول مرة .

ومن قصة الانجيل يبدو لنا جلياً أن يسوع بدا ، من أول خدمته ، يجمع حوله نفراً من الاتباع ليجعل منهم فيما بعد وكلاء عنه يحملون رسالته من بعده ويجاهدون لتأسيس ملك السماء على الأرض ، الذى اتخذه هدفاً له . ولهذا الغرض يدعو اليه الآن اربعةً (زوجين من الأخوة) ، وكان ذلك فى بدء عمله فى الجليل ، يوم اتخذ كفر ناحوم مقراً مختاراً له ، ومركزاً لعملياته . وكان مقرراً أن يكون التلاميذ الاثنا عشر شهوداً له فى العالم من بعده ، ووكلاء امناء يشرحون للبشر اعمال سيدهم واقواله ، ويرسمون لهم صورة صادقة لأخــــلاقه وصفاته وروحه . ولم يكن بدٌّ ان يكون هؤلاء من شهود العيان ، ومن المخلصين الأوفياء الذين يقدر ان يطلعهم يسوع على سر بمثته ، وحقيقة ذاته ، ومصير حياته . من ثم يختارهم فى السنة الأولى من خدمته العامة لتتاح لهم فرصة كافية للترويض والتدريب والتعلّم . وفيما عدا بطرس ويعقوب ويوحنا واندراوس ومتى ، لا نعرف كيف دعا يسوع رسله الآخرين . على اننا نفترض ان دعوتهم كلهم كانت فى السنة الأولى من خدمته .

وكان بديهياً أن يتوافر للذين وُكلت إليهم هذه المهمة الخطيرة مؤهلات نادرة ، وكان محتوماً أن تُصقل المرايا التى قدِّر لها أن تعكس صورة المسيح . نعم ، كان فرضاً لازماً أن يكون رسل المسيحية من ذوى المواهب الروحية الممتازة . ذلك لأن المسيحية دين جامع لكل الأمم والشعوب ، ومفروض أن يكون رسلها خالين من التزمت اليهودى وضيق الفكر ، ومشبعين بروح العطف والسماحة . وهى دين روحى ، لا يتقيد بالفرائض الجامدة ، والمواقيت المحددة ، لذلك وجب

أن يكون رسلها فى حلٍّ من أثقال الطقسية البليدة ، وأنيرة الفروض القاسية . وهى دين قدّر له أن ينادى بالصليب ، أداة القسوة والعار ، شعاراً لرجاء العالم وفدائه ، ورمزاً لكل نبيل كريم فى الخلق الإنسانى . لذلك وجب أن يكون دعاتها فوق كل الآراء الوضعية عن الكرامة الإنسانية والإلهية ، متأهبين أن يشيدوا بمجد الصليب ، وأن يحملوه هم أنفسهم . وقصارى القول ينبغى أن تتوافر فى الأخلاق الرسولية : حرية الضمير ، وسعة القلب ، واستنارة العقل ، على أفضل ما تكون هذه الخواص .

وكان لزاماً على صيادى الجليل أن ينالوا التلقين والتعليم قبل أن يحصلوا على هذه المؤهلات ، وأن ينتزعوا من عقولهم وقلوبهم ما يغاير هذه الصفات . ولا نشك أنهم كانوا من الأتقياء عند دعوتهم ، أخلصوا لسيدهم الجديد الاخلاص كله فى أنهم تركوا كل شىء وتبعوه . على أنهم كانوا وقت دعوتهم جهلاء ، ضيق الفكر ، متعلقين بالخرافات ، وأسباب التعصب اليهودى ، والآراء الخاطئة ، وعوامل البغضاء والحقد . وكم كانوا بطيئين فى تعلم الصالحات ونبذ السيئات ! كانت قلوبهم أرضاً طيبة ، صالحة فى معدنها ، خصيبة فى الأثمار والإنتاج ، ولكنها كانت أيضاً أرضاً صلبة افتقرت إلى كثير من ضروب العزق والحراثة قبل أن تعطى ثمرها . ثم كان اولئك فقراء ، من مولد وضيع ، ومرتبة اجتماعية ليست رفيعة ، ومهن ليست من المهن الكريمة فى أعين الناس ، لم ينالوا قسطاً من التعليم الحر المفكر ، ولم يمتزجوا بالطبقات المثقفة بين الناس . على أنه متى وجدت النفس النبيلة ، والقلب المخلص ، فهناك إمكانيات فى النمو والارتقاء لاحد لها .

ولكن على الرغم من نقصاتهم العديدة ، فقد امتاز أولئك الصيادون الجليليون الوضيعون عند دعوتهم بفضيلة عظمى ، هى أم الفضائل فى الأخلاق المسيحية ،

ومفتاح الرق السامي الرفيع — وتلك هي ولاؤهم التام ليسوع ولملكوت الله ، مما جعلهم فيما بعد يستعذبون كل تضحية في هذا السبيل . وإذ آمنوا أن الذي دعاهم إليه هو المسيح ، الآتي لتأسيس ملكوت الله على الأرض ، تركوا شباكهم على الفور ، وساروا في ركابه ليكونوا من الآن فصاعداً زملاء له في حله وترحاله . وقد قدّر يسوع لهم هذا الصنيع ، ولا يحق بنا أن نكون متعسفين ، فنعزو هذه العجلة في تلبية الدعوة — كما يشتط بعض الناقدين في تحقيرها — إلى الكسل، أو عدم الرضى عن أحوالهم الراهنة ، أو لبواعث طموحة . ذلك لأن قصة الانجيل تصور الأخوة الأربعة ناشطين عاملين في صناعتهم . وليس ثمة سبب يجعلهم غير راضين أو قانعين . وقد كانت اسرة يعقوب ويوحنا على الأقل ، على حال من اليسر وذلك لأن رواية مرقس تقول انهما تركا أباهما زبدي مع الأجرى ، وساروا وراء المسيح . ولكن هل كان للطموح مكان بين بواعثهم ؟ لا ننكر أن الاثنى عشر ، وخاصة يعقوب ويوحنا ، قد داعبت افكارهم بعض الميول الطموحة الطامعة ، ولكن مهما يكن من أمر ، فلا نظن أن الطموح كان الباعث الذي حملهم على ترك شباكهم ، لأن الطموح يفتقر إلى مغريات تثيره في نفس الإنسان الطموح ، وهو لا يجازف بالإنضمام إلى حركة غامضة ، مشكوك في نجاحها ، تتطلب جهاداً عنيفاً قتالا ، ولا يضرب ضربته إلا متى أمن الفشل ووثق من الظفر . ولم تكن حركة يسوع قد بلغت هذا الطور .

أما التهمة التي لصقت بهم — ان صح أن نسميها تهمة — فهي أن أولئك الرجال كانوا متحمسين غيورين ، فاضطرمت قلوبهم بنار آكلة ، وامتلأت رؤوسهم بحلم عن ملكوت إلهي يقوم في إسرائيل ، على رأسه يسوع الناصري . وقد راودهم هذا الحلم ، وتملك مشاعرهم ، وتسلط على قلوبهم — فاضطروا — كأفضل

ابراهيم قديماً — أن يهجروا الأهل والوطن ، وأن يبدأوا رحلة كانت فى ظاهرها حماقة وجهلا . ولكن طوبى لهم أن تسلطت عليهم فكرة هذا الملكوت ! فلم تكن فعلتهم حمقاء ، لأنهم بلغوا ملكوتاً أعظم مما كانوا به يحلمون ، وغدا صيادو الجليل صيادى الناس على نطاق واسع ، فجمعوا بمعونة الله انفساً كثيرة لا تحصى إلى كنيسة العلى . ومازالوا حتى اليوم يطرحون شباكهم فى هذا العالم ، ومازالوا بشهادتهم فى الأنجيل والرسائل ، يجتذبون إلى ربهم ربوات البشر ليكونوا تلاميذ لذاك الذى أسعدهم الحظ أن يكونوا من أوائل أتباعه ومريديه .

ترك الأربعة ، والاثنا عشر ، كل شىء وتبعوا سيدهم . فهل « كل شىء » يشمل الزوجة والأولاد ؟ إننا نعلم أن احد التلاميذ — بطرس — كان متزوجاً ، لأن المسيح ابرأ حماته ومن قولة للرسول بولس فى رسالته الأولى إلى كورنثوس ، يتبين أن بطرس لم يكن الوحيد بين الرسل الذى كان متزوجاً (١ كورنثوس ٩:٥).

ومن هذه القولة عينها نخلص بأن ترك الزوجات من أجل المسيح لم يكن يقصد به هجراً بالمعنى الحرفى ، ذلك لأن بطرس الرسول كان يصحب زوجته معه ، ولعل بطرس التلميذ كان يفعل هذا بعينه أحياناً . والارجح أن التلاميذ المتزوجين كانوا — كالجنود المتزوجين فى بعض البلدان — يصحبون أو يتركون زوجاتهم حسب مقتضيات الأحوال . وقد تبع النساء — حتى المتزوجات — يسوع . وربما كانت زوجة سمعان أو غيره من الرسل فى عدادهن . وفى تاريخ مبكر من قصة الانجيل ، نرى أم يعقوب ويوحنا بين صحابة المسيح بعيدة عن موطنها الأصلى . وإذا كان هذا قد أبيح للامهات ، فهو لابد كان مباحاً أيضاً للزوجات إذا رغبن فى ذلك .

ويخيل إلينا أن الكنيسة الناشئة ، فى حالتها البدائية المتنقلة ، كانت أشبه

بزمرة مختلطة من الحجيج أجتمع فيها كل أجناس الناس ، بغض النظر عن الجنس أو المكانة الاجتماعية أو الأخلاق الأدبية . وكانت العروة الوثقى هي الولاء المتحمس لشخص يسوع .

ولم تكن تلك الكنيسة البدائية المتنقلة جماعة منظمة ، يُشترط فيها العضوية المستمرة لاكتساب صفة التلمذة . وفيما عدا الأثني عشر ، كان إتباع يسوع والسير وراءه من مكان إلى مكان ، أمراً اختيارياً لا اضطرارياً ، وفي أغلب الأحيان كان أيضاً عرضياً . وكان هذا طبيعياً ، لأن رئيس الإيمان نفسه ، ومركز الدائرة ، كان في حركة دائبة . وطبيعي أن يسير المؤمنون وراء بطل إيمانهم أينما سار ، ليروا أعماله ويسمعوا أقواله . ولكن بعد أن غادر رئيس الإيمان هذا العالم ، وصار حضوره روحياً ، انتهى طبعاً عهد التلمذة الراحلة المتنقلة . وكان يُشترط على الاتباع والانصار أن يتركوا شيئاً واحداً — خطاياهم !

الفصل الثالث

الرسامة

« ثم دعا تلاميذه الاثنى عشر واعطاهم سلطاناً على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض وكل ضعف . وأما أسماء الاثنى عشر رسولا فهى هذه : الأول سمعان الذى يقال له بطرس وأندراوس أخوه . يعقوب بن زبدى ويوحنا أخوه . فيلبس وبرثولماوس . توما ومتى العشار . يعقوب بن حلفى ولباوس الملقب تداوس . سمعان القانوى ، ويهوذا الاسخريوطي الذى اسلمه » . (متى ١٠ : ١ — ٤)

« ثم صعد الى الجبل ودعا الذين أرادهم فذهبوا اليه . وأقام اثنى عشر ليكونوا معه وايرسلهم ليكرزوا . ويكون لهم سلطان على شفاء الامراض وإخراج الشياطين وجعل لسمعان اسم بطرس . ويعقوب بن زبدى ويوحنا أخا يعقوب وجعل لهما اسم بوانرجس أى ابنى الرعد . وأندراوس وفيلبس وبرثولماوس ومتى وتوما ويعقوب بن حلفى وتداوس وسمعان القانوى. ويهوذا الاسخريوطى الذى أسلمه » . (مرقس ٣ : ١٣ — ١٩)

« وفى تلك الايام خرج الى الجبل ليصلى . وقضى الليل كله فى الصلاة لله . ولما كان النهار دعا تلاميذه واختار منهم اثنى عشر الذين سماهم أيضاً رسلاً . سمعان الذى سماه أيضاً بطرس واندراوس أخاه يعقوب ويوحنا . فيلبس وبرثولماوس . متى وتوما . يعقوب بن حلفى وسمعان الذى يدعى الغيور . يهوذا أخا يعقوب . يهوذا الاسخريوطى الذى صار مسلماً أيضاً » . (لوقا ٦ : ١٢ — ١٦)

رأينا فى الفصلين السابقين كيف كان اللقاء الأول بين يسوع وبين خمسة من تلاميذه ، ورأينا كيف كان التلاميذ يرافقون سيدهم فى فترات متقطعة وفى مناسبات خاصة فى المواسم والأعياد ، ثم رأيناه يدعو أربعة من الصيادين وهم يكدحون على شطئان بحر الجليل ..

وها نحن أولاء نراه يختار من بين جمهرة أتباعه وأنصاره أثنى عشر ، ويؤلف منهم نخبة مختارة ، ليدربهم ويروضهم ، ليكونوا رسلا له من بعده. وأغلب الظن أن هذا الأختيار — وهو الذى يحلو لنا أن نسميه الرسامة — قد تمّ بعد أن كان أفراد الجماعة الرسولية قد قضوا بعض الزمن مع يسوع . وهنا نحسُّ كأننا نقف أمام حدّ فاصل فى تاريخ الانجيل : يقسم حياة المسيح العملية فترتين ، متعادلتين فى المدى ، مختلفتين فى الآثار والنتائج . ففى الفترة الأولى جاهد يسوع منفرداً ، واقتصرت معجزاته وآياته على منطقة محدودة ، وكانت تعاليمه ذات صفة بدائية للمبتدئين . ولكن ما أن يختار الاثنى عشر حتى يتسع نطاق عمل الملكوت بحيث يقتضى الحال التنظيم ، وتوزيع المهامّ ، وتقسيم المسئوليات . وتكتسب تعاليم يسوع لوناً أعمق ، وصفة أرق ، ويتسع نطاق جهوده ونواحى نشاطه .

ومن المحتمل أن يكون انتخاب نخبة مختارة ليكونوا زملاء ملازمين له ، قد أملته الضرورة على يسوع بعد أن رأى تكاثر أتباعه وتلاميذه . والذى نتصوره أن أولئك الأتباع قد زاد عديدهم بحيث أعاقت كثرتهم حريته فى التنقل والتجول وخاصة فى الرحلات الطويلة . ولم يكن سائغاً أن يجرّ وراءه أينما ذهب هذا العدد الغفير من الأتباع والأنصار ، والكثرة يندس فيها أحياناً مَن يكونون حرباً عواناً على الجماعة كلها . والآن يريد يسوع أن يصطفى الأقربين إليه ليكونوا معه فى كل الأوقات ، وفى كل الأماكن — زملاء الحل والترحال ، وشهوداً لأعماله وآياته ، وأعواناً له على تكاليف الحياة اليومية . لذلك نسمع البشير مرقس يقول فى عبارته الغريبة النادرة : «ودعا الذين أرادهم فذهبوا إليه ، وأقام أثنى عشر ليكونوا معه» .

والذى نعلمه أن أولئك الاثنى عشر كانوا أكثر من زملاء فى الرحيل والإقامة وأكثر من أعوان له على قضاء الحاجات .. كان عليهم أن يكونوا فى الوقت عينه طلاباً فى مدرسته لدراسة العقائد المسيحية ، وشركاء له فى عمل الملكوت ، ووكلاء

المسيح المختارين لنشر دعوته بعد ذهابه عنهم . ومنذ الوقت الذى تم فيه اختيارهم بدأ الاثنا عشر دور التلقين والتمرين ليشغلوا فيما بعد وظائف الرسل . وفى صلاتهم اليومية ، وفى خلواتهم مع سيدهم ، آمن التلاميذ وتعلموا كيف يكونون شهوداً ورسلاً له فى العالم . وكان تدريبهم مهمة عزيزة على قلب يسوع ، فأوحى إليهم فى الظلام بما سيقولونه فى رابعة النهار ، وهمس فى آذانهم بما ينادون به من فوق السطح فى مقتبل السنين .

أما الوقت الذى تم فيه الانتخاب ، فلم يعين بالضبط . ولكن يمكن تحديده على وجه التقريب ببعض الحوادث فى تاريخ الانجيل . فيوحنا يتحدث عن الأثنى عشر كأنهم جماعة منظمة وقت إجراء معجزة إشباع الخمسة آلاف ، ووقت الحديث عن خبز الحياة فى مجمع كفر ناحوم ، الذى ألقاه المسيح بعد تلك المعجزة تواً . ومن هذا نستبين أن الأثنى عشر قد تم أنتخابهم قبل الصلب بسنة على الأقل ، لأن معجزة الإشباع جرت على قول البشير الرابع قبيل عيد الفصح (يوحنا ٦ : ٤) . وكذلك نستنتج مما قاله يسوع لمختاريه ، تبريراً لريبته فى وفائهم وإخلاصهم بعد أن هجرته الجموع ، أن انتخابهم لم يكن حديث العهد «أليس إنى أنا اخترتكم الأثنى عشر وواحد منكم شيطان» (يو ٦ : ٧٠) . ولا شك فى أن التلاميذ كانوا قد قضوا معاً فترة كافية ، أطلعتهم على أخلاق التلميذ المزيف .

وإذا عدنا إلى البشائر الثلاث الأولى ، نراهم يعينون موعد الأنتخاب بالاشارة إلى حادثتين هامتين فى تاريخ الانجيل . ذلك لأن «متى» يتحدث لأول مرة عن التلاميذ كجماعة منتظمة فى معرض حديثه عن بعثهم إلى الجليل . على أنه لا يقول ان انتخابهم قد تم قبل البعثة مباشرة ، بل يتحدث كأن الأخوية الرسولية قائمة فى الوجود منذ أمد . أما لوقا فيجعل الانتخاب مقدمة « للعظة على الجبل » وسابقا لها . وتؤيد رواية مرقس هذا الرأى ، أى أن أختيار التلاميذ قد تم قبيل الموعظة

على الجبل ، وقبل إيفادهم فى بعثة لبثّ الدعوة وشفاء الأمراض . وفى هذا يقول البشير : « ثم صعد إلى الجبل ودعا الذين أرادهم » . والصعود هنا هو الذى قام به يسوع قبل أن يهبط إلى السهل لإلقاء عظته المأثورة . ثم يقول « وأقام اثنى عشر ليكونوا معه وليرسلهم ليكرزوا ، ويكون لهم سلطان على شفاء الأمراض وإخراج الشياطين » . والإشارة هنا إلى « قصد » إنتواه يسوع ، هو إيفاد تلاميذه فى بعثة خاصة . على أن هذا القصد لم يتمّ فور الساعة ، ولا تدلُّ صيغة الكلام على هذا المعنى ، ذلك لأن البشير يصف هذه البعثة فيما بعد فى بشارته ويستهلها بقوله : « ودعا الأثنى عشر وابتدأ يرسلهم » (مرقس ٦ : ٧) .

وبعد هذا يمكن القول بصيغة التأكيد أن دعوة الأثنى عشر كانت مقدمة للعظة على الجبل ، التى كانت بمثابة خطبة العرش على تأسيس ملكوت الله ، والتى كان مقدّراً أن يساهم التلاميذ بنصيب وافر فى تأسيسها . ونحن لا نقدر أن نحدد بالضبط الزمن الذى ألقيت فيه العظة على الجبل . وأكبر الظن أنها أُلقيت فى ختام الخدمة الطويلة التى قام بها يسوع فى الجليل ، فى زمن متوسط بين زيارتيه إلى أورشليم فى العيد ، اللتين أشار إليهما البشير يوحنا فى الفصلين الثانى والخامس من بشارته .

أما « عدد » المختارين من التلاميذ ، فأمر يستوقف النظر حقاً . وقد كان بين الأتباع — الذين تكاثر عددهم حتى أمكن اختيار ما لا يقل عن السبعين فيما بعد عندما دعت الحاجة إلى ملحقين لبث الدعوة — عدد كبير من الصالحين للانتخاب. وقد ذهب بعض الشرّاح والعلماء إلى أن الاقتصار على أثنى عشر كان متعمداً ، وهو يرمز إلى الفكرة التى جاء المسيح من أجلها ، ويلمح إلى أن يسوع كان الملك المسيا الذى وكل إليه أن يقيم المملكة التى تنبأ عنها الأنبياء بأسلوب أخاذ متلمع ، وهى المملكة التى يتحد فيها أسباط الشعب المختار الأثنى عشر تحت بيت داود الملكى . وهذه الفكرة هى التى ألهبت قلوب التلاميذ حماساً وغيرة .

ومما يثبت أن الرقم ١٢ كان يحمل هذا المعنى ، ما قاله المسيح نفسه للرسل في مناسبة بعد ذلك ، وهو يصف المثوبات التي تنتظرهم في الملكوت لقاء خدماتهم وتضحياتهم : « الحق أقول لكم انكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده ، تجلسون أنتم أيضاً على أثني عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الأثني عشر » (متى ١٩ : ٢٨) .

ومن المحتمل جداً أن يكون الرسل قد عرفوا معنى هذا الرقم ، فامتلأت نفوسهم بالآمال الخادعة التي اعتزوا بها في أول العهد ، حاسبين أن الملكوت الآتي لن يكون روحياً فقط ، بل منطوياً على إعادة مجد إسرائيل وإسترداد الأستقلال المسلوب . وكان هذا إحدى السيئات التي نشأت عن الرقم ١٢ — على أن يسوع لم يكن يعبأ بمثل هذه التوافه . وكانت طريقته في كل الأشياء أن يعتصم بالحق والصواب ، وبعد ذلك يصحح ما قد ينشأ من أخطاء أو سوء فهم .

ومن عدد الصحابة الرسولية ، ننتقل إلى أشخاصهم : وستة من الاثنى عشر — وهم الستة الأول في قائمتي مرقس ولوقا — بفرض أن برثولماوس ونثنائيل هما شخص واحد — قد عرفناهم فيما تقدم ، ورأيناهم عند اللقاء الأول ، وعند شاطىء البحر . .

ومتى هو العشار الذي دعاه المسيح عند مكان الجباية في كفر ناحوم .

وتوما ، أو التوأم ، هو الرجل صاحب القلب الكبير المتحمس ، ولكنه أيضاً صاحب المزاج السوداوي ، فهو متأهب أن يموت مع سيده ، ولكنه يتلكأ في الإيمان بقيامته .

وفي القائمة ثلاثة من الأسماء الغامضة : أولهم يعقوب بن حلفى . ويذهب علماء الكتاب المقدس إلى الظن بأن يعقوب هذا هو بعينه يعقوب أخو الرب . والثاني تداوس وهو التلميذ ذو الأسماء الثلاثة ، ففي بشارة مرقس يدعى « تداوس » ، وفي بشارة لوقا يدعى « يهوذا أخا يعقوب » ، وفي بشارة متى يدعى « لباوس » . ومعنى

هذا أنه كان بين صحابة يسوع اثنان باسم « يهوذا » . ونرى هذا التلميذ مرة أخرى مميزاً عن « الأسخريوطي » ، ليلة الصلب ، وقد كان في تلك الليلة كلها سائلا، وأشار إليه البشير يوحنا بقوله «يهوذا ليس الاسخريوطي »(يو١٤: ٢٢). ويذهب فريق من العلماء إلى أن لباوس ويهوذا اسمان لشخصين مختلفين،ويقولون ان الأول كان قد مات في حياة المسيح ، وأن يهوذا هذا قد اختير ليحل مكانه . والأسم الثالث الغامض هو « سمعان القانوي » ، وبقدرما اشتهر سمعان بن يونا، وذاع اسمه في الآفاق ، بهذا القدر عينه بات اسم « القانوي » مجهولا ، لا نعرف عنه شيئاً من قصة الأنجيل سوى ذكر اسمه في قائمة الرسل . على أنه مع انزوائه ، فإنه يحمل اسماً غريباً ، ذلك لأن اللقب « القانوي » سياسي ، لا جغرافي ، لأن لوقا يدعوه « الغيور » . وهذا اللقب يجعله عضواً في حزب الارهابيين اليهودي الذي رفع راية العصيان تحت زعامة يهوذا الجليلي في أيام الأكتتاب(أعمال ٥ :٣٧) وذلك قبل أن يبدأ المسيح خدمته العامة بعشرين عاماً ، يوم وضعت اليهودية والسامرة تحت إشراف حكومة رومية مباشرة ، وأجرى الإحصاء العام توطئة لفرض الضرائب .. ويالها من ظاهرة غريبة أن يكون هذا « الغيور » الإرهابي بين تلاميذ يسوع . ولست تجد في التاريخ البشري اختلافا بين اثنين في الروح والغايات والوسائل ، اكثر من الإختلاف بين يهوذا الجليلي ويسوع الناصري . فأحدهما كان متمرداً سياسياً ، بينما كان الآخر ينادي أن يحني المغلوب للنير ، ويعطي ما لقيصر لقيصر . استهدف الأول إعادة مُلْك إسرائيل ، جاعلاً شعاره: « ليس لنا ربٌ أو سيد غير الله»، بينما استهدف الآخر تأسيس ملكوت روحي جامع ، ليس « من هذا العالم » . وقد اختلفت الوسائل التي اتخذها كل منهما اختلاف الغايات ، فأحدهما لجأ إلى السيف والخنجر وأسلحة الحرب والطعان ، بينما اعتمد الآخر كلية على قوة الحق العزلاء القاهرة .

ولسنا ندري لماذا ترك هذا التلميذ زعيمه السياسي، وسار وراء يسوع، ولكنه

أحسن الاختيار على أية حال ، فإن الحزب الذى تخلى عنه هذا الثائر، جلب بعد سنوات قلائل الدمار على نفسه وعلى وطنه بسبب تمسكه بالوطنية المتعصبة الطائشة : ومع أن فتنة يهوذا الزعيم الجليلي قد أخمدت ، فان نيران الحقد ظلت متأججة تحت الرماد فى صدور أتباعه وأنصاره، حتى انفجرت أخيرا فى عصيان جديد أحمق ، أوقفها وجهاً لوجه فى قتال دموى مرير مع قوات رومية الهائلة ، وانتهى النزاع بتخريب العاصمة اليهودية وتدميرها ، وتشتيت الشعب اليهودى فى فجاج الأرض .

واختيار هذا التلميذ ليكون رسولا للمسيح يقدم لنا مثلا آخر على إغفال يسوع للحكمة العالمية ، ذلك لأن إنساناً ارهابياً ثائراً قد لا يؤمن جانبه ، فضلا عن ذلك فإن وجوده بين الجماعة قد يثير حولها التهم السياسية . ولكن رئيس إيماننا آثر هذه المخاطرة ، ورام أن يكتسب أنصارا من الطبقات الخطرة ، والطبقات المنبوذة ، ليكونوا فى زمرة الاثنى عشر . .

وإن الباحث ليجد غرابة ممتعة ، وإمتاعاً مدهشاً ـ حين يصور لنفسه سمعان « الغيور » ومتى « العشار » ، وهما من بيئتين متماديتين ، يلتقيان معاً ، ويأتلفان شريكين فى زمرة الاثنى عشر . فى شخص هذين التلميذين ، يلتقى النقيضان ، ويجتمع الضدان ـ الرجل الذى يجبى الضرائب ، والرجل الذى يبغض الضرائب ـ اليهودى المهالىء للغاصب الذى أذل نفسه حتى بات صنيعة الحاكم الأجنبى ، واليهودى الوطنى الثائر الذى تضرمت نفسه سعيرا تحت نير الظالمين ، وأنت أنات التوجع تحت كبت الأقوياء القاهرين . ولم يكن إلتقاء الضدين أمرا عرضياً ، بل قد أراده يسوع عن قصد رمزا إلى المستقبل ، ذلك لأنه رغب فى أن يكون الاثنا عشر صورة مصغرة لكنيسة المستقبل التى لن تكون متحفاً للقديسين والأبرار ، بل مستشفى للمرضى والأشرار، التى تجمع تحت لوائها « العشارين والخطاة » و « الثائرين العتاة » و « الأخيار الأبرار » و « الاردياء الأشرار » ، بحيث يكون فيها ، لا يونانى

ولا يهودى ، لا عبد ولا حر ، لاأسود ولا أبيض ، بل الكل فى المسيح وللمسيح.

وآخر الكل يهوذا الأسخريوطى الذى عرفه العالم كله «خائناً» . وهو يذكر فى ذيل قائمة الرسل مقترناً بهذه اللوثة الكريهة ، وهذا اللقب الذميم الملصق فوق جبهة « يهوذا الأسخريوطى الذى أسلمه » . ووجود خائن بين الصحابة المختارين سر غامض ، نمر به الآن مر الكرام ، على أن نعالجه فيما بعد عند كتابة سيرة هذا التلميذ . وحسبنا أن نقول فى هذا المقام انه الوحيد بين الاثنى عشر الذى لم يكن جليلياً . فكنيته تدل على أنه من « قريوت » . وقد جاء فى سفر يشوع أن هناك مدينة بهذا الاسم فى التخوم الجنوبية لسبط يهوذا (يشوع ١٥ : ٢٤) :

وها نحن أولاء نذكر أسماء الاثنى عشر كما جاءت فى قوائم الانجيل . وحسب النظام الذى صيغت به قوائم الرسل ، نرانا أمام فئات ثلاث ، تشمل كل فئة أربعة من التلاميذ . فالفئة الأولى تضم الأعلام المشهورين فيهم ، وتشمل الفئة الثانية من يلونهم فى الشهرة وذيوع الاسم ، وتنتظم الفئة الثالثة أقلهم شهرة وذكراً ، فيما عدا يهوذا الأسخريوطى ، فلعله فى القمة من حيث الشهرة ، الشهرة الشائنة الخائنة !

ويُذكر بطرس ، وهو أبرز التلاميذ وأشهرهم جميعاً ، فى رأس كل قائمة ، كما يذكر يهوذا الاسخريوطى فى الذيل مقترناً بالنعت الذى اكتسبته خيانته : «الذى أسلمه» ! وإلى القارىء الكريم ترتيب قائمة الرسل ، كما جاءت فى بشارة متى ، مضافا إليها بعض النعوت والألقاب التى ذكرها الانجيل : —

الفئة الأولى

سمعان بطرس . . . . . . الصخرة

اندراوس . . . . . . أخو بطرس

يعقوب
ويوحنا } . . . . . ابنا زبدى وابناء الرعد

الفئة الثانية

فيلبس . . . . . . الباحث الغيور

برثولماوس أو نثنائيل . . . . الاسرائيلي الذي لاغش فيه

توما . . . . . . ذو المزاج السوداوي

متى . . . . . . المشار (كما قال عن نفسه)

الفئة الثالثة

يعقوب بن حلفى . . . . يعقوب الصغير ـ مرقس ١٥ : ٤٠

لباوس، أوتداوس ، أويهوذا يعقوب . ذو الاسم المثلث

سمعان . . . . . الغيور

يهوذا الاسخريوطي . . . الخائن

هؤلاء هم الرجال الذين اصطفاهم يسوع ليـكونوا معه في حياته على الأرض ، وليحملوا رسالته بعد رفعه إلى السماء هؤلاء هم الذين تحتفي بهم الـكنيسة « كجماعة الرسل المجيدة » . وهم بالثناء جديرون ، ولـكن مجدهم ليس من هذا العالم . فمن وجهة عالمية محض، نراهم فئة مستضعفة لاحول لها ولا طول، فئة فقيرة جاهلة من ريف الجليل، حُرمت الجاه والـكرامة وعلو الشأن، لا يختارها عادة الزعيم الذي يقيم وزناً لمقتضيات الفطنة وإصالة الرأي . فلمَ اختار يسوع أمثال هؤلاء ؟

أكان مسوقاً بإحساس العداء نحو الذين حبتهم السماء بالمزايا الاجتماعية ، أو إحساس التحيز والتعصب لمن كانوا في طبقته ؟

لا ، وأيم الحق . فقد كان اختياره حكمة لاتدانيها حكمة . وإن كان قد اصطفى أكثر أعوانه من الجليل ، فلم يكن ذلك تحيزاً منه لوطنه ، ولا تعصباً ضد أهل الجنوب . وإن كان قد اختار اثنين،أو حتى أربعة ، من ذوي قرابته، فلم يكن ذلك محاباة منه لأقاربه وأهله . وإن كان قد اختار المتواضعين ، الذين لم يحظوا بنصيب

من العلم والثقافة ، والذين لم تهذب الحضارة الإنسانية عقولهم ، فلم يكن مدفوعاً إلى ذلك بكره منه للمعرفة ، والعلم ، والثقافة ، وحسن المحتد ، وعراقة الأصل ..

ولو أن حبراً من أحبار اليهود ، أو غنياً من سراة القوم ، أو حاكماً من أرباب السلطان ، لو أن أحداً من هؤلاء رغب في أن يسلم نفسه ، دون قيد أو شرط ، لخدمة الملكوت ، لما أبدى يسوع أى اعتراض يتعلق بمؤهلاته ، أو ثروته ، أو ألقابه . وحالة شاول الطرسوسى ، تلميذ غمالائيل ، أصدق دليل لإثبات هذا الرأى .

ولو أن الحبر غمالائيل نفسه تواضع وتنازل ليكون تلميذاً للناصرى الذى لم ينل حظاً موفوراً من علوم الدين ، لرحب به يسوع أجمل ترحيب . ولكن للأسف ، لم يرضَ هو ، ولم يرض أحد من طبقة الأشراف المتعلمين أن يتنازل إلى هذا الحد . لذلك لم يقدر مَن كان « محتقراً ومرذولاً من الشعب » أن يختار أحداً من هؤلاء تلاميذ له وأعواناً .

والحق أن يسوع كان مضطراً أن يقنع بأولئك الصيادين ، والعشارين ، والثائرين الغيورين ، ليكونوا رسلاً له . وهم أفضل من استطاع أن يجدهم . أما الذين حسبوا أنفسهم أعزة كراماً ، فقد استعلوا عليه ، واستكبروا أن يكونوا رسلاً ، وهو لا يحب المستكبرين . لذلك حرموا أنفسهم مما يحسبه العالم اليوم شرفاً أسمى ، أن يكونوا أمراء مختارين فى ملكوت الله . لقد تفاخرت الارستقراطية الدينية والمدنية ، فنبذته ولم تؤمن به (يوحنا ٧:٤٨) . وافتتن أبناء أورشليم هنيهة من زمن بذلك الشاب المتحمس الذى طهر الهيكل بسوط من حبال ، ولكن سرعان ما انكفأوا خاسئين لأن إيمانهم كان سطحياً ، وقد نظروا إليه كأنهم فى عل ، فلم يأتمنهم على نفسه ، وهو بذات الصدور عليم . وقد أخلص له وعطف عليه أقلون من ذوى المكانة الرفيعة ، ولكنهم كانوا متخاذلين ، فلم يصلحوا أن يكونوا له رسلاً . وبالكاد استطاع نيقوديموس ، ذلك الحبر الجليل ، أن يقول كلمة خائرة متخاذلة دفاعاً عن المسيح ،

وكان يوسف الرامى تلميذاً « خفية » بسبب الخوف من اليهود . وأمثال هؤلاء لا يصلحون أن يكونوا رسلا للمناداة بالصليب، لأنهم مصفدون بالروابط الاجتماعية، والصلات الحزبية ، ومستعبدون للخوف من الناس ، بينما يجب أن يكون رسل المسيحية من عود صلب ، ومعدن لا تكسره مطارق البشر .

لذلك اضطر يسوع أن يقنع برجال الجليل الخشوشنين السذج ، ولكنهم المخلصون له الإخلاص كله ، المتحمسون لدعوته ورسالته الحماس كله. وقد رضى عن هذا الاختيار ، وشكر الله أن اعطاه هذه الفئة من الناس وهو ما كان يحتقر العلم، وعلو المقام، والثروة، والثقافة ، لو بذلت بذلا سخياً فى خدمته ولكنه يؤثر المخلصين الأمناء الذين تعوزهم هذه المزايا ، على المتخاذلين الحاذرين وان ملكت أيديهم كل هذه . وحسناً فعل ، لأنه لم يكن للمكانة الاجتماعية، ولا للتاريخ السابق ، قيمة تذكر فى حياة الاثنى عشر إلا فى أعين المتعصبين المعاصرين ، وحسبهم أنهم كانوا من ذوى المؤهلات الروحية اللازمة للرسالة التى وكلت اليهم ...

لقد كان « يوحنا بنيان » وضيع المولد ، وضيع المهنة ، وإلى يوم تجديده وضيع العادات . ولكنه كان عبقرياً بالطبيعة ، وكان رجل الله بالنعمة ، فغدا رسولا كان له أعمق الأثر فى حيـــــاة الملايين . ولكن قد يقال هنا أن الاثنى عشر ما كانوا موهوبين مثل بنيان ، وان بعضهم عاش خامل الذكر اذا احتكمنا إلى الغموض الذى اكتنف أسماءهم ، وإلى صمت التاريخ عن ذكر فعالهم ، وما كان لهم شأن يذكر ، ولا ذكر يشكر . وهذا الاعتراض يطعن فى الواقع ، فى حكمة اختيار يسوع، فماذا عسانا أن نقول عنه ؟

لا ننكر أن بعض الرسل كانوا خاملى الذكر ، أحاط بهم غموض وإبهام ، ولكن أخملهم ذكراً كان بلا شك صالحاً كشاهد ليسوع بعد أن عاش معه زمناً غير قصير . وليست العظمة مقياس الشهادة، فقد يكون الحقير الخامل أقوى وأنفع .

ولسنا نشك البتة فى أن أوضعهم شأناً قد أدّى لسيده خدمة جليلة من هذه الناحية، ولو لم يذكر عنه شيء فى تاريخ الرسل . وما كنا ننتظر أن يعنى تاريخ مبعثر مبتسر موجز ، كالذى كتبه البشيرون ، بغير الوقائع الهامة فى حياة الأشخاص البارزين . وما اقل الذين يذكرهم التاريخ العالمى بين الذين ساهموا فى الأحداث الجسام ، وفى الأزمات التاريخية ، حتى وان كان ذلك التاريخ مفصلا مسهباً . ذلك لأن التاريخ يستهدف عادة تدوين أقوال وأفعال الزعماء البارزين ، وما أكثر الذين أسدل عليهم التاريخ ستار النسيان ممن أبدعوا وأحسنوا فى يومهم وجيلهم . فلماذا لا يكون هذا شأن الذين نحسبهم خاملى الذكر بين صحابة يسوع ؟

ثم ان هذه الجماعة القليلة قد أنجبت ثلاثة أو حتى اثنين من الزعماء البارزين مثل بطرس ويوحنا . وهذه نسبة طيبة . وانك لترى اليوم فى المجالس النيابية ، وفى المجالس الدينية ، وفى الهيئات واللجان الأخرى ، نسبة أقل ممن يبرزون فى ميدان الكلام أو الجهاد أو الزعامة ، ويأخذون لأنفسهم كل الفضل ، ويحسبهم الناس الأيدى المحركة والعقول المفكرة فى المجالس أو فى الهيئة . ولعل « الأعمدة » فى تلك الجماعة ، الذين أشار إليهم بولس فى رسالته إلى غلاطية (٢ : ٩) كان عدداً كافياً ، وهو يقصد بطرس ويعقوب ويوحنا . ونحن لا نأسف أن لم يكن كل الرسل جميعاً مثل بطرس أو يوحنا ، بل نشكر الله على تنوع المواهب بين رسل الانجيل الأولين . وبعد ، فليس من الخير فى أية جماعة أن يكونوا كلهم قادة زعماء ، فصغار القوم لهم فضلهم ونفعهم ، ولهم فضائلهم ومواهبهم . وقد يأتون من الأعمال بما لا يأتيه الأوائل .

وكلمة أخيرة : نحن لا نعرف إلا النذر اليسير عن أولئك التلاميذ الاولين . وقد جرت العادة بين كتّاب السير فى هذا العصر — وهم يكتبون لجمهور يهوى حب الاستطلاع ، ويأبى التفكير والاستنتاج — أن يطيلوا ويسهبوا فى سرد القصص والوقائع الخاصة بأبطالهم ، ويدونوا التفاصيل الدقيقة والحوادث المثيرة اجتذاباً للقراء .

على أننا لا نجد أثراً لمثل هذا الشغف بتمجيد البطولة والعناية بالتفاصيل والدقائق في قصة الانجيل ولا نحس في كتاب البشائر ذلك الهوس الذى أصيب به كتاب السير والتراجم في العصور المتأخرة . فضلا عن هذا كله ، لم يكن الرسل موضوع قصتهم ، ولا محور حديثهم ، بل كان المسيح بطلهم ، وسيدهم ، وربهم ، وكل رغبتهم أن يتحدثوا عما عرفوه عنه . لقد حدقوا بأبصارهم دائماً في شمس البر ، وفي ضيائه اللامع بهرت عيونهم ، ولم يبصروا السيارات والكواكب المحيطة به ، الدائرة في فلكه ، سواء أكانت من السيارات الكبرى ، أو الأنجم الصغرى .

وفي العصور المتأخرة أراد بعض الكتاب المسيحيين أن يستقصوا مصائر أولئك التلاميذ المجهولين ، فنسجت التقاليد حولهم حوادث وقصصاً ، مستقاة من مصادر خارجة عن أسفار الانجيل ، إشباعاً لرغبات العالم المسيحي التائق إلى المزيد من سير الرواد الأولين الذين حملوا علم الشهادة ، وشقوا الطريق لرسالة الانجيل في مشارق الأرض ومغاربها . وسيرى القارىء الكريم في الفصول التالية نتفاً من الأحاديث المتواترة عن الرسل الأطهار .

الفصل الرابع

الصخر

. . . هو الإنسان البشري ، بكل فضائله وكل نقائصه !

. . . هو المقدام الجسور ، كليم الجماعة وزعيمها ، صوّرته بشائر الانجيل انساناً بشرياً ، بطيئاً في الفهم ، متهوراً في الاحتجاج ، سريعاً في الوعد ، مفرطاً في الثقة بنفسه ، متردداً بين الشجاعة تارة وبين الجبن أخرى . . . يؤمن ، وينكر ، ثم يتوب ويندم ، وينهض من كبوته . . .

ومع هذا فهو مخلص الاخلاص كله في ولائه ، وخدمته ، ومحبته .

هو ذلك الانسان التاريخي الذي أحاطت به ظلال التقاليد والأحاديث ، فجعلته مؤسس كنيسة رومية ، ومصدر السلطة البابوية ، ونسجت حوله خيوط الجدل الكنسي مدى عصور التاريخ .

هو سمعان بطرس ، التلميذ ، والرسول ، والشهيد . .

و « سمعان » (Symeon) اسم عبري شائع بين اليهود ، ومعناه « السميع المطيع » . وهي أيضاً اسم يوناني يتفق مع العبري في النطق ، ويختلف عنه في الهجاء (Simon) . ومن المحتمل أن يكون الاسم اليوناني قد أطلق على هذا التلميذ منذ البداية ، شأنه شأن أخيه اندراوس ، لأن النفوذ اليوناني كان متغلغلا في « بيت صيدا » وهي مسقط رأس خمسة من التلاميذ ، هم الخمسة الأولون . أما الباقون فمن الجليل ، ماعدا يهوذا الأسخريوطي فهو من « قريوت » .

و « بطرس » كلمة يونانية ، بالآرامية « صفا » ومعناها الصخر . و « صفا » ليست اسم علم ، بل هي لقب وصفي ، خلعه عليه يسوع . وكانت العادة بين

اليهود [1] يومئذ أن يخلعوا على الأشخاص ألقاباً ، تنبيء عن مصير فى المستقبل وتضع على كاهل أصحابها إلتزامات معينة ، كما كان أحبار اليهود وأئمتهم يخلعون على تلاميذهم ومريديهم ألقاباً تتفق وميولهم ، وتوجه لهم مصيرهم . وهذا مافعله يسوع مع بطرس الذى أطلق عليه لقب « صفا » ، ومع ابنى زبدى اللذين اطلق عليهما لقب « بوانرجس » ، أى ابنى الرعد .

وسمعان هو ابن يونا ، وبالآرامية « باريونا » ، وهى تصغير « يوحنا » . على أن بعض علماء الكتاب يذهبون إلى أن لفظة « باريونا » الآرامية لاصلة لها بيوحنا ، ولكنها تعنى فى الأصل « ارهابى » . وبهذا المعنى يكون بطرس عضوا فى حزب « الغيورين » الذى كان يناهض رومية ، كما كان سمعان الغيور ، وكما كان — على مايظن البعض — يهوذا الاسخريوطى . على أن هذا رأى لاتسنده إلا قلة من العلماء الجرمان ، مثل « ولها وزن » ، ولا يأخذ به أحد من ثقات المؤرخين .

وسمعان بطرس من مدينة بيت صيدا ، أى مدينة الصياد ، وهى على أرجح الأقوال ، القرية الواقعة على الضفة الشرقية لنهر الأردن عند مصبه فى بحر جنيسارت . ولابدّ أن أهالى بيت صيدا قد عرفوا اللغة اليونانية ، وتثقفوا ببعض الثقافة اليونانية ، واتصلوا بالأجانب والغرباء ، لأن تلك المدينة تأثرت يومئـــذ بالنفوذ اليونانى الأجنبى . ولعل هذا هو الذى حمل بطرس فيما بعد على أن يقف من الرسالة المسيحية موقفاً جامعاً لا ضيقاً ، وأن يقترب فى آرائه الدينية إلى بولس الرسول . على أن هذا كله لم يمنع اليهود من أن ينعتوه وزميله يوحنـــا بأنهمـــا « عديما العلم وعاميـّان » (أعمال ٤ : ر١٣) لأنهما لم يظفرا بقسط وافر، لامن الثقافة اليهودية ، ولا من الثقافة اليونانية ، حسب مستوى معاصريهم . وبعد ذلك ينتقل بطرس من بيت صيدا إلى كفرناحوم ليتخذها مقاماًله (مرقس ١ : ٢٩) ويخيّل إلينا أن يسوع شرّف هذا البيت بالدخول إليه مراراً ، ولعله أقام فيه فترة من زمن (متى ٨ : ١٤) .

وكان بطرس صياداً ، شريكا لابنى زبدى

وكان متزوجاً ، كما يؤخذ من أسفار الانجيل (مرقس ١ : ٢٩) والرسائل (١ كورنثوس٩ : ٥). ويتحدث التقليدعن ابنةله تدعى بترونلا (Petronella).
ويقال انه حينما رأى زوجته تقاد للموت ، فرح بسبب دعوتها إلى وطنها الأبقى ، وخاطبها باسمها مشجعاً ومعزياً قائلا : أذكرى الرب !

* * *

ولسنا نجد بين التلاميذ شخصية أخرى صورتها أسفار الانجيل الكريم بألوان براقة فائقة ، وأسهبت فى تحليلها ، مثل شخصية بطرس . ونحن نلقاه ، أول ما نلقاه ، تلميذاً يجىء إلى يسوع عن طريق أخيه أندراوس ، وكان الاثنان من تلاميذ يوحنا المعمدان . ومن الغريب حقاً الا يذكر الأخوان معاً بعد ذلك إلا فى قائمة الرسل .
وكان بطرس كليم الجماعة والناطق بلسانها . فهو الذى كان يسأل الأسئلة ، وهو الذى كان يجيب عليها ..

فبطرس هو الذى أجاب عن التلاميذ يوم وجه يسوع سؤاله لكل التلاميذ «وأنتم من من تقولون إنى أنا» . فأجاب بطرس وقال له : أنت المسيح «مرقس ٨ : ٢٩»
وبطرس هو الذى يقترح فوق جبل التجلى أن تقام المظال (مرقس ٩ : ٥) . وهو الذى يندفع محتجاً على سيده يوم أخذ يلمح إليهم عن موته العتيد ، وكان احتجاجه عنيفاً حاداً ، حتى انتهره سيده قائلا « إذهب عنى ياشيطان » . وكان هذا التوبيخ موجهاً للتلاميذ كلهم فى شخص بطرس : « فالتفت وأبصر تلاميذه فانتهر بطرس » (مر ٨ : ٣٣) .
وبطرس هو الذى كان ، فى مواقف كثيرة ، يوجه الأسئلة إلى المسيح . فمرة يقول : «يارب كم مرة يخطىء إلىّ أخى وأنا أغفر له هل إلى سبع مرات » (متى ١٨ : ٢١) . ومرة أخرى يقول : «يارب ألنا تقول هذا المثل أم للجميع ؟»(لوقا ١٢ : ٤١)، وأخرى يقول : «هانحن قد تركنا كل شىء وتبعناك» (مرقس ١٠ : ٢٨)
وبطرس هو الذى يطلب إليه مع يوحنا أن يعد عشاء الفصح (لوقا ٢٢ : ٨) .

وهو الذى يقرّ فى جرأة وشجاعة أن يكون مخلصاً موالياً ، « إن شك الجميع فأنا لا إشك »(مرقس ١٤:٢٩) . وفى جثسيمانى هو الذى يتلقى العتاب الحزين فى صيغة سؤال :« ياسمعان أنت نائم . أما قدرت أن تسهر ساعة واحدة ؟» (مرقس ١٤: ٣٧). وكان معه ابنا زبدى فى تلك المناسبة .

وكان بطرس فى نظر الدوائر العالية أيضاً ، ممثل جماعة الرسل والناطق بلسانهم ، فإن جباة الأموال والضرائب تقدموا إلى بطرس سائلينه : « أما يوفى معلمكم الدرهمين » (متى ١٧ : ٢٤) .

وفى قوائم الرسل — كما جاءت فى بشائر الإنجيل — يُذكر بطرس دائماً فى المقدمة ، كما يذكر يهوذا الأسخر يوطى فى ذيل القائمة ...

على أن هذا كله لا يعنى أن بطرس تولّى فى حياة سيّده — وظيفة الزعامة والقيادة بين التلاميذ . وهو كايمهم ، وهو ممثلهم ، فى الخير وفى الشر على السواء . ولكنه لم يصدر إليهم الأوامر ، ولم يَكِل إليه يسوع شيئاً من هذا. أما ماقيل له فى المناسبات الثلاث على لسان سيده :

« أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابنى كنيستى ... » (متى ١٦ : ١٨)

« وأنت متى رجعت ثبّت اخوتك ... » (لو ٢٢ : ٣١)

« ... ارعَ خرافى ... » (يوحنا ٢١ : ١٥)

فهذه تشير إلى المستقبل بعد موت يسوع ، لا فى خلال حياته على الأرض . وهذا ينقض ماذهب إليه قوم من أن زعامة بطرس فى الكنيسة الأولى، تؤيدها زعامته وسلطانه على التلاميذ الأولين .

إنما برزت زعامة الرسول فعلا فى الكنيسة الأولى ، كما يصوره سفر الأعمال. فهو الذى يشير على التلاميذ أن ينتخبوا واحداً لتكملة الاثنى عشر ، بدلا من يهوذا الخائن (اعمال١: ١٠).وهو الذى يشرح للجموع الحاشدة معجزة يوم الخمسين

(اعمال٢ : ١٤) . وهو الذى يجرى معجزة شفاء الرجل الأعرج ، ويُذكر معه فى هذه القصة إسم يوحنا أيضاً ..

وبطرس هو الذى يتولّى الدفاع عن قضية الانجيل أمام السلطات (اعمال ٤: ٨ و ٥ : ٢٩) . وهو الذى يشرف على نظام الكنيسة (ا ع ٥ : ١) وخاصة فى مسئلة حنانيا وسفيرا ، وقصة سيمون الساحر (٨ : ٢٠) .

وبعد اطلاقه من السجن الذى زجّه فيه هيرودس ، يغادر بطرس المدينة المقدسة ، ولكن كاتب سفر الأعمال لا يعين الجهة التى انطلق إليها ، واكتفى بقوله : «ذهب إلى موضع آخر» (اعمال ١٢ : ١٧) . وقد اختلفت الآراء فى تحديد هذا الموضع . فقال الكاثوليك انه « رومية » بحجة أن الكاتب قد أغفل ذكر اسم « رومية » حرصاً على حياة الرسول ، وخوفا من بطش السلطات . ولكن هذا الرأى فرضى لا يستند إلى دليل تاريخى . وقال آخرون ان الموضع هو « انطاكية » . ولعله يكون أرجح الآراء . وعندى أن كاتب السفر نفسه لم يكن يعلم « الموضع » الذى انطلق إليه الرسول . وقصارى القول ان بطرس تخلّى منذ ذلك اليوم عن زعامة الكنيسة فى اورشليم إلى يعقوب ، ولا يظهر مرة أخرى إلا فى المجمع الرسولى (ص ١٥) . ثم يختفى بعد ذلك كلية من مسرح الحوادث ولا نجد له ذكراً فى السفر المقدس ، وإن يكن المعروف أنه تولّى بعد ذلك زعامة حركة يصح أن نسميها « البعثة اليهودية المسيحية » . ولعله قام ببث الدعوة فى انطاكية (غلاطية ٢ : ١١) وفى كورنثوس وغيرها (١ كورنثوس : ١٢ و٩ :٥) وسنتحدث عن زيارته لرومية فيما بعد .

ومن الآيات والحوادث الواردة فى السفر المقدس ، نقدر أن نرسم صورة رائعة لاخلاق هذا التلميذ وصفاته :

ونراه قبل كل شىء رجلا ، ذا مواهب عقلية . ذلك لأنه كان دائم التساؤل ،

أكثر من التلاميذ كلهم . والأسئلة الكثيرة - حتى فى صغار التلاميذ - علامة مؤكدة تثبت حركة عقلية دائبة .

وكان الرجل إنساناً مرهف الحس ، قوى العاطفة . ويوم قال : « اذهب عنى يارب ، لأنى رجل خاطئ » ، كشف عن طبيعته الرقيقة الحساسة . وكان هذا شأنه أيضاً يوم قال غاضباً فى قيصرية فيلبى « حاشاك يارب . لن يكون لك هذا » . وأيضاً « إنى أضع نفسى عنك » . كانت عواطفه متفجرة فى أوقات المرح والفرح ، ولكنها كانت متفجرة أيضاً فى ساعات الظلمة الكئيبة ، فيوم خرج تحت جنح الظلام ذليلا مهموماً ، ليبكى فى خلوته « بكاء » مراً ، كانت عاطفته الدافقة فى أشد ثوراتها .

ثم كان بطرس شديد العزم ، قوى الإرادة . وفى بعض المواقف تراه غير ذلك . ولكن سيرته بصفة عامة تثبت قوة إرادته . فقد ترك كل شىء وتبع يسوع . وقفز إلى الماء ليمشى نحو سيده . وتجارى على أن ينتهر سيده علانية أمام زملائه . واستل سيفه ليضرب عبد رئيس الكهنة . ولا يخفى أن قوة الإرادة قد تستخدم أحياناً فى أوضاع خاطئة .

من ثم تجمعت فى بطرس كل العناصر اللازمة لتكوين شخصية قوية ، ولكنه مع ذلك كان ضعيفاً ، لأنه كان ينقصه العنصر الذى ينسق مركبات الشخصية ، ويؤلفها معاً ، لتكون وحدة منسجمة مترابطة . فالجوهرة النفيسة تتركب من حجارة ثمينة ، ولكى تحتفظ الجوهرة بقدرها وقيمتها ، يجب أن تكون حجارتها منسقة متماسكة . كان بطرس مزيجاً من حجارة ثمينة ، لكن أعوزتها اليد التى تنسق هذه الحجارة لتصنع منها درة نفيسة . وهذا ما صنعه به المسيح . . .

نحن نقرأ ، قبل كل شىء ، أن السيد « نظر » إلى بطرس ، يوم قدمه إليه أخوه اندراوس . وكلمة « نظر » فى أصلها ليست عادية ، بل تعنى نظرة فاحصة

عميقة خارقة ، وهى اللفظة عينها التى أستعملت ليلة « نظر » يسوع إلى بطرس بعد انكاره فى قاعة المحاكمة .

« نظر إليه وقال أنت سمعان بن يونا . أنت تُدعى صفا الذى تفسيره بطرس » . والغريب أن بطرس لم ينطق هنا بكلمة ، وما كنا نعهد فيه الصمت فى مثل هذا الموقف . ولكن الظاهر أنه ذهل فلم يحر جواباً ، لأنه لم يصدق أنه « صخر » أو « حجر » . والعظيم حقاً مَن عرف سرّ نفسه ... لقد رأى يسوع فى ذلك الإنسان قواه العقلية ، وقواه العاطفية ، وقواه الإرادة ، مبعثرة كالحجارة الكريمة ، تفتقر إلى يد صائغ ماهر ، ينسقها ، وينضدها ، فيحيلها درة يتيمة ...

بهذه الكلمة قد أسره ربنا ، واستأثر به . وهذه هى طريقة ذلك « المعلم الأكبر » فى استنبات الفضائل ، وفى اجتذاب الناس اليه . وتلك كانت طريقته مع بطرس فيما بعد ، فلقد « نظر » اليه ، وكسر قلبه ، حتى حين كان يفكر فى الانتحار الروحى ، فى تلك الليلة السوداء التى أنكر فيها سيده بإيمان مغلظة . لقد صلّى سيده من أجله حتى لا يفشل إيمانه . وإيمانه لم يفشل ، ولئن تكن قد خانته شجاعته .

وبعد ذلك نرى بطرس يسير وراء معلمه الجديد فترة من زمن ، وفى لحظة من التردد ، يعود إلى شباك صيده . ولكن ربنا يفتقده بعد ذلك ، ليؤكد له أنه سوف يغدو صياداً ماهراً لصيد الناس ...

ولا يتسع المقام فى هذه المجالات الوجيزة عن الاثنى عشر أن نسرد كل الحوادث التى جرت لبطرس ، ونعلق عليها باسهاب ، على أننا نكتفى ببعضها لنرى كيف كان السيد يروض هذا التلميذ ويدربه ، ويستنبت فيه فضائله الكامنة ، وينسقها معاً ، لتكون شخصية جبارة وزعامة قوية ...

فى قيصرية فيلبى يسأل المسيح تلاميذه : « مَن يقول الناس إنى أنا ... وأنتم مَن تقولون إنى أنا » . وهنا ينبرى بطرس كليم الجماعة ويجيب : « أنت هو المسيح

ابن الله الحى » • وقد كان لهذا الجواب أثره الطيب فى نفس السيد، فامتدح تلميذه قائلاً : « طوبى لك ياسمعان بن يونا • ان لحماً ودماً لم يعلن لك ، لكن أبى الذى فى السموات • وأنا أقول لك أيضاً أنت بطرس • وعلى هذه الصخرة ابنى كنيستى ، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها » (متى ١٦ : ١٣ — ١٨) •

وما تنقضى أيام قلائل حتى يتغير هذا المشهد، فنسمع بدل المديح، تعنيفاً وزجراً • وكان يسوع قد بدأ يلمح إلى تلاميذه عن صليبه وآلامه وموته العتيد • وهنا، كما فى قيصرية فيلبى ، وجد الاثنا عشر فى بطرس الجرىء ، الناطق بلسانهم ، مترجماً لما كان يدور بأخيلتهم • وهو هنا أيضاً يبدى الخصال عينها التى اتسم بها • ونص العبارة فى الإنجيل يجتذب النظر « فأخذه بطرس إليه وابتدأ ينتهره ••• » (متى ١٦ : ٢٢) . وأتصور التلميذ قد أمسك معلمه من يده ، أو من ثيابه ، وجذبه إليه قائلاً : « حاشاك يارب • لا يكون لك هذا » •

ياله من مزيج غريب من الخير والشر فى هذا الإنسان ! ان قوله قد أملتة عليه أرق عواطف المحبة والولاء ، فهو لا يطيق أن يتصور مكروهاً يحيق بسيده، ومع ذلك تعوزه أمائر الاحترام والتوقير للسيد الذى اعترف بالأمس أنه المسيح ابن الله الحى ! انه يحاول أن يؤثر فى سيده بطريقة تحكمية جائرة ، وان يبعد عنه الأفكار القاتمة عن الشر المرتقب ! وهو فى هذه الحال يفتقر إلى التأديب والتأنيب ليقف عند حده ، وينزع من أخلاقه العناصر السيئة — الجرأة الجريئة ، وانتفاء الكلفة فى غير مقتضى ، والتشبث العنيد •

ومن حسن حظ بطرس أن يكون له سيد ، تدفعه محبته الخالصة، أن يقرعه بالعصا عند الاقتضاء • وقد رأى يسوع أن الساعة ملائمة للتأنيب والتقريع، بطريقة صارمة حازمة ، تعادل فى صرامتها وفرة المديح والثناء اللذين كالهما له بالأمس القريب فى قيصرية فيلبى • فالتفت السيد إلى التلميذ المسىء ، وقال له : « إذهب عنى

ياشيطان ! أنت معثرة لى ، لأنك لا تهتم بما لله ، لكن بما للناس» . وهذا التلميذ الذى تكلم من قبل بوحى السماء ، يصوره سيده الآن كأنه ينطق بوحى من الجسد والدم ـ بايعاز من المحبة الطبيعية لسيده ، والغريزة الحيوانية فى حفظ البقاء ، التى لا تفكر إلا فى المصلحة الشخصية دون الواجب . أرأيت كيف أن التلميذ الذى امتدحه المسيح . كأنه صخرة صلدة ، تصلح أن تكون أساساً لبناء روحى ، يدعى هنا معثرة ، وحجر عثرة فى طريق معلمه ... بطرس المعترف النبيل بالحق الجوهرى الأسنى ، وبالإيمان الذى تتحدى به الكنيسة أبواب الهاوية ، يبدو لنا هنا حليفاً لقوات الظلمة ، وناطقاً بلسان الشيطان المجرِّب : «إذهب عنى ياشيطان ! » . ياله من هبوط هائل لمن أعطيت له بالأمس فقط مفاتيح الملكوت ! ان صاحب اكبر مقام موعود به فى كنيسة المستقبل يهوى إلى درك الشيطان ، ولعله أحس بشىء من الكبرياء والغرور ، فكان له ما كان !

ويبدو لنا هذا التأنيب قاسياً ، ولكنه كان فى محله المناسب . وحتى كلمة «شيطان» التى هى قرصة اليمة ، هى فى الواقع وصف صادق للنصيحة التى قدمها بطرس . ذلك لأنه أراد أن يقول : « خلِّص نفسك على أية حال . ضحِّ بالواجب من أجل المصلحة الخاصة ، وبقضية الله من أجل سلامتك الشخصية » . أليست هذه نصيحة شيطانية فى مبدئها وفى اتجاهها ؟ لأن السياسة الشيطانية فى مجموعها تجعل المصلحة الخاصة أهم غاية فى الحياة . ويدعى الشيطان « رئيس العالم »، لأن المصلحة الأنانية الخاصة هى التى تسيطر على العالم وتدير دفة شئونه ...

والاقتراح الذى قدمه الآن بطرس — كأداة فى يد الشرير وهو لا يدرى — يماثل تماماً فى المبدأ ، الإغواء الذى قدمه الشيطان للمسيح فى تجربة البرية . فيومئذ قال المجرِّب للمسيح ما معناه: « إن كنت ابن الله ، فاستخدم قوتك لخيرك ونفعك . أنت جائع ، فاصنع لنفسك من هذه الحجارة أرغفة من الخبز . إن كنت ابن الله ، فأسلك كأنك محسوب السماء وعزيزها ، واطرح نفسك من الأعالى ، والسماء كفيلة

أن تتلقاك بين أذرعها ، وتقيك شر هذه المغامرة التى تبهر بها الناس . وترى أية وسيلة أفضل لاستخدام قواك وامتيازاتك الالهية، من إظهار مجدك وعظمتك » .
هذا ما قاله الشيطان بالأمس ، وهو يماثل ما يقوله بطرس اليوم : « إن كنت أنت ابن الله ، فلماذا ترتضى هذا الموت الشنيع الأليم ؟ألك القوة أن تخلص نفسك من هذا المصير ، وانك لفاعل ! » . وهذا التلميذ المقدام الجسور ، المخلص فى محبته وولائه ، يستخدمه الآن الشيطان فى تجربة ثانية تشبه الأولى تماماً التى عاناها ربنا فى صحراء اليهودية . وان فى اللهجة القاسية التى وجهها يسوع فى هذه المناسبة، إلى تلميذ محبوب عزيز على نفسه ، لأبلغ دلالة على كرهه المقدس لكل ما يشتم منه رائحة محبة الذات . وذلك لأنه جاء ، ليخدِم لا ليخدَم ، وبطاعته مشيئة الاب استحق هذا اللقب الجميل : « هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت » .

* * *

وبعد ثمانية أيام نراه مرة أخرى فوق جبل التجلى ، وهناك يرى سيده متجلياً فى بهائه ومجده . وأمام هذه الرؤيا يقول بطرس :

« يارب جيد أن نكون ههنا . فإن شئت نصنع هنا ثلاث مظال ــ لك واحدة ، ولموسى واحدة ، ولإيليا واحدة » (متى ١٧ : ٤) .

وحين نفكر الآن فيما تساقط من شفتى التلميذ قبل أيام عند التحدث عن الصليب : « حاشاك يارب . لايكون لك هذا » ، نقدر أن نقرن هذه العبارة بتلك . فكأنه يريد أن يقول لسيده : خير أن نبقى هنا فى المجد والجمال ، لا فى أورشليم حيث الألم والموت . وقد فات التلميذ أن وموسى كانا يحدثانه عن الموضوع عينه الذى لا يطيقه ولا يرضاه ، وهو «خروجه» العتيد من أورشليم ، فى ألم وموت ، طوعاً لمشيئة الآب ، الذى زكاه بصوت عال :

« هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت . له اسمعوا » .

* * *

وفى أخريات الأيام نراه فى العلية ، ونستمع إليه وهو يقول لسيده بلهجة الواثق المطمئن : « إن شكّ فيك الجميع فأنا لا أشك أبداً . . أنا أضع نفسى عنك ... وإن اضطررت أن أموت معك لا أنكرك ... » .

ونسمع سيده يقول له : «سمعان ، سمعان ، هو ذا الشيطان طلبكم لكى يغربلكم كالحنطة ، ولكنى طلبت من أجلك لكى لا يفنى ايمانك ... إنك فى هذه الليلة قبل أن يصيح الديك تنكرنى ثلاث مرات » .

وإن صمتاً رهيباً ليستولى على النفس حين نفكر فيما حدث . وذلك لأن يسوع كان قد أخذ إلى قاعة المحاكمة ، وبقى بطرس خارجاً، حتى أدخله يوحنا إلى الداخل. وهناك نسمعه ينكر سيده ثلاث مرات بإيمان مغلظة: «إنى لست أعرف الرجل!»

وهنا أيضاً نرفع أبصارنا لنحدق فى وجه السيد ، وهو يلتفت إلى بطرس : « فالتفت الرب ونظر إلى بطرس » . وكلمة « نظر » هى بعينها فى اللغة الأصلية، التى أستعملت ساعة تفرس فى وجهه فى اللقاء الأول .

وأغلب الظن أن تلك « النظرة » الخارقة الفاحصة ، لم تكن لتوكيد صدق ما قاله ، كأنه يقول له شامتاً « ألم أقل لك ! » . ولم تكن نظرة العتاب واللوم للاساءة التى أصابت قلب يسوع ، بل كانت نظرة المحبة الخالدة ، والاشفاق الودود الخالص ، كأنه يقول: « قلت لك ياسمعان انك ستكون الصخرة ، وقلت لك أيضا ما سيحدث فى هذه الليلة الظلماء ، ولكن لا تيأس ولا يضطرب قلبك ، وكن على ولائك مقيما ، وأنا الكفيل بتحقيق وعدى لك » .

وكان لتلك « النظرة » أثرها «فخرج بطرس وبكى بكاء مراً »، وقد صدقت قولة السيد ، لأن هذه السقطة قد حطمت قلب بطرس ، وكشفت خباياه وصفاته ، وانفصل الإنسان القديم عن الجديد ، وبعد الغربلة بقيت الحنطة وذرّى القش فى الهواء ، وأنتزع سمعان بن يونا المغرور ، المعتد بذاته ، المندفع ، المتهور ، من بطرس الصخرة ، الرسول الأمين ، الشجاع ، الباسل .

لقد سقط بطرس، ولكن لم تكن سقطته قاتلة، لأن سيده كان قد طلب من أجله، لكي لا يفنى إيمانه. وخليق بنا هنا ألا نلق على التلميذ حجراً، لأن أفاضل الناس أغراض لسهام الشرير. وثمة فارق بين إنكار المسيح أمام خدم رئيس الكهنة، وبين تسليمه غدراً إلى يدى رئيس الكهنة نفسه، مقابل مبلغ من المال. فهذا العمل الأخير جريمة خائن وغدلئيم، أما الصنيع الآخر فقد يقترفه انسان مخلص لسيده وربه. وقد ظن بطرس انه بانكار سيده، انما يخلص نفسه بالنفاق والموارية، دون أن يلحق أذى بسيده. ومثله مثل ابراهيم خليل الله يوم أشاع القصة الكاذبة عن زوجته قائلا انها اخته، لوقاية نفسه من عنف الغرباء الاباحيين.
وما من شك أن هذا تصرف دنىء، أنانى. ما كان يليق بأبى المؤمنين. وتصرف بطرس لا يقل عنه فى الدناءة والخسة والأنانية. وكان كلاهما مسوقين بعوامل الضعف، لا ببواعث الشر. وما أقل الناس بيننا الذين يجرءون على أن يرموا بحجر أبا المؤمنين أو صخر التلاميذ! وكم من امرىء لعب دور البطولة فى عظائم الأمور، نراه يسقط أحياناً فى المواقف التافهة! وما أكثر الذين يخفون معتقداتهم ويتنكرون لها فى الحفلات والمآدب، وهم الذين ينادون بها جهاراً من فوق المنصات والمنابر! وما أكثر الذين يجسرون على ان يجردوا سيوفهم للدفاع عن ربهم فى مواقف معينة، ولكن حين يمتزجون فى المجتمع، قد يقولون « انى لا أعرف هذا الانسان». ان سقطة بطرس شائنة، ولكنها شائعة، يقع فيها كثيرون ممن يتورعون عن اقتراف الخيانة العمد ضد الحق، وضد الله. والتلميذ المخطىء كان بارزاً فى توبته، أكثر منه فى خطيته. وقلّ بين الذين ينكرون سيدهم بسبب الضعف، مَن يخرجون خارجاً، ويبكون بكاء مراً.

* * *

وبعد هذه السقطة يأخذه يوحنا الى داره، انساناً محطماً، مضنى القلب موجعه.
ثم يُصلب سيده، ويعقب الصليب فرحة القيامة. وان يراعة الكاتب، مهما

أوتيت من قوة البراعة ، ان تقدرأن تصوّر حالة بطرس في تلك الساعات القاتمة التي تقضّت بين مساء الجمعة وصباح الأحد ... ولا يسعنا هنا إلا ان نسدل الستار على هذا المشهد رهبة وتهيباً .

على انه في صباح القيامة يتلقى التلميذ نبأ القيامة : « إذهبن وقلن لتلاميذه ولبطرس » . وقد خصّ بطرس بهذا النبأ ، إما لتوكيد العفو عنه ، وإما لأن ربنا خشي أن يفصله التلاميذ بعد إنكاره ، فذكر اسمه ذكراً خاصا .

ويؤخذ من أسفار الانجيل ان المسيح المقام ظهر لبطرس وحده مرة (لوقا ٢٤: ٣٤) ، ونحن لا نعرف شيئاً عن ذلك اللقاء ، انما يصح ان نستنتج بأن ربنا قد اكد لتلميذه عفوه، وغفرانه : « ياسمعان ، على الرغم من احتجاجك ، قد عانيت الصليب كما قلت لك ، وها أنا قد قمت من الأموات ، منتصراً على الخطية والموت، لذلك غفرت لك خطاياك ، وسيتم لك الوعد الذى قطعته لك » .

ثم يلقاه مرة أخرى عند بحر طبرية ، يوم يتحدى إخلاصه وولاءه ، ويَكِل اليه مهمة الحياة (يوحنا ٢١: ١٥—١٨) .

ولعل السؤال الثالث « يا بطرس ، أتحبني » يذكر التلميذ المسكين بالإنكار الثلث ، فيجدد حزنه وتوبته ، ويعيد التلميذ الخاطىء إلى مكانته كرسول أمين ، ويردُّ له راحة الضمير وسلام العقل، ويكل اليه أمانة ثقيلة لرعاية المؤمنين . وكأنما أراد السيد أن يقول لبطرس :

« ... بذكرى ضعفاتك وسقطاتك، بمحبتي النافرة التي غمرتك بها، بالاعزاز الذى يكنه قلبك نحوى ، بهذه وغيرها ، أطلب اليك ، ليلة وداعى ، ان تكون بطلا ، وتلعب دور الرجل . كن قوياً ، لا من أجل ذاتك ، بل من أجل الآخرين. ارعَ المؤمنين ، لا عن ضعف واضطرار ، بل عن رغبة ومحبة . لا تتملص من المسئولية، ولا تطمع في الراحة ، بل احنِ عنقك تحت النير ، ودع المحبة تحمله عليك

هينا . عذبة هى الحرية لقلبك البشرى ، ولكن أعذب منها المحبة الصابرة التى تحتمل كل شيء ، وإن يكن مذاقها مزاً أحياناً » .

هذه هى الرسالة التى وجهها السيد إلى بطرس ، ولعله قصد بها التلاميذ كلهم . ولكنه اختار بطرس ليكون وسيلة لإبلاغها لهم جميعا . وقد كانت حياة التلميذ موضوعا لمثل هذه العظة عن الخدمة وانكار الذات ، وكانت أخلاقه مسرحا لتمثيل ألوان من العواطف ... ذاك التلميذ ذو الروح المنيفة المندفعة ، الذى تعشق الحرية الجامحة ، يدعى الآن لترويض نفسه المتوقدة على الصبر والإذعان !

وحسبنا أن نقارن ذلك الصياد الشاب ، الناجن ، الذى يمنطق نفسه بردائه ، ويقفز الى هنا وهناك كما يهوى ، بذلك الرسول الشيخ ، القديس الوديع كالحمل ، الذى يمد ذراعيه ، يلوبهما الجلاد قبل الاستشهاد . ماأعظم الفارق بين هذاوذاك !!

حسبنا أن نلقى اليه نظرة يوم الخمسين لنرى كيف انسجمت تلك الشخصية المبعثرة ، وتجمعت عناصرها فى ولاء مطلق للمسيح ، تواجه الجموع الهائجة بشجاعة نادرة ، ويشرح لهم حقائق حياة ربه وموته وقيامته ، بأسلوب لا يبارى فى جلائه وقوته ...

وفى حياته كرسول ، نراه انسانا قويا فى زعامته وفى جهاده ، قد صهر ولاؤه ، فغدا خالصا كالذهب الابريز ، واستنار عقله فأضحى يبصر وراء المنظور ، وصقلت عاطفته فخضعت لربه التى أسرها ، واشتدت إرادته فساقته إلى شرف الاستشهاد .

* * *

قلنا إن بطرس لم يذكر مع أخيه اندراوس إلا فى قائمة التلاميذ ، والظاهر أنه قد أغرق عطفه ومحبته على تلميذ آخر يصغره سنا ، هو يوحنا . وكان بطرس ويعقوب ويوحنا من الأخصاء الذين اصطفاهم يسوع خاصة . وأوفد بطرس ويوحنا معا ليعدا الفصح ليلة العشاء الأخير . ولقد اجتهد متصوفة المسيحية فى تأويل هـذه البعثة ، بعثة الزميلين ، فرأوا فيهما صنفين من التلمذة يقترنان معا : النشاط المكدود

والتفكير الحالم ، الولاء فى القيام بالواجب ، والهيام فى التعبدوالخشوع. وانا لنرى هذه المفارقة بارزة فى بشارة يوحنا ،فالاثنان يختلف أحدهما عن الآخرفى التعبيرعن محبته ليسوع .

ثم نجدهما معاً عندالقبر الفارغ ،وكان يوحناقد أحرزقصب السبق فى السباق، وحملته المحبة والشباب على ساقين من الريح ، على أن التهيب والرهبة قد أوقفناه عند باب القبر . ولكن بطرس هو الذى يندفع إلى الداخل ، ويعقبه يوحنا على هون وفى حذر . ثم كانا معاً فى السفينة على ضفاف بحرالجليل،وهناك أيضاًتسارع عين المحبة اليقظة ، لتعرف « الرب » فى ذلك الغريب الواقف عند حافة المياه . ولكن بطرس هو الذى يدفعه حافز المحبة ، فى سورة واندفاع ، إلىأن يلقى بنفسه فى الماء ليسبح نحو سيده . ولقد كان أحدهما مخلصاً للاخر الاخلاص كله،رغما لما بينهما من تباين فى المزاج ، واختلاف فى الطبع . وفى ذلك الصباح عينه ، بعد أن يستمع بطرس إلى كلمة العفو الشامل ، ورد الاعتبار ، والتكليف الملكى بحمل الرسالة ، وما سوف يناله من شرف الاستشهاد،نراهيتلفت إلى الوراء،واذ تقع عينه على التلميذ المحبوب ، يسأل سيده : « وترى ماذا يحل بهذا ؟ ولم يكن مسوقاً فى سؤاله بحب الاستطلاع ، بل بالقلق الممتزج بالعطف على مستقبل زميله الشاب . ترى ماذا يكون نصيبه ؟ أيا لم هو أيضاً ؟ »

وبعد يوم الخمسين تتطور الصداقة ، لتغدو زمالة فى الخدمة المشتركة . ويذهب كلاهما معا إلى ابهاء الهيكل للصلاة والعبادة ،وينطق بطرس بكلمة الشفاءللشحاذ المقعد عند الباب ، ولكنه يشرك يوحنا معه بقوله للعليل « انظر الينا ! ». ويقف كلاهما معا أمام مجلس القضاء اليهودى ويأبيان كل الإباء أن يمتنعا عن الدعوة بالانجيل. ويذهب كلاهما معا إلى السامرة نزولا على رغبة الر ل الآخرين، ليضعا الأيدى هناك على من اهتدوا إلى الدين الجديد . . .

وبعد ذلك لايذكران معا إطلاقا . وقد حكمت علينا ظروف هذا الصمت

من جانب السفر المقدس ، ان نذهب فى الحدس والتخمين مذاهب شتى ، اتحبك أواصر الصداقة اللاحقة بين الشيخوخة والشباب ، بين التعبد الحالم المفكر والحماس المندفع المتهور ، فى خدمة السيد الواحد ، الذى أحباه حبا متماد لافى قوته ، مختلفا فى طبيعته . وانا لنرى رسائلهما فى العهد الجديد متقاربة فى الترتيب الوضعى ، على ما بين الاثنين من خلاف ظاهر فى صياغة الكلام وتنسيق المعانى . فأحدهما قد أنضجته السنون نضجاً سريعاً فى جهاد عنيف ، لاتمام رسالة تسوق صاحبها سوقاً فى طريق الاستشهاد ، بينما نضج الآخر على مهل طوال سنوات فى التعليم والرعاية ، وفى عصر أطلت فيه الهرطقة بقرنيها ، لتقتحم بعد ذلك حرم المبادىء القويمة التى اعتز بها الأولون .

* * *

وقد أغدق بطرس على شاب آخر من غير التلاميذ فيضاً من عطفه ومحبته ، هو مرقس . فالى بيت مريم ، أم مرقس ، داف بطرس تواً بعد إطلاق سراحه من السجن . ونحن نذكر عادة فى مرقس هذا ، كأنه ذلك الزميل الشاب الذى خان عهد الولاء لبولس ، وانكفأ راجعا عن الجهاد وبث الدعوة ، ولكنه كفر فيما بعد عن هذه السيئة ، وغدا معينا أمينا الرسول الكبير أثناء سجنه فى رومية . على انه فى رسالة بطرس التى كتبها الى المسيحيين بآسيا الصغرى من « بابل »[1] . نراه يبعث بتحيات « مرقس ابنى » . وهذه العبارة رمز الى الولاء والحب واقتفاء الكلفة . ولعل مرقس وأمه مدينان إلى بطرس باهتدائهما إلى المسيحية . من ثم نرى الزميل الشاب يرد الجميل مضاعفا • وقد أجمع جمهرة الشراح والباحثين على أن « بشارة مرقس » ان هى الا مذكرات أو مثائل نقلها الكاتب عن بطرس لفائدة المهتدين المسيحيين فى رومية مبدئيا •

* * *

(١) يكاد يجمع الشراح على أن « بابل » هى كنية عن رومية .

على أن المشكلة التي كثر حولها الاستقراء والاستنتاج، وافتتن بها الباحثون، وحارت فيها عقول المفكرين — هي حياة بطرس في علاقته بالرسول بولس . ويبدو أن أحدهما لم يزامل الآخر قط في مهمة بث الدعوة إلا في أخريات الأيام في رومية . وحتى هذا لم يقطع فيه أحد بقول جازم . فهل كان الاثنان صديقين حميمين ، أم زميلين في دعوة واحدة عن بعد ؟ مافتىء العلماء حتى اليوم على اختلاف في الرأي في تأويل التلميحات العابرة التي جاءت في سفر الاعمال ، وفي الرسالة إلى غلاطية .

ويمكن القول في ايجاز ان القصة تقع في ثلاث مراحل :

فأولا مرحلة التشاور . ذلك لأن بولس بعيد اهتدائه انطلق إلى أورشليم للتعرف إلى بطرس هناك، وقضى معه أسبوعين . وأدرك الرسل يومئذ ان بولس انطلق لبث الدعوة بين الامم [1] ، كما دعى بطرس للعمل بين اليهود في الوطن وخارجه . ومد أحدهما الى الأخر يمين الشركة والتفاهم .

والمرحلة الثانية هي مرحلة النزاع . ففي انطاكية سورية تردد بطرس في اخلاصه لمبادىء الحرية التي تقرر ان يتمتع بها المسيحيون الا اميون (الوثنيون)، في التخلص من الطقوس اليهودية الجامدة، وفي المساواة الروحية بين هؤلاء وأولئك . ذلك لأن بطرس وقف في أول الأمر الى جانب المتنصرين اليونانيين ، ولكن ماعتم أن تسحب من موقفه هـذا يوم قدم المسيحيون اليهود المتزمتون . فاحتج بولس بلهجة صارمة، وعاب هذه الذبذبة بألفاظ قاسية . ولعلنا كنا نحكم حكما آخر ، لو كنا معهم في ذلك اليوم ، وسمعنا قصة بطرس . والذى حسبه بولس خيانة لحق الانجيل ، ربما كان في نظر بطرس ولاء لروح الانجيل ، أملاه عليه موقف معقد ، وعطفه على ريب ووساوس توالدت في أذهان أمناء مخلصين . صحيح ان مشكلة خضوع المسيحيين من الأمم لطقوس والممارسات اليهودية، كان قد فصل فيها نهائيا مؤتمر الرسل في أورشليم، لصالح أولئك المسيحيين . وكان هذا من قبيل

(١) « الامم » لقب اطلقه اليهود على الشعوب الوثنية ، كما أطلق الرومان لقب « برابرة » على غير الرومانيين ، وكما أطلقت العرب لقب « أعاجم » على غير أبناء العروبة .

التراضي . ولكن التراضي يصعب دائماً تأويله وتطبيقه في الظروف ذات الملابسات الخاصة . وكان بولس بطلا مناضلا في سبيل التمسك بالمبادىء ، ولم يكن بطرس مداوراً نهازاً للفرص ، ولكن عطفه المندفع ساقه في أول الأمر إلى موقف، رأى فيما بعد أن يعدل عنه، وهو يواجه مشكلة عاصية ، كثيراً ما ثارت في أوضاع شتى في تاريخ الكنيسة المتأخر .

والمرحلة الثالثة هي الصالحة . وكم كنا نود أن نعرف شيئاً عن لقاء الرسولين في رومية. ذلك لأن قصة أيامهما الأخيرة محوطة بكثير من أسباب الغموض ، وتستند إلى استنتاج اجتهادي من أدلة مبعثرة . والذي نعلمه يقيناً أن رسالة بطرس الأولى تلمح إلى إلمام برسائل بولس ، ذلك لأن حاملها ، وربما كاتبها الملقن ، هو « سلوانس » أو « سيلا » ، الزميل السابق للرسول بولس . وكان مرقس أيضاً مع بطرس في رومية . وبعيد جداً أن يكون مرقس وسلوانس قد انتقلا من زمالة بولس إلى زمالة بطرس ، أي من حزب إلى حزب في الكنيسة . وأغلب الظن أن بولس كان غائباً في إحدى رحلاته وقت كتابة الرسالة بين المحاكمتين اللتين جرتا في رومية ، أو ربما يكون قد استشهد وانتقل إلى الرفيق الأعلى . ويقيناً ما كان سلوانس ومرقس ليزاملا بطرس زمالة الأخوة ، لو أنهما أحسا بشيء من القطيعة أو النفرة بين الرسولين الكبيرين . ويومئذ كانت قد اختفت إلى غير رجعة مشكلة الملاقات بين اليهود والأمم ، وأطل الخطر الأكبر على الكنيسة الفتية ، ألا وهو عداء السلطات الرومانية ، وشبح الإضطهاد المخيف . وتحت ضغط الحوادث ، وإزاء الخطر المشترك ، اتحدت كلمة الرسل والمهتدين على أيديهم جميعاً .

* * *

ولسنا نقدر أن نجزم بقول فيما إذا كان زعيما الصحابة الرسولية قد تواعدا على يوم الاستشهاد ، أم أن أحدهما سبق الآخر في هذا المضمار . ومنذ التاريخ المبكر

إقترن اسماها معاً فى الذكرى التى أحيتها الـكنيسة . ودفن كلاهما فى موقـع الإستشهاد ، بطرس على تلة الفاتيكان ، وبولس فى طريق أوستيا خارج أسوار رومية. وما تحـل سنة ٢٣٨ ب . م . حتى تتضرم نيران اضطهاد عنيف ، حمل الـكنيسة فى رومية على أن تنقل جثمانى الرسولين إلى السراديب صوناً لهما . وقد احتفظ بذلك اليوم ، يوم إعادة دفن الرسولين ـ وكان فى التاسع والعشرين من شهر يونيه ـ عيداً كنسياً تسميه بعض الـكنائس « عيد استشهاد مار بطرس وبولس ».

على أنه فى عهد الامبراطور قسطنطين ، أول الاباطرة المسيحيين ، يعاد رفات الرسولين إلى مقرها الاصلى ، وتشيد باسميهما كنيستان كبيرتان ، إحداهما كنيسة القديس بطرس فى الفاتيكان ، والأخرى كنيسة القديس بولس خارج الأسوار . وإلى هذين المزارين المقدسين اللذين ضما رفات الشهيدين العظيمين ، دلفت على مر العصور أفواج من الحجيج إلى المدينة الخالدة . وحتى اليوم يفرض على أساقفة الـكنيسة الـكاثوليـكية ان يدلفوا كل بضع سنوات إلى « أعتاب الرسل » ، ولا تكتسب الرسائل البابوية قوة التنفيذ إلا إذا صدرت باسمى الرسولين بطرس وبولس.

ولا مناص هنا من كلمة حق : فما كان الرسولان مؤسسى كنيسة رومية فعلا ، بل هى غرس الحجاج اليهود الذين وفدوا إلى رومية بعد يوم الخمسين ، وجنود الرومان والتجار والموظفين وعبيدهم الذين عادوا من إقليم اليهودية . وقد فتح سجن بولس أبواباً لنشر رسالة الانجيل بين الحرس الامبراطورى ، وجيوش البيت الحاكم ، وبلاط القيصرية . وربما يـكون بطرس قد تولى رعاية الجماعات المسيحية فى رومية فترة من الزمن وجيزة ، وربما كان هو صاحب الفضل فى تنظيم الـكنيسة هناك . ولئن لم يكونا مؤسسى الـكنيسة فى رومية ، فهما بلا مراء أميراها الشهيدان .

ويقول ناشر الطبعة الانـكليزية لتاريخ يوسابيوس :

« مع أننا نسلـم بزيارة بطرس لرومية واستشهاده فيها ، إلا أنه يكاد يكون

يقيناً أنه لم يذهب إلى رومية قبل أواخر حكم نيرون . أما ماتقوله الكنيسة البابوية بأنه ظل اسقفاً على رومية مدة خمسة وعشرين عاماً ، وانه كان فيها فى عهد كلوديوس الامبراطور ، فانه لايتفق مع ما نعرفه من وقائع سيرة بطرس فى العهد الجديد وفى كتابات الأولين . ذلك لأنه فى سنة ٤٤ ب . م كان بطرس فى أورشليم (كما جاء فى سفر الأعمال ١٢ : ٣) . وفى سنة ٥١ ب . م كان هناك أيضاً (أعمال ص ١٥) . وبعد ذلك كان فى انطاكية (غلاطية ١ : ١١) . وقد نشر رسالة الإنجيل فى ولايات كثيرة من آسيا الصغرى ، كما نرى فى رسالته الأولى التى كتبها على الأرجح فى بابل على نهر الفرات [1] . وعلى كل حال لايمكن القول انه كان فى رومية حين كتب بولس رسالته إلى أهلها حوالى سنة ٥٧ و٥٨ ب . م . لأنه لم يرد اسمه بين الأخوة الذين ذكرهم . ولم يكن هناك أيضاً حين كتب بولس من رومية أثناء حبسه (من سنة ٦١ و ٦٢ إلى سنة ٦٣ و ٦٤) . والذى نستنتجه أنه لم يذهب إلى رومية إلا قبيل استشهاده . ويقرر أغلب المؤرخين أن سيمون الساحر لم يذهب إلى رومية إلا فى حكم نيرون ، وأنه ذهب وراء بطرس إليها [2] » .

---

(١) يقول كثيرون من ثقات المفسرين ان بابل هنا ترمز الى رومية وليست « بابل » الواقعة على نهر الفرات فى بلاد العراق ، وان الرسول يقصد رومية حين يقول « تسلم عليكم الكنيسة التى فى بابل المختارة معكم ومرقس ابنى » .

(٢) اقرأ فى هذا الموضوع رواية « الكأس الفضية » ترجمة المؤلف .

الفصل الخامس

يوحنا

... لم يذكر اسمه فى إنجيله وداعة منه ، ولكنه اكتفى بقوله عن نفسه : « التلميذ الذى كان يسوع يحبه » . كما أنه لم يذكر اسم أحد من ذوى قرباه ، لا اسم أبيه ولا أمه ، ولا اسم العذراء المباركة .

على أن البشيرين الثلاثة الآخرين قالوا عنه انه ابن زبدى ، وأمه سالومة. أما أبوه فكان — على ما يظهر — من ذوى اليسار ، لأنه كان فى حيازته عدد من الخدم المأجورين لمساعدته فى إصلاح الشباك (مرقس ١: ٢٠). وكان أيضاً يملك بيتاً ، وهو البيت الذى آوى إليه بطرس بعد أن أنكر سيده ، والذى أسكن فيه العذراء بعد أن استودعها المسيح إلى عنايته فى أظلم ساعات الصليب. وكان يوحنا نفسه معروفاً لدى قيافا رئيس الكهنة . ورئيس الكهنة لا يعرف إلا أهل الجاه والكرامة. أما أمه فكانت سيدة تقية فاضلة ، وكانت أختاً للعذراء المباركة ، فهو إذاً ابن خالة يسوع حسب الجسد ويبدو لنا أيضاً أن سالومة حظيت بقسط من نعيم الحياة ، لأنها كانت بين النساء اللواتى خدمن يسوع ، واشتركت معهن فى شراء الحنوط الكثير الثمن لتكفين جسده بعد الصلب

إذاً لم يكن يوحنا فقيراً بالمعنى الذى نفهمه من الفقر ، بل كان من عائلة شريفة أما انه اتخذ صيد الأسماك مهنة له ، فذلك لأن عادات اليهود كانت تقضى على أبناء الأشراف والوجهاء أن يتعلموا حرفة ما ، تقيهم شر الفاقة ، كما يقول التلمود .

ولد يوحنا فى « بيت صيدا » وهى قرية من بحر الجليل ، تكتنفها مروج تابور الخضراء ، وتشرف عليها قمم جبال حرمون الثلجية البيضاء ، فلا عجب أن ينشأ

يوحنا فيلسوفاً حالماً ، ومتصوفاً عابداً ، كما نلمس ذلك فى كتاباته . وولد فى أيام حكم أول أباطرة الرومان ، وامتدت به الأيام حتى بلغ أوائل القرن الثانى ، وبذلك أضحى أطول الرسل عمراً وأبقاهم على الزمن . و « يوحنا » كلمة عبرية معناها « الله يتحنن » . وقد تربى يوحنا وهو حدث - كما يتربى أبناء اليهود الاشراف ومتوسطى الحال - فى مدرسة القرية - حيث تعلم مبادىء القراءة والكتابة ، واستظهر ما تيسر من التوراة والتلمود . وأغلب الظن أنه نشأ نشأة يهودية صارمة ، متزمتة ، تروض فيها على كراهية السامريين وكل الخوارج عن اليهودية المحافظة ، وعلى التعصب لدينه وأمته ووطنه ، حتى دعى فيما بعد - هو وأخوه - « ابنى الرعد » . ثم تتلمذ ليوحنا المعمدان ، نبى البرية المتقشف ، فاكتسب مزيداً من الصلابة والحدة . ولكن هذا الإنسان الصلب المتزمت ، هذا اليهودى الضيق المتعصب ، يحيله يسوع « رسول المحبة » ، هادئاً كالنسيم ، ليناً وادعاً كندى الصباح . وفى كتاباته لا يذهب مذهب الجدل والمحاجة ، ولكنه يروى ما عاينه ، وما اختبره ، فى ثقة واطمئنان ، كشاهد أمين يدلى بأقوال صادقة ، لا يتسرب إليها الشك ، ولا يجد الباطل إليها منفذاً .

وإذا نحن ألقينا نظرة عجلى إلى مسرح الحوادث فى قصة الأنجيل بحسب تسلسلها التاريخى ، فانا نراه أول ما نراه ، يتبع يسوع فى الطريق مع اندراوس ، عقب تركهما المعمدان . ثم تنقضى ثمانية عشر شهراً ، ونراه بعد ذلك ، يوم دعاه يسوع أن يترك أباه زبدى ، ويسير وراءه ليجعله من صيادى الناس .

ونجده بين زمرة الاثنى عشر الذين اصطفاهم يسوع تلاميذ له . وبعد نراه مرسلا مع الآخرين ... تلك هى الحالات التى نراه فيها فى قصة الإنجيل فى خلال السنوات الثلاث الأولى من خدمة السيد ، وقد نضيف إليها أنه كان مع بطرس ويعقوب عند زيارة بيت يايرس .

وفى خلال الستة أشهر الأخيرة ، نراه مع رفاقه الثلاثة فوق جبل التجلى ، ثم نراه مغيظاً حانقا على كل إنسان كان يخرج الشياطين باسم يسوع ، وهو ليس يتبعهم . وما كنا لنعرف هذه الواقعة ، لولا أن يوحنا يدونها كعيب من العيوب التى انزلق إليها . ويومئذ أقام السيد فى وسطهم ولدا صغيرا للدلالة على العظمة الحقة .

وبعد ذلك بقليل نراه يجتاز إلى السامرة مع يسوع ، وهناك يطلب من سيده أن يُنزل ناراً من السماء تحرق القرية الجاحدة التى أبت أن تقدم أصول الضيافة لهم ، وتحسن لقاءهم .

ويسجل البشير مرقس قصة مجيئه مع أخيه الى يسوع ملتمسين مكانة الصدارة فى الملكوت العتيد ، ويقول متى ان هذا الطلب قدمته أمهما بالنيابة عنهما . وخليق بنا الا نطلق العنان لأنفسنا فى نقد التلميذين ، فقد كانت تلك أياما سوداء، أنبأهم فيها سيدهم بأنه مزمع أن يموت ، فبلبل أفكارهم ، وأوقعهم فى حيرة خانقة . ومع ذلك فقد آمنا أنه مقبل على حدث خطير ، لذلك قدما هذا الطلب .

وكان يوحنا أيضا أحد الأربعة الذين التمسوا تأويل نبوة جبل الزيتون ، ثم أرسل مع بطرس ليعد وليمة الفصح فى العلية . وأخيرا نراه فى جثسيمانى مع بطرس وأخيه ، ويتبع سيده إلى قاعة المحاكمة . ويبين أنه هناك راقب بطرس ، ورآه يخرج كسير القلب ، مضنى الفؤاد موجعه فى ظلام الليل ، بعد انكار سيده . وهو الذى تعقبه وأخذه إلى بيته إنسانا مهدم الأعصاب بعد تلك السقطة المريعة . ثم كان واقفا عند قدمى الصليب ، على مقربة من السيد ، بحيث سمعه وهو يوكل إليه العناية بأمه والحدب عليها .

وبعد الصلب نراه فى صباح القيامة مسرعا إلى القبر الفارغ . وإذ يشعر بالسأم والملال من طول الانتظار ، يزامل السبعة الآخرين الذين عادوا إلى الصيد ، وكان مع المسيح فى ذلك الصبح عند بحر الجليل . وبعد ذلك نشهده فى العلية ، وبعد يوم الخمسين ، نراه عند « الباب الجميل » مع بطرس ، ثم ينطلق إلى السامرة ،

التى كان قد طلب من قبل أن تنزل عليها نار آكلة ، لينادى بالقيامة مع بطرس ثم نلمح وجهه فى الرسالة إلى غلاطية ، يوم ذهب بولس إلى أورشليم ، وكان أحد الذين قابلوه ليفحصوا صدق دعواه .

وأخيراً ، نراه فى جزيرة بطمس من أجل « كلمة الله وشهادة يسوع » . ولا جدال ان اسمه قد نقش أيضاً على أساسات مدينة الله مع الاثنى عشر .

* * *

والآن إذ نعرض أمام ذكرياتنا هذه الحوادث عرضاً سريعاً ، لا نرانا أمام صياد ينظف الشباك ، ويقتنص الاسماك ، انما أمام مفكر حالم ، ومتصوف عابد ، وشاعر خيالى . وكان المتوقع أن تجعله هذه المزايا فوق مستوى الانسان العادى فلا يفهمه إلا الخاصة دون الكافة . بينما الواقع أنه مامن تلميذ آخر شغفت به جماهير المسيحيين مثل هذا التلميذ . ففى بشارته التى هى قدس أقداس المسيحية ، وفى رسائله التى جعلته رسول المحبة ، وفى رؤياه التى ارتفع بها إلى سماء الوحى ، وحلق مع الملائكة فى الملأ الأعلى — نراه أقرب الرسل والكاتبين إلى قلوب المسيحيين . هو يوحنا التلميذ الحبيب ، والرسول ، والرائى ، واللاهوتى .

وقد جمع يوحنا كل أدلته بقوة الرؤيا وبعد النظر الروحى ، لا بقوة المنطق والاستنتاج العقلى . ولست أقصد انه جانب المنطق وقوة الحجة ، فإنه فى بشارته قد جمع الدلائل البينات القديمة بالاستقراء والاستنتاج . على أنه من حيث شخصه إكتفى بالوحى والأدراك الروحى ، وما رأته عينه ، وما سمعته أذنه ، وما لمسته يده وما أحست به نفسه ، وحسبنا ان نطالع الرسالة الأولى التى تحمل اسمه لنرى فيها تلك الخواص الصوفية الروحانية المتعبدة .

« . .. الذى رأيناه بعيوننا ، الذى شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة ، نخبركم بالحياة الأبدية التى كانت عند الآب ، وأظهرت لنا ، الذى رأيناه وسمعناه نخبركم به لكى يكون لكم أيضاً شركة معنا » .

أجل ، لقد رأى ، وسمع ، ولمس . ولكنه حين رأى ، أبصر مالم يبصره الآخرون . وحين سمع أصغى إلى مالم يسمعه الآخرون . وحين لمس ، أدرك ماخفي على غيره . . . كانت عينه أقوى من عين النسر ، فأبصر غير المنظور . وأذنه مرهفة فتسمع دبيب المنى وهمسات الصدور . وحاسة اللمس قوية حساسة ، فلمس غير المحسوس الذى تختلج به القلوب .

وكان يوحنا رسول المحبة . أحب حباً عظيماً ، فى حماس وقوة . وغدت كلمة « المحبة » مفتاح كتاباته ، وعنوان حياته . وقد خلقت المحبة فى نفسه قوته المحركة ـ فأضحى متعصباً متحمساً لا يرضى أن يجرى أحد معجزات باسم سيده ، ومنتقماً تدفعه شهوة الانتقام إلى أن يطلب ناراً من السماء آكلة ، معتداً بذاته حتى ليطمع فى أن تكون له مكانة الكرامة والقوة . ولم يكن طموحه آنذاك إلى الشهرة والجاه ، انما لتتوافر له الفرص ليجد متنفساً لهذه القوة المحركة الدافعة التى غذتها المحبة وأشعلت أوارها . والمحبة تدفع صاحبها أحياناً إلى ركوب متن الشطط فى القول والعمل .. ولكنه بعد اذ تلين قناته ، وتروض نفسه ، ويفهم سر القوة الحقة ، تسوقه قوة المحبة عينها إلى مزيد من الرقة واللين ، والخدمة والعطف ، والتضحية وإنكار الذات .

* * *

وترى كيف عالج السيد هذا التلميذ ، الذى يختلف اختلافاً بيناً عن صديقه اندراوس ، وعن سمعان بطرس ؟ كان يوحنا مع اندراوس يوم اللقاء الأول ، وقد تحداه يسوع سائلا اياه « ماذا تطلب ؟ » ، ثم مكث معه اليوم كله ، وهنا نتخيل أن يوحنا يحاول يومئذ أن يرى غير المنظور ، ويصغى إلى غير المسموع ، ويلمس غير المحسوس . لأنه تواً بعد اللقاء ، انخرط وزميله اندراوس فى سلك التلمذة لهذا السيد الجديد ، بدليل قولهما « يامعلم » .

وكلمة يسوع له فى ذلك اليوم « تعال وانظر » حفلت بعميق المعانى . ومن الطريف أن نقرأ فى ديباجة سفر الرؤيا هذه العبارة :

«اعلان يسوع المسيح الذى أعطاه اياه الله ليُرى عبيده مالا بد أن يكون عن قريب، وبينه مرسلا بيد ملاكه لعبده يوحنا . الذى شهد بكلمة الله وبشهادة يسوع المسيح بكل مارآه » .

فى أول يوم يتحدى يسوع يوحنا قائلا « تعالوانظر » .وفى آخر المطاف يشهد يوحنا « بكل مارآه » . دعايسوع ذلك الرائى أن يأتى ليرى ،ووعد ذلك الشاعر الحالم أن يشبع له مطلب نفسه، والآن فى شيخوخته ، بعد أن كلّت عيناه ، يقول « رأيت » . ولا نعدو الصواب إذا نحن قلنا انه كان لتلك العبارة «تعاليا وانظرا» فى نظر يوحنا ، تأويل يختلف عن تأويلها فى نظر اندراوس ، لما بينهما من فارق فى المزاج والشخصية .

وبعد، نرى ربما يدعو هذا الإنسان ان يترك سفائن الصيد ، والشباك ،وأباه وأهله، ليكون فيما بعدصياداً للناس . وقد وجهت اليه هذه الدعوة مع زملاء له هم اندراوس وسمعان ويعقوب . « أجعلكم صيادى الناس » . فكأن ربما أرادأن يرفع مهنتهم فى الحياة إلى مستوى أرقى ، دون أن يغيروا طبيعتها . وهو يدعونا اليوم لكى يقدس مواهبنا وملكاتنا التى نستخدمها فى مهنة الحياة لتكون فى خدمة ملكوته .

وكان يوحنا بين الأثنى عشر الذين اصطفاهم،ليكونوا معه أولا،ثم ليكونوا رسلا من بعده . وهنا أطلق عليه ، وعلى أخيه، لقب « ابنى الرعد-بوانرجس» . وأغلب الظن أن السيد كان يشير إلى ملكات طبيعية دفينة لم تنضج بعد، وإلى قوى مستترة ستدفعها الأيام إلى الظهور . وقد أطلق على بطرس لقب « الصخرة » ، لا لأنه كان صخرة منذ البدء، بل لأن قواه الكامنة فيه كان مقدراً لها أن تجعله « من أعمدة الكنيسة » ، ومن أصلب قادتها وزعمائها .

وقد رأينا فيما سبق ، أنه فى ثلاث مرات ، اختلى يوحنا وأخوه يعقوب ، وبطرس ، مع سيدهم دون الاثنى عشر : فى بيت يايرس ، وفوق جبل التجلى ، وأخيراً فى بستان جثسيمانى . ويذهب بعضهم إلى أن أولئك الثلاثة كانوا من الأخصاء المحسوبين ، لذلك خصَّهم السيد بهذه الفرص دون سواهم . على أننى أؤثر أن أذهب إلى رأى آخر ، هو أن المسيح أخذ أولئك الثلاثة ليكشف لهم حقائق جديدة تمين ضعفاتهم ، ويُقيلهم من عثراتهم الفكرية . وفى فرصة التجلى ، صعد بهم فوق الجبل وترك التسعة الآخرين فى الوادى . . . وإنها لثقة أكبر ان تبقى فى الوادى تواجه الشيطان والآثام ، من أن تصعد فوق الجبل لتشهد الرؤى والأحلام .

هذه فكرة على كل حال . . .

وفى تلك الفرص الثلاث رأى يوحنا ربه فى أوضاع ثلاثة : رآه « واهب الحياة » يوم أمسك بيد الصبية وقال لها « طاليثاقومى ! » . ورآه فوق جبل التجلى وقد تغيرت هيئته ، إلى تاج الحياة البشرية ، وكان فى قدرته أن يخلع عنه هذه الحياة المتجلية ، ويترك مسرح الأرض بدون أن يموت . . . رآه « موجد الحياة » فى أسمى أوضاعها . ثم رآه فى جثسيمانى سيد الموت ، رآه ، وهو واهب الحياة وموجدها ، يكرس نفسه للموت . . .

وفى ثلاث مرات أخرى ، نرى السيد يوبخ يوحنا ، ويوجه نظره إلى الحق والصواب : الأولى يوم عاب تعصبه وضيق فكره فى موقفه الحانق حيال الإنسان الذى كان يخرج الشياطين باسم يسوع ، فقال له :

« لا تمنعوه لأنه ليس أحد يصنع قوة باسمى ، ويستطيع سريعاً أن يقول علىّ شراً . لأن من ليس علينا فهو معنا » .

وقد أراد يسوع أن يرده إلى الصواب ، ويهدى روحه إلى الحق : ولا نشك أن يوحنا فعل مافعل مسوقاً بالولاء لسيده ، ولكن كان فى الوقت عينه حريصاً

على مكانته وزملائه ، بحيث لا يحق لأحد من الناس سواهم أن ينطق باسم سيدهم. ومثل هذا الفضولى المتطفل يجب التضييق عليه ومنعه .

ثم وبخه توبيخا صارما مرة ثانية ، يوم بدت منه روح الانتقام من السامرة ، فطلب أن تنزل نار من السماء تأكلها . وهنا أيضا وقف يوحنا من سيده موقف الولاء والإخلاص ، ولكنه اخلاص ممتزج بروح شرير منتقم . وهنا قال له السيد : « لست تعلم من أى روح أنت » :

وبعد أن قال هذا ، قدم ليوحنا وهو سائر فى طريقه — مثالا للروح الحق ، فى غير مهاترة أو شهوة للانتقام .

ومرة ثالثة انتهره ، فى رقة وعطف وعذوبة ، ولكن فى حزم وصدق وجدٍّ يوم طلب هو وأخوه مكانة ممتازة فى الملكوت العتيد ، فقال له : « لستما تعلمان ما تطلبان . أتستطيعان أن تشربا الكأس التى أشربها ، وأن تصطبغا بالصبغة التى اصطبغ بها انا » .

ومن المدهش ان يجيب التلميذان « نستطيع » . على أن المسيح لم ينكر عليهما هذا الاقرار ، ورحب بهما إلى الشركة معه ، وقال لهما أنهما سيشربان الكأس ، وسيصطبغان بالصبغة عينها . وفى ذلك اليوم كشف ليوحنا أن طريق العظمة فى ملكه هو الصليب ، وصبغة الألم والتضحية . وكان عليهما أن يقطعا مرحلة طويلة قبل أن يبلغا هذا الهدف . ومن الطريف أنه لم يصر على عذلهما ، بل أعلن لهما أسرار القوة التى يسعيان إليها[1] .

وأخيراً نقف أمام الثقة العجيبة التى وضعها يسوع فى تلميذه وقد دون السفر المقدس واقعتين للدلالة على ذلك : احداهما عادية من شئون الحياة الطبيعية ، والاخرى رفيعة سامية فى نطاق الروح .

---

(١) اقرأ ايضا سيرة « أخى يوحنا » فى هذا الكتاب.

أما الأولى فهى أنه وكل اليه أمر العناية بأمه . أما الثانية فهى أن المسيح حين أراد أن يرسل لعبيده اعلاناً عن مجده ونعمته وقوته، اختار يوحنا وبعث له بهذا الاعلان عن طريق احد ملائكته ، كما ذكر الرسول هذا صراحة فى ديباجة كتابه:

« اعلان يسوع المسيح الذى أعطاه اياه الله ليرى عبيده مالابد أن يكون عن قريب، وبينه مرسلا بيد ملاكه لعبده يوحنا ».

وها نحن نجىء إلى الخاتمة ، إلى الصفحة الاخيرة . وذلك يوم ظهر المسيح لتلاميذه على ضفاف بحر الجليل ، وتحدى محبة بطرس له ، وألقى عليه عبء الحياة ومهمة العمل ، وكاشفه بالمصير الذى ينتظره ، وهو الصليب . وهنا يلتفت بطرس إلى زميله يوحنا ويسأل سيده فى حنان :

« يارب ، وهذا ماله ؟ »

وهنا انتهر السيد فى لين ومحبة فضول بطرس ، ونطق بألفاظ شعرية فهمها يوحنا اكثر من سواه : « ان كنت أشاء أن يبقى حتى أجىء فماذا لك ؟ »

وقد حرص يوحنا فى روايته على أن يقول ان السامعين قد أساءوا فهم هذه الأقوال ، وذاعت اسطورة بأن يوحنا لن يموت . فاضطر أن يصحح الموقف ويزيل سوء الفهم ، لذلك كتب يقول : « لم يقل له يسوع انه لا يموت ، بل ان كنت أشاء انه يبقى حتى أجىء فماذا لك ؟ »

وهو هنا لم يحاول أن يشرح هذه العبارة الشعرية ، بل قنع بإزالة سوء الفهم ، وكان يوحنا قد سمع صوت سيده وهو يحدث بطرس، وأدرك أن العبارة قد يُساء فهمها ، أما هو فقد عرف مغزاها ، وبادر إلى تصحيحها .

مما تقدم نرى السيد يعالج ، فى تاريخ طويل ، هذا الرائى ، والحالم ، والشاعر فينزع منه العناصر التى أعمت بصره ، وتنقى الجو الذى عاش فيه ، ويجمع شتات النوازع المتضاربة فى نفسه إلى هدف واحد ، ويشرح له أعمق اشياء الروح ، ويستخدمه أخيراً لأن يقدم للعالم فى أنجيله ، أقدس الاعلانات السماوية . فالبشير

متى يقدم لنا المسيح « المسيا » الذى انتظره اليهود . ومرقس يقدم لنا المسيح الذى يشبع حاجات البشرية . ويقدم لنا لوقا المسيح مخلص الانسانية . أما يوحنا فانه يقدم المسيح فى جلال لاهوته المتجسد فى مجد ونعمة وقوة .

* * *

ويقول التقليد ، أى الأحاديث المسيحية ، ان هذا الرسول مضى ، بعد تفرق التلاميذ لحمل الرسالة طوعاً لأمر سيدهم ، إلى بلاد آسيا ، وكان سكانها غلاظ الأكباد ، قساة القلوب ، فأساءوا لقاءه ومعاملته فى أول الأمر ، وبدأ عمله فى مدينة افسس ومعه تلميذه بروخوروس . وكانا قد سافروا إلى تلك المدينة فى مركب شراعى ، فانكسرت وتعلق الركاب بألواحها ، وقذفت الأمواج بتلميذه بروخوروس إلى احدى الجزر . أما القديس يوحنا فلبث فى البحر عدة أيام تتقاذفه الأمواج حتى طوحت به عناية القدير إلى الجزيرة عينها التى كان بها تلميذه ومن هناك انطلق الاثنان إلى افسس ليناديا برسالة الانجيل . ولم يحالفهما التوفيق فى أول الأمر لقسوة قلوب القوم ، ولكن حدث ذات يوم أن سقط ابن وحيد لأمه فى مستوقد حمام كانت تديره . فاسرعوا لاخراجه ولكنه كان قد مات ، وراحت الأم تصرخ وتولول . فتقدم الرسول من الميت وصلى إلى الله بلجاجة ، ونفخ فى وجهه ، فعادت إليه الحياة . وحدث هرج ومرج فى المدينة كلها ، وابتهجت الأم لعودة وحيدها إليها ، وأخذت تقبل قدمى الرسول ودموع الفرح تفيض من عينيها ، وبدأ أهل المدينة يتقاطرون إليه ، ليسمعوا تعاليمه ، وآمن منهم خلق كثير على أن هذا قد أثار حفيظة كهنة الأوثان وحقدهم ، فحاولوا الفتك به مرارا ، على أن ربه قد صانه من مكائدهم ، وبقى يعالجهم بالمحبة والعطف حتى دانوا بالمسيحية ، وأقبلوا إلى معرفة الله ، ورسم لهم كهنة وأساقفة يتولون رعايتهم . ومن أفسس كان الرسول يخرج إلى نواح أخرى فى آسيا لنشر الدعوة ، وقد أسس كنائس كثيرة فى تلك الرقاع .

وقد حكم عليه بالنفى فى جزيرة بطمس ، من أجل الشهادة بالانجيل ، فى عهد

الامبراطور دومتيانوس . ولكن مجلس الاعيان الروماني أصدر بعد وفاة دومتيانوس ، وفي عهد الامبراطور نرفا ، قراراً بعودة جميع المنفيين إلى أوطانهم، وإعادة ممتلكاتهم المصادرة . وخلف نرفا الامبراطور تراجان ، وكان يوحنا الرسول لا يزال حياً في آسيا في بداية عهد هذا الامبراطور بشهادة اثنين من الثقات هما ايرانيوس واكليمنضس الاسكندري . وقد حكم تراجان من سنة ٩٨ إلى سنة ١١٧ م .

وعمر هذا الرسول طويلا ، ولعله أطول الرسل عمرا ، لأنه عاش إلى أوائل القرن الثاني . ولما بلغت به الشيخوخة مبلغاً أقعده عن السير ، كانوا يحملونه إلى الكنيسة ويرفعون يديه ، ليقول كلمة واحدة : يا أبنائي أحبوا بعضكم بعضاً .

وتقول إحدى الروايات انه لما أحس بقرب انتقاله من هذا العالم دعا إليه الشعب ، وناوله العشاء الرباني ، ثم وعظهم حاثاً اياهم على الثبات والاحتمال . ثم خرج قليلا من مدينة افسس وأمر تلميذه وآخرين معه فحفروا له حفرة هناك ، نزل فيها ورفع يديه وصلى . وودعهم وأمرهم أن يعودوا إلى المدينة ويثبتوا الاخوة في الإيمان قائلا لهم : « اني بريء الآن من دمكم ، لأني لم أترك وصية من وصايا الرب إلا أعلمتكم بها . والآن اعلموا انكم لا تعودون ترون وجهي فيما بعد ، وسيجازي الله كل واحد حسب عمله » ولما قال هذا قبلوا يديه ورجليه ، ثم تركوه ومضوا . فلما علم الشعب بذلك خرجوا جميعهم إلى حيث كان الرسول ، فوجدوه قد مات . وبكوا عليه بحرقة ، وكانوا يتحدثون بعجائبه ووداعته ومحبته .

الفصل السادس

أخو يوحنا

« ثم اجتاز من هناك فرأى أخوين آخرين يعقوب بن زبدى ويوحنا أخاه في السفينة مع زبدى أبيهما يصلحان شباكهما فدعاهما » . (متى ٤ : ٢١)

« وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين . وتغيرت هيئته قدامهم واضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور » . (متى ١٧ : ١ و ٢)

« ثم أخذ معه بطرس وابني زبدى وابتدأ يحزن ويكتئب » (متى٢٦ : ٣٧)

« فقتل يعقوب أخا يوحنا بالسيف » . (أعمال ١٢ : ٢)

هو الذى يسمونه « يعقوب الكبير »، وقد جاء اسمه في بشائر الأنجيل مقترناً باسم أخيه يوحنا . والظاهر أنه كان الأكبر سناً ، لأن اسمه يذكر دائماً قبل أخيه ونحن نلقاه ، أول ما نلقاه ، عند بحر الجليل ، يوم دعا يسوع أربعة من صحابته ـ بطرس واندراوس ، ويعقوب ويوحنا ـ ليتركوا كل شيء ويسيروا وراءه .

فيعقوب إذا من بيت صيدا ، أبوه زبدى ، وأمه سالومة ، وأخوه يوحنا الرسول . وكان أحد الرسل الثلاثة الاخصاء ـ بطرس ويعقوب ويوحنا ـ الذين خصهم يسوع بكثير من الأسرار العميقة .... كان مع بطرس ويوحنا عند اقامة ابنة يايرس من الأموات ، وعند التجلي ، وليلة جهاد المسيح في جثسيمانى .

وعلى مقتضى روايات الانجيل ، لم يكن له دور معين ، بل كان اسمه دائماً مع أخيه . وحسبنا أن نذكر هنا حادثتين من حوادث الانجيل ، تلقيان ضياء على ناحية من نواحي أخلاق يعقوب وصفاته . وفي كلتا الحالتين يشترك مع أخيه يوحنا :

أما القصة الأولى فهى التى رواها البشير لوقا :

« وحين تمت الأيام لارتفاعه ثبت وجهه لينطلق الى أورشليم . وأرسل أمام وجهه رسلا . فذهبوا ودخلوا قرية للسامريين حتى يعدوا له . فلم يقبلوه لأن وجهه كان متجهاً نحو أورشليم . فلما رأى ذلك تلميذاه يعقوب ويوحنا قالا يارب أتريد أن تقول أن تنزل نار من السماء فتفنيهم كما فعل إيليا ايضاً . فالتفت وانتهرهما وقال لستما تعلمان من اى روح انتما . لان ابن الانسان لم يأت ليهلك انفس الناس بل ليخلص . فمضوا إلى قرية اخرى » . (لوقا ٩ : ٥١ — ٥٦)

وقعت تلك الحادثة فى رحلة يسوع الأخيرة من الجليل الى اليهودية ، عن طريق السامرة ، يوم « تمت الايام لارتفاعه وثبت وجهه لينطلق الى أورشليم » . والظاهر ان احدى قرى السامرة أبت على يسوع وتلاميذه المأوى أثناء الليل بعد عناء يوم طويل فى السفر المضنى . فجاء يعقوب ويوحنا أخوه ، وطلبا إلى السيد أن ينزل نارا من السماء ليفنى هذه القرية . . .

وانه لاقتراح غريب يصدر من رجال ، عاشوا مع يسوع بضع سنوات ، وخاصة من تلميذ مثل يوحنا شاهد بعيني رأسه ، لقاء المسيح المرأة السامرية عند البئر ، وسمع حديثه معها عن فجر اليوم الآتى . حقاً قد يكون خيار الناس أكثرهم بلادة فى فهم أفكار السماء ، وإدراك معانى المحبة . وعزاؤنا أن نرى أحد الأخوين بعد سنة أو سنتين من تاريخ هذا الطلب المخيف القاسى ، ينزل من أورشليم لينادي برسالة يسوع المصلوب فى « كثير من قرى السامريين » ، وربما فى هذه القرية عينها التى طلب أن تنزل نار من السماء لتأكلها .

ما أعظم التباين بين الرجلين بعد النمو فى النعمة ، والامتلاء من روح الله ، ففى الدور الأول ، دور الفجاجة وعدم النضوج فى الحياة الروحية ، والغيرة العمياء ، والنقد والعذل ، والوسوسة والارتياب ، يتمثل التلميذان بايلياء ويحا كيانه ، ولكن فى دور النضوج الروحى بعد أن فعلت شمس يوم الخمسين فعلها فى نفسيهما ، وجعلت

العصير الحامض شراباً حلواً عذباً ، يحنى أحدهما عنقه لسيف الجلاد في غبطة وسعادة ، ويبدو الثاني رسولا غيوراً ، ويظهر في أخلاقه اللينة ثمار المحبة، والفرح، والسلام، واللطف ، والوداعة ، والتعفف ، والإيمان. وهذا التباين طبيعي، مهما يكن صارخاً. ذلك لأن العناصر الأدبية الأخلاقية تبقى كما هي وسط التقلبات والتغيرات. فعصير العنب الناضج هو بعينه العصير الحامض الذي كان في الثمرة الخضراء الفجة ، اضيفت إليه نور الشمس وحرارتها . كذلك لم تختف حماسة ابني الرعد وغيرتهما وتضحيتهما بعد أن صارا رسولين ، ولكن هذه الغيرة الراعدة قد غدت مهذبة بنور الحكمة ، مروضة بحرارة البذل والمحبة .

وقد تساءل بعضهم كيف يحتضن الأخوان مثل هذه الشهوة المنتقمة الثائرة المنسوبة إلى يعقوب ويوحنا ، وهما من أخصاء يسوع وأقرب التلاميذ إلى قلبه ، وأحدهما هو الذي « كان يسوع يحبه » . ولكن يجب أن نذكر أن المسيح لم يكن كسائر الناس . فهو قد أختار تلاميذه ، دون النظر إلى ما كانوا عليه، لأنه عرف ما كانوا إليه صائرين ، بعد الترويض والتهذيب . وهو يقدر العنب الحاذق في أوانه ، لأنه يعلم مآل هذه الثمرة بعد النضوج الكامل . ثم يجب ألا ننسى أن التلميذين، حتى وهما فريسة لشيطان الضغينة والحقد ، كانا مسوقين بإحساس طاهر مقدس . وإلى جانب دخان شهوة الإنتقام العالية ، نرى ناراً إلهية في قلبيهما. فهما قد أحبا يسوع بالشدة عينها التي أبغضا بها السامريين . وهما قد حقدا على غلاظتهم ومماحكتهم ، لأنهما أحبا سيدهما حباً مفرطاً . وقد قيل عن أحدهما — وهو يوحنا — ان طبيعته كانت أشبه بطبائع النساء في فضائلها وفي نقائصها ، ذلك لأنه يقدر أن يكون رائعاً في عذوبته ، وفي مرارته .

وإذ ننتقل إلى دراسة الإقتراح بالذات الذى قدمه التلميذان، يجب ألا نقصر في تفكيرنا على أنه كان مجرد فورة من الفورات العاطفية التي انفجرت أثر تمنع أهل القرية عن تقديم أسباب الضيافة . لاشك أن التلميذين وأصحابهما الآخرين قد

تأذوا بسبب هذه السماجة غير المنتظرة، ولا عجب أن يتعكر مزاجهم إزاء هذا الموقف المشين الذى لا يستسيغه أهل الريف ، وخاصة لأن القمابى المرهقين بعد السفر الطويل يهتاجون لأتفه الأسباب ، ولم يكن هينا عليهم أن يتحاملوا على أقدامهم إلى قرية أخرى بعد عناء يوم كامل. على أننا نحسن الظن بأخلاق التلميذين وزملائهما فلا نجرؤ على التفكير فى أنهما كانا مسوقين فقط بعامل الخشونة التي أبداها السامريون، لأن مثل هذه الخشونة لا تستوجب القتل والافناء بالنار .

إنما يجب أن نذكر أن أولئك القرويين الأجلاف البخلاء كانوا سامريين ، وكان بين اليهود والسامريين عداء مستحكم قديم ، وكان لهذا العداء المتوارث أثره فى خلق عوامل البغضاء بين الفريقين . ولعل جنسية المسافرين هى التى حملت القرويين على منعهم من المبيت فى ديارهم . فقد كان أولئك يهوداً جليليين ، منطلقين جنوباً إلى أورشليم ، وفى هذا الكفاية . والتلاميذ أيضا من جانبهم كانوا فى هذا الموقف عينه ، اختزنوا فى صدورهم كمية كافية من بارود الكراهية، تفجرها شرارة خاطفة ، مثل كلمة عابرة ، أو إساءة غير مقصودة . ومع أن التلاميذ كانوا قد قضوا مع يسوع بضع سنوات ، إلا أن الإنسان اليهودى القديم ، كان أقوى فيهم من الإنسان المسيحى الجديد . ولو أنهم تركوا لأنفسهم ، لكانوا تجنبوا هذا الطريق كلية ، ولاتخذوا الطريق الطويل الآخر بالدوران شرق الأردن ، كما كان يفعل مواطنوهم، حتى لا يتأذوا برؤية السامريين . وفى إعتقادنا أن هذه القطيعة بين الجنسين كانت من العوامل التي ساقت التلميذين إلى العنف والقسوة فى طلب استنزال نار آكلة من السماء .

وثمة شىء آخر ساق التلميذين ، غير النفرة بين الجنسين، هو رضاء «الضمير». وهذا بيِّن من الطريقة التى قدما بها إقتراحهما ، وبالعلة التي تعللا بها : « يارب أتريد أن نقول ان تنزل نار من السماء فتفنيهم كما فعل إيليا أيضاً » ، كأن لا ريبة لديهما بأن سيدهما مبادر إلى تلبية النداء، ولهما أسوة فيما فعله ايليا الذى أبى أن يكون

له شأن مع ملك السامرة الوثنى ، فأنزل ناراً من السماء لتهلك رسله ، علامة على الغضب الإلهى . وأغلب الظن أن التلميذين فكرا فيا فعله ايليا من قبل ، واقتنعا بأن لا غبار على هذا المطلب ، ورضيا عن هذا العقاب صوناً لكرامة ربهما . وكما أن نبي النار فى القديم حنق على مسلك الملك أخزيا ، يوم أرسل رسلا إلى بعل زبوب ، إله عقرون ، ليسأل إن كان يبرأ من المرض الذى انتابه (٢ ملوك ١) ، كذلك حنق ابنا الرعد لأن أهل هذا الاقليم الشرير عينه ، الذى ملك عليه أخزيا فى القديم ، قد أهانوا سيدهم فى أنهم أبوا عليه فضلا، كان يُحسب لهم شرف ، ما بعده شرف .

وقد أحس التلميذان انهما على حق فى غضبتهما ، ولو كانا قد أعطيا الفرصة للدفاع عن موقفهما ، بعد أن عاتبهما يسوع عليه ، لما ترددا فى استنباط أدلة مقبولة ظاهرياً ... فمن كان أولئك السامريون ؟ هم من جنس مختلط ، يمت أصلهم إلى الاشوريين الوثنيين ، وهم فى أرض الوطن مظهر ذلة وعار ... كان آباؤهم أعداء الداء لليهودية فى أيام نحميا ، أعاقوا بسخرية واحتقار بناء أسوار صهيون ، عوضاً عن أن يمدوا يد العون لجيرانهم فى ساعة الشدة ، كما تقضى بذلك أصول حسن الجوار . وان حق لنا القول انه لا يجوز أن يتحمل الأحياء الآن ذنوب الأجيال الغابرة ، فما أخلاق هؤلاء المعاصرين ؟ أليسوا هم هراطقة مجدفين ، رفضوا كتب العهد القديم ، ماعدا أسفار موسى الخمسة ؟ ألم يعبدوا فوق جبل جرزيم ، فى هيكل منافس للهيكل المقدس فى المدينة المقدسة ؟ ثم ألم يشترك هؤلاء القرويون المعاصرون فى آثام أسلافهم ، اذ أساءوا إلى من هو أعظم من الهيكل ، إلى من تليق له العبادة والسجود ؟ فما العيب فى إنزال العقاب بأمثال هؤلاء . هذا كان منطق التلميذين !!

وفى كل أطوار التاريخ أحس المضطهدون القساة ، والغيورون الثائرون أنهم يخدمون الله فى تصرفاتهم ، كما أحس ذلك التلميذان . ومن طبيعة الغيرة المتقدة

أن تجمل من تعملكه ، يؤمن بأن القادر على كل شيء يزكي فعاله ، ويشاطره نزعاته العنيفة المتطرفة ، ويعتقد في نفسه أنه موكل بأن ينزل صواعق العلي العظيم على من يخالفونه في الرأى .

وحتى يسوع نفسه كانت له صواعقه ، ولكنه احتفظ بها لآخرين غير هؤلاء السامريين المتعصبين المساكين ذلك لأنه قد صوب سهام غيرته المتقدة نحو الكبائر ، والخطاة العتاة الأقوياء ، ذوى الجاه وسعة النفوذ ، وليس ضد التوافه والخطاة المساكين الأغبياء · ولقد انفجر مرجل غضبه يوم رأى بيت أبيه يتحول مغارة لصوص بأيدى أناس يفهمون ما هم فاعلون. ولكن قلبه تحنن على المرأة عند البئر التي فعلت ما فعلت عن جهل ، وتلمست الطريق نحو الله في ظلام أشبه بظلام الوثنية . ان غيرة يسوع تقصف الشجرة العاتية ، ولكنها تُبقى على النبتة الضعيفة ، لأنها غيرة رب الجنود ، وهي غيرة من النوع النادر .

ولم يدع السيد الفرصة تفلت منه دون أن يوبخ التلميذين ، لأن غيرتهما لم تكن خالصة ، بل قد امتزجت بعناصر الشهوات العالمية ، والغضب ، والكبرياء ، والتعصب القومى . ثم ان روحهما لم تكن مما يليق برسل الإنجيل ، الذين وكل اليهم المناداة بعصر جديد ، هو عصر النعمة والرحمة والعطف على أشقى الخطاة ، عصر المحبة التي تغلب الشر بالخير ، وتؤسس ملكوت الله من كل الأجناس والطبقات ، فلا يهودى ، ولا سامرى ، بل المسيح هو الكل وفي الكل .

أما القصة الثانية فقد دونها البشيران متى ومرقس :

« وفيما كان يسوع صاعداً إلى أورشليم أخذ الاثنى عشر تلميذاً على انفراد في الطريق وقال لهم : ها نحن ساعدون إلى أورشليم وابن الإنسان يسلم إلى رؤساء الكهنة والكتبة فيحكمون عليه بالموت . ويسلمونه إلى الأمم لكى يهزأوا به ويجلدوه ويصلبوه . وفي اليوم الثالث يقوم .

«حينئذ تقدمت إليه أم ابنى زبدى مع بنيها وسجدت وطلبت منه شيئا . فقال لها ماذا تريدين . قالت له قل ان يجلس ابناى هذان واحد عن يمينك والآخر عن اليسار فى ملكوتك . فأجاب يسوع وقال لستما تعلمان ما تطلبان . أتستطيعان أن تشربا الكأس التى سوف أشربها أنا وأن تصطبغا بالصبغة التى أصطبغ بها أنا . قالا له نستطيع . فقال لهما اما كأسى فتشربانها وبالصبغة التى أصطبغ بها أنا تصطبغان . وأما الجلوس عن يمينى وعن يسارى فليس لى أن أعطيه إلا للذين أعد لهم من أبى . فلما سمع العشرة اغتاظوا من أجل الأخوين . فدعاهم يسوع وقال أنتم تعلمون أن رؤساء الأمم يسودونهم والعظماء يتسلطون عليهم . فلا يكون هكذا فيكم . بل من أراد أن يكون فيكم عظيما فليكن لكم خادما . من أراد أن يكون فيكم أولا فليكن لكم عبداً ، كما أن ابن الإنسان لم يأت ليخدم بل ليخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين » .

(متى ٢٠ : ١٧ — ٢٨ وانظر مرقس ١٠ : ٣٢ — ٤٥)

وقد وقعت هذه الحادثة بينما كان يسوع وتلاميذه صاعدين إلى أورشليم للمرة الأخيرة ، عن طريق أريحا ، من افرايم فى البرية ، حيث كانوا قد خلوا إلى أنفسهم فترة من الزمن بعد اقامة لعازر (يوحنا ١١:٥٤) . فكأن الطلب الطموح الذى تقدم به ابنا زبدى للجلوس فى مكان الصدارة فى الملكوت العتيد ، قد تم قبل صلب سيدهم بنحو أسبوع أو يزيد قليلا . وكان يسوع — قبل التقدم بهذا الطلب — قد أنبأهم المرة الثالثة بما سوف يكون من أمر صلبه وآلامه ، مؤكداً لصحابته أنه سيتألم ويجلد ويصلب عند دخوله هذه المرة إلى أورشليم !!

على أن البشير لوقا يعلق على ذلك بقوله : «وأما هم (اى التلاميذ) فلم يفهموا من ذلك شيئاً ، وكان هذا الأمر مخفى عنهم ولم يعلموا ما قيل » (لوقا ١٨ : ٣٤). وهذا التعليق يبرز الموقف الذى وقفه ابنا الرعد . فبينما كان يسوع يتحدث عن آلامه المقبلة ، كان تلاميذه يفكرون فى أشياء أخرى ، كانوا يفكرون فى العروش

التي وعدوا بها ، وحفلت أخيلتهم بالآمال البراقة المنتظرة ، وثملت نفوسهم بنشوة الرجاء اللامع ، وظنوا وهم مقتربون إلى المدينة المقدسة «ان ملكوت الله عتيد أن يظهر في الحال » .

وبينما كان التلاميذ يفكرون في عروشهم ، اشتهى يعقوب ويوحنا أن يكون لهما عرشان إلى جانب الملك صاحب العرش الأعظم ... هذان هما التلميذان اللذان تميزا في المشهد السابق بالاستياء والاشمئزاز من جفوة القرويين السامريين . ان أشد الاثنى عشر غيرة ، هم الآن أشدهم طمعاً واشتهاء ، وليس هذا بغريب على الطبيعة البشرية . ففي الأولى يطلبان ناراً من السماء تهلك خصومهما ، وهاهما يطلبان الآن من السماء فضلا على حساب أصحابهما وزملائهما . وليس بين الطلبين فارق كبير في المعنى !!

وفي حبك هذه المكيدة الصغيرة ، يستعين الاخوان بأمهما . ولسنا ندري علة وجودها معهم في هذه الرحلة إلا إذا افترضنا أنها كانت من تابعات يسوع بعد ترملها ، أو أنها التقت بهم عرضا عند مفترق احدى الطرق الصاعدة إلى أورشليم. وكانت سالومة الأم ، صاحبة الدور الأكبر ، في هذا المشهد ، وقد أجادت في تمثيل دورها . ذلك لأنها سجدت أمام يسوع — كأنها تقدم التحية لملك عظيم — والتمست منه أن يأذن لها بتقديم طلب متواضع ، وقالت : « قل أن يجلس ابناى هذان واحد عن يمينك والآخر عن اليسار في ملكوتك » .

وإنا لندهش أن نرى مثل هذه الروح العالمية في جيرة يسوع ، ولكن ينبغي أن نذكر أن روح العالم طغت في أكثر العصور على الأوساط الدينية ذات الكرامة والجاه ، والغيرة ، والولاء . ثم ينبغي ألا ننسى أن التلاميذ ومن اليهم كانوا بعد مسيحيين في حالة غشيمة لم تبلغ طور الإدراك الكامل ، ومع هذا فإنا لا نقدر أن ننكر أن الطلب دل على الحماقة والجهل ، والجرأة والكبرياء .

جرأة وكبرياء ، لأنه انطوى على تسخير سيدهما ليكون أداة لإشباع أطماعهما

وغرورها . وقد تخيل الأخوان أن السيد سيرضخ للرجاء ، وخاصة إذا تقدم من امرأة ، ومن امرأة أرملة تمت له بصلة القرابة ، قد أدت له خدمات جليلة يذكرها بلا شك ، بالشكر وعرفان الجميل . على أنهما قد نسيا أن مطلبهما هذا يسيء إلى أخلاق ربهما وصفاته وتعاليمه التي علمهما اياها عن التواضع فى بيت كفرناحوم . لقد كانا فى مطلبهما جريئين فى غير الحق ، متجنيين فى طمع وغرور ، مجردين عن اللياقة ورعاية إحساس الآخرين .

وحماقة وجهل ، ذلك لأن فكرتهما عن الملكوت بعدت عن الحق والواقع . فهما تصورا الملكوت العتيد نظاماً من أنظمة العالم ، بل نظاماً من النوع الفاسد الذى تمنح فيه الوظائف العليا بالوساطة والمحسوبية والقرابة ، لا بالمؤهلات والكفاية . تصور الأخوان أن الترقية فى وظائف الملك الثالى الإلهى ستخضع لأساليب لا ترضاها النظم العالمية الصالحة ! حماقة وجهل واساءة إلى الملك الذى صورته أطماعهما حاكماً مستبداً تغريه أسباب الملق ، وتسترضيه عوامل المداجاة .

وكان مطلب الأخوين أنانياً غير كريم بالنسبة لزملائهما ، ذلك لأنه انطوى على الصعود فوق أكتافهم وعلى حسابهم . وحق للآخرين أن يستاءوا فإنه لما « سمع العشرة اغتاظوا من أجل الأخوين » وإن كان يعقوب ويوحنا لم يقدرا مثل هذه النتيجة فهذا دليل على أنهما كان محولين بأفكار أنانية ، أما إن كانا قد قدراها ولم يتورعا عن إعثار الزملاء فهذا أدهى وأمر ، لأنه دليل الأنانية التى لا قلب لها ، والتى لا يلتمس لها عذر .

أما جواب السيد على هذا الطلب ، فقد كان معتدلا خلواً من العذل والتوبيخ . وقد تجاوز عن السيئات الكبرى التى انطوى عليها الاقتراح واقتصر على أهونها شأناً — وهو جهلهم : « لستما تعلمان ما تطلبان » . وكأنما يشفق على الأخوين اللذين يطلبان ما يجهلان فيسألهما : « أتستطيعان أن تشربا الكأس التى سوف أشربها أنا ، وأن تصطبغا بالصبغة التى أصطبغ بها أنا » .

وبأسلوب استفهامى يعلم يسوع تلاميذه أن الارتقاء فى ملكوته لا يتم عن طريق المحسوبية ، ولا عن طريق الشفاعـــة والوساطة، بل عن طريق الآلام طريق الصليب . أما الذين يأبون أن يجرعوا كأس الألم ، أما الأنانيون الطامعون المترون ،فليس لهم فى هذا الملكوت مكان ،لا عن اليمين ولا عن اليسار . . .

ومن الغريب ان الاخوين لم يؤخذا على غرة بهذا السؤال فأجابا فوراً ، وبدون تردد : « نستطيع » . وترى هل فهما « معنى الكأس » و « الصبغة » وفكرا فى الأمر ملياً وقدرا النفقة ؟ هل تضرمت فى قلبيهما وقتئذ نار الاستشهاد المقدسة ؟ كنا نود أن يكون الأمر كذلك ،ولكن نخشى أن يكون غير ذلك. والمرجح أن الأخوين رغبة منهما فى الحصول على ما يشتهيان كانا متأهبين أن يقطعا على نفسيهما عهوداً دون تقدير العواقب .وهذا الاقرار السريع الذى يقدمانه يماثل فى لهجته واندفاعه « الجدعنة » ، أو الشجاعة الظاهرية التى أبداها بطرس قبل أيام قلال فى قوله « إن شك الجميع فأنا لا أشك » .

على أن يسوع لم يصدم الأخوين كما صدم بطرس من قبل ،ولم يشك فى شجاعتهما وبطولتهما بل أيد لهما هذا الإقرار : « أما كأسى فتشربانها وبالصبغة التى أصطبغ بها أنا تصطبغان » • ولم يكن يسوع يسخر من تلميذيه ،بل كان جاداً فى قولته. وأنه لفضل عميم أسبغه عليهما !! وقد أحس يعقوب بهذا الفضل يوم جز عنقه سيف هيرودس ، كما أحس به يوحنا يوم نفى إلى جزيرة بطمس من أجل كلمة الله والشهادة بيسوع المسيح .

* * *

وبعد كل هذا لا يليق بنا أن نجاوز فى لوم التلميذين حد الاعتدال . فلعل لهما عذراً ونحن نلوم .فقد كانت تلك أياماً سوداء تحدث فيها المسيح عن موته العتيد وآلامه ،فبلبل أفكار التلاميذ، وكان قد قال لهم من قبل « متى جلس ابن

الإنسان على كرسي مجده ، تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسياً تدينون أسباط اسرائيل الاثني عشر » . وقد اختلطت عليهم المعاني ، ولم يقدروا أن يميزوا بين الروحيات والدنيويات لضعف طبائعهم البشرية . . .

* * *

ويعقوب هذا الذي اشتهى أن يكون له عرش إلى جانب الملك ، وأن يجلس على كرسي الدينونة ، كان أسبق الرسل إلى الاستشهاد ، إذ يقول السفر المقدس « وفي ذلك الوقت[1] مدّ هيرودس الملك يديه ليسيء إلى أناس من الكنيسة ، فقتل يعقوب أخا يوحنا بالسيف » (أعمال ١٢ : ١) . ويقول التقليد ان هيرودس أغريباس هو الذي قطع رأسه سنة ٤٤ م لأنه كان يناصبه العداء ، ولأنه رغب في اكتساب رضاء اليهود .

ويقول اكليمندس الاسكندري في الكتاب السابع من مؤلفه « وصف المناظر » ، ان الإنسان الذي اشتكى على يعقوب واقتاده إلى محلّة الإعدام بالسيف تأثر حين رأى قوة ايمانه ورباطة جأشه ، وتاب واستغفر ، واعترف بأنه مسيحي . فقبّله يعقوب وقال له « السلام عليك » ، وقطع الجلاد رأسي الاثنين معاً .

---

(١) أي زمن الإمبراطور كلوديوس وكان قد خلف ابن أخيه كايوس في ٢٤ يناير سنة ٤١ م .

الفصل السابع

اندراوس

«وفى الغد أيضاً كان يوحنا واقفاً هو واثنان من تلاميذه فنظر إلى يسوع ماشياً، فقال هوذا حمل الله . فسمعه التلميذان يتكلم فتبعا يسوع . فالتفت يسوع ونظرهما يتبعان فقال لهما ماذا تطلبان . فقالا ربى الذى تفسيره يا معلم اين تمكث . فقال لهما تعاليا وانظرا . فأتيا ونظرا اين كان يمكث ومكثا عنده ذلك اليوم . كان نحو الساعة العاشرة . كان اندراوس اخو سمعان بطرس واحداً من الاثنين اللذين سمعا يوحنا وتبعاه . هذا وجد أولا اخاه سمعان فقال له قد وجدنا مسيا ، الذى تفسيره المسيح فجاء به إلى يسوع . فنظر اليه يسوع وقال انت سمعان بن يونا . انت تدعى صفا الذى تفسيره بطرس » . (يوحنا ١ : ٣٥ — ٤٢)

«وفيما هو يمشى عند بحر الجليل ابصر سمعان واندراوس أخاه يلقيان شبكة فى البحر . فإنهما كانا صيادين . فقال لهما يسوع ، هلم ورائى فأجعلكما تصيران صيادى الناس . فللوقت تركا شباكهما وتبعاه » . (مرقس ١ : ١٦ — ١٨)

« ثم صعد إلى الجبل ودعا الذين أرادهم فذهبوا اليه وأقام اثنى عشر ليكونوا معه وليرسلهم ليكرزوا . ويكون لهم سلطان على شفاء الأمراض وإخراج الشياطين وجعل لسمعان اسم بطرس ويعقوب بن زبدى ويوحنا أخا يعقوب وجعل لهما اسم بوانرجس أى ابنى الرعد . واندراوس وفيلبس وبرثولماوس ومتى وتوما ويعقوب بن حلفى وتداوس وسمعان القانوى ويهوذا الاسخريوطى الذى اسلمه . ثم اتوا إلى بيت » . (مرقس ٣ : ١٣ — ١٩)

« قال له واحد من تلاميذه وهو اندراوس أخو سمعان بطرس ، هنا غلام معه خمسة أرغفة شعير وسمكتان ولكن ما هذا لمثل هؤلاء » . (يوحنا ٦ : ٨ و ٩)

« وكان اناس يونانيون من الذين صعدوا ليسجدوا في العيد ، فتقدم هؤلاء إلى فيلبس الذي من بيت صيد الجليل ، وسألوه قائلين ياسيد نريد أن نرى يسوع ، فأتى فيلبس وقال لاندراوس ثم قال اندراوس وفيلبس ليسوع » (يوحنا ١٢ : ٢٠ — ٢٢)

« وفيما هو جالس على جبل الزيتون تجاه الهيكل سأله بطرس ويعقوب ويوحنا واندراوس على انفراد ، قل لنا متى يكون هذا وما هي العلامة عند ما يتم جميع هذا » . (مرقس ١٣ : ٣ و ٤)

« حينئذ رجعوا إلى اورشليم من الجبل الذي يدعى جبل الزيتون الذي هو بالقرب من اورشليم على سفر سبت . ولما دخلوا صعدوا إلى العلية التي كانوا يقيمون فيها بطرس ويعقوب ويوحنا واندراوس وفيلبس وتوما وبرثولماوس ومتى ويعقوب بن حلفي وسمعان الغيور ويهوذا أخو يعقوب » . (اعمال ١ : ١٢ و ١٣)

« وسور المدينة كان له اثنا عشر اساساً وعليها اسماء رسل الحمل الاثنى عشر » . (رؤيا ٢١ : ١٤)

جاء اسم اندراوس ثماني مرات في أسفار الانجيل ، وهي الآيات التي صدرنا بها هذا البحث . فأول لقاء له بيسوع سجله البشير يوحنا في الفصل الأول . ودعوته ليترك شباك الصيد جاءت في بشارة مرقس بعد سنة على الأقل من اللقاء الأول . وذكر اسمه المرة الثالثة بين قائمة الرسل يوم اختار يسوع الذين أرادهم وعند إجراء معجزة إشباع الخمسة آلاف ، كان هو الذي أرشد الى الغلام الذي بيده الأرغفة

والسمكتان ثم يذكر اسمه مرة أخرى يوم أقبل إليه فيلبس يلتمس نصحه فى طلب اليونانيين أن يروا يسوع . ومرة سادسة نراه يوم جلس يسوع فوق جبل الزيتون قبالة الهيكل ، وتقدم إليه بطرس ويوحنا ويعقوب واندرواس ليسألوه عن معنى بعض أقواله . ويُذكر اسمه مرة سابعة فى سفر الأعمال يوم صعد الرسل إلى العلية التى كانوا يقيمون فيها ، وكان مع الصحابة الرسولية فى الهيكل . وفى سفر الرؤيا نحسبه واحداً من الاثنى عشر ـ دون أن يذكر اسمه بالذات ـ الذين نقشت اسماؤهم على أساسات مدينة الله .

هذه كل المعلومات التى نعرفها عنه فى الإنجيل . وفى ضوء هذه الحوادث نحاول الآن أن نرى الرجل . و «اندراوس» كلمة يونانية معناها «الرجل القوى» . ونحن نعرف اسم أبيه بطريقة غير مباشرة لأنه كان أخو سمعان بن يونا . ويبين أنه لم يكن إنساناً ذا حيثية فى رأى الذين اتصلوا به . وحتى يوحنا حين أراد أن يصف قصة اللقاء الأول مع يسوع ، وقبل أن يذكر اسم سمعان ، يقدم لنا اندراوس بوصفه أخى بطرس ، ويشير إليه فى أكثر الحالات بهذا الوصف . والناس الذين يعرفون بما لهم من علاقة أو صلة بآخرين ، يكونون عادة خاملين ، تنقصهم المؤهلات الشخصية التى ترفعهم أمام أعين الناس .

والذى نعرفه عن اندراوس هذا ، قبل كل شىء ، أنه كان من تلاميذ يوحنا المعمدان ، ومن الفئة المختارة من تلاميذه . وفى هذا دلالة على أن الرجل كان ممن أحسوا بوطأة الخطية ، وبقوة أثرها وشدة سطوتها ، فى ذلك العصر ، فى نفسه وفى غيره . وكان أيضاً ممن أحسوا بحاجتهم إلى التوبة . وأكبر الظن أنه تعمد فى مياه نهر الأردن ، علامة على إعترافه بخطاياه ، ورغبته فى الغفران والتجديد .

ثم أنه كتلميذ ليوحنا المعمدان ، كان من طلاب ملكوت الله ، لأن يوحنا جعل شعار دعوته « توبوا لأنه قد إقترب ملكوت السموات » . وقد سمع اندراوس هذه الدعوة ، وكان لها من الملبين .

فضلا عن هذا ، كانت رسالة المعمدان تشمل المناداة بمجيء آخر بعده ، يحمل معه الخلاص وفي يده رفش ونار ، فيجمع الحنطة ، ويحرق التوافه بالنار ، في الشئون البشرية ، ويخفض الجبال الرواسي ، ويرفع الأودية السحيقة ، فتزول الفوارق بين الناس وتنعدم عدم المساواة من ثم كان اندراوس — كتلميذ للمعمدان — عائشاً في جو الانتظار ، يترقب مجيء من سيقيم دعائم هذا الملك السعيد والمرء يعرف بأقرانه وخلانه ، فمن كانوا أصدقاء اندراوس؟ كان المعمدان أحدهم ، وكان يوحنا الرسول آخر . ومن المسلم به أن التلميذ الآخر الذي كان مع اندراوس في اللقاء الأول هو يوحنا . من ثم يكون بين خلانه الأقربين ، انسان متقشف زاهد ، صارم في نفسه وفي أخلاقه — وانسان حالم مفكر ، شاعر ورائي . كذلك كان فيلبس صديقا له ، وهو الهادىء المتعبد ، الرجل الذي قد نحسبه أقل تأثيراً وجاذبية من اندراوس ذاته . ثم كان هناك أخوه سمعان بطرس .

وفي أضواء هذه الحقائق ، من كان اندراوس ؟ أراه قبل كل شيء رجلا قويا فريداً في قوته . فاسمه في الأصل معناه « رجل » . ولعله قد سمي بهذا الاسم لما توسمه فيه أهله من أمارات الرجولة ، كما سمي موسى من قبل . وشب الغلام دائباً على أن يحقق هذه التسمية في رجولته وحياته . وقد رسم أحد الفنانين صورة محببة ، صور فيها سمعان ويوحنا يركضان نحو القبر في صباح القيامة . وقد صور سمعان رجلا خشنا قوي العضل ، شعث الشعر ، جريئا مقداما . ولعل شبها كان بين الأخ وأخيه !

ثم أن أندراوس قد امتاز بشجاعته الأدبية وبعد نظرة واسعة الافق ، ذلك لأنه بادر توا في ساعة حرجة إلى ترك المعمدان المنادي والسير وراء يسوع . وإذ نتعقب خطاه المحاذرة الهادئة في سيره وراء يسوع ، نراه لا يبدأ بالكلام حتى يسأل واذ يبتدره السيد الجديد بقوله له ولزميله الآخر : « ماذا تطلبان » يجيب على الفور « ربي » الذي تفسيره يا معلم . ولم يكن يسوع معلما حسب تقدير ذلك الزمن بل

كان قرويا جليليا ،ومع ذلك يدعوه اندراوس « يامعلم» متأثراً بما سمعه عنه من يوحنا ومسوقا إلى ذلك بهاتف داخلى .

وهو محاذر لبق فى اجابته : « ربى ، أين تمكث ؟ » فكأنه أجاب سؤالا بسؤال آخر يبدو لنا لأول وهلة أنه لايمت بصلة للسؤال الأصلى . وأغلب الظن أن المريد الجديد قد أدرك فوراً أهمية السؤال وتلعثم فى الإجابة عنه ارتجالا فأراد أن يفسح له الوقت ، وتعطى له فرصة للتحدث إلى يسوع ، والبقاء معه طويلا ، لأن حديث الطريق عابر لايهيىء الهدوء والتأمل .

وترى كيف واجه ربنا هذا الطالب ؟ لسنا أمام رجل فاسق فاجر أساء إلى حياته بالسلوك فى طرق الغواية والضلال، وإن كان فى حياته شىء من مثل هذا من قبل فهو قد تاب وأناب واعترف بخطاياه وغسلها بماء الأردن ، وثبت وجهه نحو البر ،طالبا ملكوت الله .فمنذ البداية نرى فى اندراوس انسانا مستغفراً تائبا ساعيًا وراء ملكوت الله مترقبا مجىء المنقذ الموعود .

فلمَ إذاً يسأله السيد هذا السؤال : « ماذا تطلبان » . لم يسأله من يطلب فالأمر واضح لايحتاج إلى بيان . انما سأله عن الباعث الدافع له للسير وراءه .وغريب أن تكون هذه هى الكلمات الأولى التى نطق بها يسوع فى خدمته العامة بعد المعمودية. انه سؤال يسبر أغوار الشخصية ويجس النبض فى أعماقها يبدو فى ظاهره سؤالا طارداً ولكنه فى الواقع سؤال مرحب وكان اندراوس قد رأى يسوع قبل ستة أسابيع عند معموديته. وبالأمس سمع يوحنا ينادى به « حمل الله الذى يرفع خطية العالمين » .وقد اعتزم هذا الطالب أن يتبع هذا المعلم الجديد ولكن هاهوذا يصدمه بسؤال غريب : « ماذا تطلب ولماذا أنت تتبعنى ؟ » لقد قال عنه يوحنا انه يأتى ورفشه فى يده ،وهو الآن يحمل ذلك الرفش لينقى به نفس انسان ويطرد منها توافه الأشياء ،لتقف عارية أمام حقائق الحياة . واحسب اندراوس قد فهم القصد ،وأدرك مغزى السؤال ، فطلب مهلة « أين تمكث يامعلم ؟ » .

وأهمية هذا السؤال لا تخفى على أحد . فإذا نحن وقفنا ، وسمعنا للسيد أن يسألنا « ماذا تطلبون » ، فإننا لا محالة واجدون طريق الحياة ومصدر الإلهام . لقد قدم اندراوس من بلد بعيد ، وسمع المعمدان وتأثر به وأطاعه ، وخرج من لدنه طالباً ملكوت الله . قد اعترف بخطاياه ، وتاق أن يخلص من كل آثارها ونتائجها . سمع المعمدان يقول « هذا هو حمل الله الذى يرفع خطية العالم » ، والآن يسأل هذا السؤال . فلما أراد أن يعرف محل الإقامة قيل له ولزميله « تعاليا وانظرا ! » . ومضمر فى هاتين الكلمتين أكثر مما طلب اندراوس أن يعرف ، لأنهما تحملان اشباعاً لما يحس به الطالب من ظمأ إلى المعرفة — « تعاليا وانظرا ! »

« فأتيا ونظرا ... ومكثا عنده ذلك اليوم وكان نحو الساعة العاشرة » . ولسنا ندرى أيشير البشير هنا إلى الطريقة العبرية فى تحديد الزمن أم إلى الطريقة الرومانية . فإن كانت العبرية ، يكون اللقاء قد تم بعد الظهر ، ويكونان قد مكثا معه إلى مغيب الشمس . أما إن كانت الطريقة الرومانية ، فإن اللقاء يكون قد تم فى العاشرة صباحاً ، وبقى يسوع معهما اليوم كله . وكم كنا نود أن نعرف شيئاً من أطراف ذلك الحديث الذى استغرق ساعات طوالا ، ولكننا نعرف شيئاً واحداً وهو أن اندراوس يهرع بعد خاتمة الحديث إلى أخيه سمعان ويقول له : قد وجدنا مسيا .

قلنا انه ليس لدينا بيان عما دار من حديث بين السيد والطالب الجديد ، على أنه يمكن القول ان اندراوس تحدث عن الحيرة التى تنتاب عصره وقومه كما يراها المعمدان ، وعن رأى السيد فى هذه الحيرة الضاربة أطنابها . وسأله عن مغزى الأقوال التى ينادى بها المعمدان عنه ، وخاصة « هو ذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم » . كل هذا حدس وتخمين ، ولكن الأمر الموثوق به أنه اقتنع بعد الحديث بأنه وجد المسيا . وبروح الوقار نذهب فى الحدس والتخمين إلى أن السيد أبرز لاندراوس الفكرة الأساسية التى تضمنها قوله فيما بعد : « أطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم » .

« ماذا تطلبان ؟ » كلمة قالها المسيح فى الطريق العام . وفيما بعد نسمعه يقول: « أطلبوا أولا ملكوت الله » . والكلمة « أطلبوا » تعنى البحث عن شيء خفى مفقود . ومرة أخرى يقول هذه الكلمة عينها « أطلبوا تجدوا » . ثم يكررها فى الاعلان عن نفسه : « ابن الإنسان جاء ليطلب ويخلص ما قد هلك » .

وكان « مسيا » الذى وجده اندراوس — على مقتضى النبوات التى أنبأت عنه — يجمع فى شخصه وظيفتى الكهنوت والملكية وسلطة الملك مستمدة من عمله الفدائى الشفاعى ككاهن . وأغلب الظن أن اندراوس لم يكن قد فهم غير هذا المعنى حين قال إنه وجد المسيا ، لأن ثلاث سنوات تنقضى بعد هذا التاريخ قبل أن يعلن أخوه اعترافه الخطير عن المسيح . ومهما يكن من أمره ، فحسبه أن وجد فى ذلك اليوم مسيا ، ملكه ، وكاهنه ، الذى يشبع أشواق نفسه إلى غفران الخطايا .

وعلى الفور يصير اندراوس مرسلا ، وترجم اقتناعه الداخلى إلى عمل إيجابى . فأسرع ودعا أخاه . ومحال أن تجد المسيح وتعرفه حق المعرفة ، وتبقى أنانياً . محال أن تؤمن به حقاً ، ولا تدعو الناس إلى محبته وغفرانه . وهنا سر قوة الكنيسة المسيحية ، ومصدر انتشارها .

وبعد هذا اللقاء الأول ، تسير قصة هذا التلميذ فى مجراها . فيدعى مع الآخرين ليكون تلميذاً ، ثم ليكون رسولا . ونرى لمحات منه فى مناسبات مختلفة ... نراه يوم إشباع الخمسة آلاف ، يوم راح فيلبس المحاسب الحريص يقدر النفقة ، أما اندراوس فيخطو خطوة أبعد ، ويشير إلى الغلام الذى كان حاضرا ومعه خمسة أرغفة شعير وسمكتان . ومع أنه أبدى شيئاً من مغامرة الإيمان فى هذا الصنيع ، إلا أنه كان متردداً ، بل يائسا ، فقال « ولكن ما هذا لمثل هؤلاء » ولكنه عرف بعدئذ أن التافه الضئيل بين يدى سيده ، يغدو خيرا كثيرا .

ونراه مرة أخرى يوم انطلق إليه فيلبس ليستشيره فى أمر اليونانيين الذين أرادوا

أن يروا يسوع ، ويحقّ لنا القول هنا ان الكلمة الأولى التى سمعها — يوم اللقاء الأول — « تعاليا وانظرا » قد لعلعت فى مخيلته الآن، فأحبّ أن يأخذ اليونانيين الطالبين « ليروا هم أيضاً وينظروا » .

واللمحة التاريخية الأخيرة نراها فى سفر الأعمال . وهو هناك لا يتكلم ، ولا يخطب ، ولا يطلب أحداً من الناس . ولكنه يستمع فقط إلى أخيه ، ويرى بعينيه مجىء ثلاثة آلاف إلى ملكوت الله .

وآخر مكان نرى فيه اسم اندراوس هو أساسات مدينة الله ، التى ورد ذكرها فى سفر الرؤيا . وأنها لفكرة خيالية شعرية ، ولكنها مليئة بالمعنى العميق . وإذ تنظر إلى أحجار أساسات مدينة العلى ، لا ترى اسم سمعان منقوشاً على حجر يمتاز عن حجر اندراوس فى طبيعته أو فى شكله . أهذا لغو فى الكلام ونافلة من القول ؟ ! إن كنت تحسب ، أيها القارىء ، هذه الفكرة بليدة سخيفة ، فاذكر أن بناء مدينة الله لا يتم بمهارة البنائين وحذقهم ، بل بإخلاصهم وولائهم .

وكلمة أخيرة : ان التلميذ الأول لم يكن بطرس ، بل اندراوس . وما زال ربنا فى حاجة قصوى إلى مثل هذا التلميذ الهادىء ، القوىّ ، الذى يرضى أن يبقى دائماً وراء الستار . وبهذا لا أغمط بطرس حقه ، ولا أقلل من شأنه ، ولا أبخس حق إنسان تختاره العناية أن يكون فى المقدمة من المبرزين الذين تتغنى الدنيا بأسمائهم ، وتشيد بأعمالهم . إنما أردت أن أقول انه لو اقتصر ملكوت الله على من نسميهم قادة وزعماء ، فإنه يصاب بالعطب لا محالة . وفى الملكوت متسع دائماً لأمثال اندراوس ، من الحاذرين ، الأمناء المخلصين ..

* * *

ويقول التقليد ان القرعة وقعت عليه لكى ينطلق إلى مدينة اللدّ بفلسطين ، وإلى بلاد الأكراد . وذهب إلى مدينة اللدّ ومعه تلميذه فليمون وكان رخيم الصوت

حسن المنطق ، ذلق اللسان ، حلو الحديث . ووجدا أن أكثر أهل المدينة كانوا قد آمنوا على يدى بطرس ، وشيّدوا لهم كنيسة فى مدينتهم . فأمر اندراوس تلميذه أن يصعد فوق المنبر ويقرأ للشعب . ولما سمع كهنة الأوثان بمجىء اندراوس الرسول، حملوا حرابهم وأتوا إلى الكنيسة ووقفوا خارجاً ليسمعوه ان كان يطعن فى آلهتهم ، وهناك سمعوا التلميذ يقرأ من المزامير :

« أصنامهم فضة وذهب ، عمل على أيدى الناس . لها أفواه ولا تتكلم. لها أعين ولا تبصر . لها آذان ولا تسمع . لها مناخر ولا تشم .. لها أيد ولا تلمس . لها أرجل ولا تمشى . ولا تنطق بحناجرها . مثلها يكون صانعوها بل كل من يتكل عليها ».

وقد أثرت رخامة صوت القارىء فى أولئك الكهنة ، ولانت قلوبهم ، ومالت إليه جوارحهم ، ودخلوا الكنيسة وخروا عند قدمى الرسول ، وآمنوا بالمسيح ، فعمّدهم وكل من بقى فى المدينة من عبدة الأوثان .

ثم خرج الرسول من اللدّ وانطلق إلى بلاد الأكراد ومدن أكسيس وأرجناس وأسينوس ، وكان قد مضى مع برثولماوس قبل ذلك إلى مدينة عازرينوس ، وكان أهلها أشراراً لا يعرفون الله . وأخذ الرسولان يعلّمانهم ويبشرانهم حتى اهتدى إلى الله خلق كثير منهم . وأما الذين لم يؤمنوا فقد تآمروا عليه وأرسلوا إليه يستدعونه ، حتى إذا أقبل إليهم يقتلونه . على أنه لما رأى الرسل الموفدون إشراقة وجهه النورانى ، وبسماته الحلوة ، ومنطقه العذب ، أصغوا إلى تعاليمه ، وآمنوا بالمسيح ، ولم يعودوا إلى سادتهم الذين أرسلوهم .

حينئذ عزم غير المؤمنين أن يذهبوا إليه ويحرقوه بأيديهم . وتقول الرواية انهم لما اجتمعوا حوله لتنفيذ فعلتهم ، ركع وصلّى لله كثيراً ، ورأوا ناراً تسقط من السماء ، فخافوا وآمنوا .

وشاع اسم الرسول فى تلك البلاد ، وآمن على يديه كثيرون، على أن كهنة

الأوثان لم يكفّوا عن طلبه للانتقام منه ، فذهبوا إليه وأوثقوه وضربوه ضرباً وجيعاً ، وبعد أن طافوا به المدينة عرياناً ألقوه في السجن ، حتى يصلبوه في الغداة. وكان من عادتهم إذا قتلوا أحدا صلباً رجمونه أيضاً . فقضى الرسول ليلته يصلّي إلى الله ، فظهر له المسيح وقوّاه قائلا : لا تقلق ولا تضجر ، ولا يضطرب قلبك. قد آن أوان انطلاقك من هذا العالم . فابتهجت نفس التلميذ بهذه الرؤيا .

ولما كان الغد أخذوه وصلبوه على خشبة ، وهي صليب مخصوص يدعى صليب مار اندراوس ، ورجموه بالحجارة حتى مات . فأتى قوم من المؤمنين وحملوا جسده ودفنوه في قبر خاص .

الفصل الثامن

فيلبس

« في الغد أراد يسوع أن يخرج إلى الجليل . فوجد فيلبس فقال له اتبعني . وكان فيلبس من بيت صيدا من مدينة اندراوس وبطرس . وبطرس وجد نثنائيل وقال له وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة . فقال له نثنائيل أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح . قال له فيلبس تعال وانظر ». (يوحنا ١ : ٤٣ — ٤٦)

« فرفع يسوع عينيه ونظر أن جمعاً كثيراً مقبل إليه فقال لفيلبس من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء . وإنما قال هذا ليمتحنه لأنه هو علم ماهو مزمع أن يفعل . أجابه فيلبس لا يكفيهم خبز بمئتي دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً »

(يوحنا ٦ : ٥ — ٧)

« وكان أناس يونانيون من الذين صعدوا ليسجدوا في العيد . فتقدم هؤلاء إلى فيلبس الذي من بيت صيدا الجليل وسألوه قائلين ياسيد نريد أن نرى يسوع . فأتى فيلبس وقال لاندراوس ثم قال اندراوس وفيلبس ليسوع . وأما يسوع فأجابهما قائلا قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان . الحق الحق أقول لكم إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها . ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير »

(يوحنا ١٢ : ٢٠ — ٢٤)

« لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً . ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه قال له فيلبس أرنا الآب وكفانا . قال له يسوع أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يافيلبس . الذي رآني فقد رأى الآب ، فكيف تقول أنت أرنا الآب . ألست

تؤمن أنى أنا فى الآب والآب فىَّ . الكلام الذى أكلمكم به لست أتكلم من نفسى . لكن الآب الحالّ فىَّ هو يعمل الأعمال » . (يوحنا ١٤ : ٧ — ١٠)

لا تخلو قصة هذا التلميذ من اللذة والإمتاع ، لأنه فى موقف فريد يختلف عن سائر زملائه ، لذلك نرى المسيح يقف منه موقفاً خاصاً ، ويعامله بطريقة خاصة. ومما لا يخلو من مغزى أن نجد كلَّ ما قيل عن فيلبس فى بشارة يوحنا فقط دون البشائر الأخرى . وقد ذكره كل من متى ومرقس ولوقا فى قائمة الرسل ، ولكنهم لم يقولوا كلمة واحدة عنه . وكل دليل يُستفاد من الصمت يؤخذ عادة بحرص وفى تردد كثير . وقد قلنا من قبل ان كتّاب البشائر لم يُعنوا بكتابة سير التلاميذ ، بل قد حدّقوا بأبصارهم فى « شمس البر » فقط ، وفى ضيائه الباهر غشيت عيونهم عن رؤية تلك الأنجم الصغرى الدائرة حوله . على أن هذا لا يمنعنا من القول ان البشيرين الثلاثة ربما اكتفوا بذكر اسم فيلبس — دون أى شىء آخر عنه — لأنه كان فى نظرهم قليل الشأن . ولعلّهم تساءلوا فيما بينهم عن علّة اختياره ، لأنهم رأوا إنساناً ضعيف الأثر ، لا جاذبية فيه .

ولكن يوحنا نظر إلى الرجل بعينى سيّده ، وقد عرف أنه موضع اهتمام وعناية . لذلك نراه يشير إليه فى الآيات التى صدرّنا بها هذا الفصل . و« فيلبس » كلمة يونانية معناها « الرجل الفارس » . ويؤخذ من قصة الأنجيل ، أن فيلبس هو أول شخص دعاه المسيح بالذات بقولة « اتبعنى » . فالثلاثة الآخرون — اندراوس ويوحنا وبطرس — وجدوا المسيح ، لكن فيلبس قد وجده المسيح . ولم تكن دعوته ارتجالا ، بل كانت نتيجة تدبير وتفكير سابقين : « فى الغد أراد يسوع أن يخرج إلى الجليل » .

وبعد دعوة فيلبس ينطلق تواً إلى صديقه نثنائيل قائلا : « وجدنا الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء » . ثم يختفى فيلبس بعد دعوته ، ولا نسمع عنه شيئاً

في تسلسل الحوادث إلا بعد انقضاء سنة على الأقل ، يوم احتشدت الجماهير حول يسوع ، فالتفت إلى فيلبس وقال :

« من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء » ؟

والأرجح أن التلاميذ كلهم كانوا هناك ، ولسنا ندرى لماذا وجّه يسوع إلى فيلبس هذا السؤال دون سائر تلاميذه . ويصح القول ان جواب فيلبس كان بمثابة احتجاج ، وكأنما أراد أن يقول لسيده : ما الفائدة من السؤال عن المكان الذى نبتاع منه الخبز ، وليس لدينا من المال مايكفى لهذا الحشد الهائل :

« لا يكفيهم خبز بمئتى دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً » . على أن المسيح لم يجب على هذا الاحتجاج بالقول ، بل أجاب بإطعامه الخمسة آلاف دون أن يذكر شيئاً عن المئتى دينار .

ثم نرى فيلبس مرة أخرى فى الأيام الأخيرة فى أورشليم ، يوم تقدم إليه نفر من اليونان الدخلاء ، الذين كانوا يقضون أيام العيد فى فناء الهيكل الخارجى المعروف « بدار الأمم » ، وطلبوا أن يروا يسوع . قد سئمت نفوس اليونان هذا الاستكبار والاستعلاء من جانب اليهود الذين رمقوهم شذرا ، وتاقت إلى رؤية هذا النبى العجيب الذى أملوا أن يردّ لهم حقوقهم المهضومة . ولأنهم كانوا من الدخلاء تهيبوا أن يتقدموا بأشخاصهم إلى هذا النبى اليهودى ، فوسّطوا أحد تلاميذه « فيلبس » ، وذلك لأن فيه عنصراً يونانياً ، كما يستفاد من اسمه اليونانى . أما سائر الرسل — ماعدا اندراوس — فقد كانت أسماؤهم يهودية .

ولم يدر فيلبس ماذا عساه أن يفعل ، ولم يأنس فى نفسه الشجاعة ليتقدم بهم إلى المسيح ، لذلك استأنس أيضا برأى اندراوس ، وهو أيضا يونانى الأسم . وإذ ينطلق الاثنان ليخبرا السيد بهذا الطلب ، يتلقيان منه ذلك الجواب العجيب الذى أثبته يوحنا البشير .

وكان فيلبس من « بيت صيدا » الجليل ، مدينة أندراوس وبطرس ، والأرجح

انها غير « بيت صيدا » الواقعة بشرق الأردن قرب مصبه فى بحيرة طبرية . وإذ نلق نظرة عجلى إلى الحوادث السابقة التى وردفيهاذكره، ونسأل أنفسنا أى انسان كان هذا التلميذ ، نرانا ، لأول وهلة ، أمام انسان بطىء فى التنفيذ ، يعوزه الحماس ، والإندفاع ، وسرعة الخاطر ، والحركة الدائبة . فهو لم يحاول أن يجسد يسوع ، ولكن يسوع هو الذى وجده . لم يكن بين الذين سموا إلى يسوع بين القدامين الذين هرعوا إليه . وهو من مدينة اثنين من كبار الرسل ، ولكن هذين لم يجداه، وما فكرا فيه . ثم أن الرجل ـ كما يبدو لنا ـ عاجز عن الجدل والنقاش . فحين اعترض نثنائيل على قوله ، زاعما أن الناصرة لا يمكن أن تنبت نباتا حسنا ، لم يجادله ولم يحاجه ، بل قال « تعال وانظر ! » وهذه قولة كريمة مليئة بالمعانى ، ولكنها تدل على عزوف من جانبه عن المجادلة والمحاجة . وفى اعتراضه على سؤال يسوع عن ابتياع الخبز للجماهير الغفيرة ، قد نستشف شيئاً من الريبة فى نفسه ، وضعف اليقين الذى ساوره ساعتئذ . وهذه الخصال نراها مرة أخرى يوم جاءه اليونان ملتمسين أن يتوسط لهم لرؤية يسوع ، لأنه لم يبت فى الأمر ، بل هرع إلى إندراوس طالباً نصحه ومشورته .

على أنه ، مع هذا كله ، كان رجلا عملياً . وجوابه على نثنائيل يزكى هذا الرأى : فهو قد عرف الناصرة وفسادها ، ولم يحاول تفنيد ما ذهب إليه زميله ، ورأى أن الحل العملى هو رؤية العين ، والاقتناع الشخصى . وتتبدى لنا طبيعته العملية فى حساب النفقة حين سئل عن شراء الخبز للجماهير ، وحينما استعان باندراوس على تدبير خطة لتقديم اليونان ليسوع .

أجل ، كان الرجل عملياً حكيما ، تكشفت لنا حكمته العملية فى تقدير حساب النفقة ، وانجلت حكمته السياسية فى حسن التصرف مع اليونان الدخلاء ، وبانت حكمته المنطقية فى آخر مرحلة ليلة العشاء الأخير ، يوم قدر أن رؤية الله تكفل حل جميع الأسرار والألغاز .

على أننا لم نقل بعد أهم شىء عن فيلبس . ذلك لأن القصص تصوره لنا

إنساناً تقياً حقاً. فحين واجه نثنائيل، ابتدره بقوله: « وجدنا الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء » . وهذا دليل على أنه كان من المتبحرين فى دراسة الأسفار المقدسة . « والناموس » هنا يقصد بها التوراة أما « الأنبياء » فإنها تشمل الأنبياء المتقدمين مثل أسفار يشوع والقضاة وصموئيل والملوك ، والمتأخرين مثل إشعياء وإرميا وحزقيال وصغار الأنبياء الاثنى عشر .

والمرء يعرف عادة بقرينه . وقد كان فيلبس صديقاً لنثنائيل ، وهو الذى نعته يسوع بقوله « إسرائيلى لا غش فيه » . ولا يصادق الإنسان عادة إلا من كان على شاكلته ، والطيور على أشكالها تقع . ونحسب أن فيلبس كان أيضاً « إسرائيلياً لا غش فيه » ، وحسبه أن يسوع سعى إليه ووجده .

وألمع ضياء ينعكس على هذا التلميذ التقى ، الطيب القلب ، تلك الصيحة الخافتة ، التى نسمعها منه فى العليّة ، ليلة العشاء الأخير :

« أرنا الآب وكفانا »

ففى تلك الساعة الأخيرة ، وحوله زملاؤه ، تخرج منه تلك الصيحة النبيلة ، التى هى صيحة الإنسانية كلها .

هذا هو الإنسان المدعو فيلبس : إنسان هادىء الطبع ، دمث الخلق ، بطىء فى التنفيذ ، لا جاذبية فيه ، ولكنه حكيم عملياً وسياسياً ومنطقياً ، تقى نقى فى السر والعلن .

وإذ نفكر فى الطريقة التى انتهجها معه يسوع ، نراه قبل كل شىء يسعى إليه ليجده . ولا شك أن هذا الاختيار لم يكن ارتجالا ، بل كان عن معرفة سابقة وقصد معين . لقد سعى إليه ، لأنه أحس بحاجته إليه ، وعرف فيه إمكانيات مستترة ، ولعله أيقن أن أحدا من التلاميذ الآخرين لا يميل إليه ، ولا يسعى وراءه.

ثم نرى يسوع يوجه إليه قولته المأثورة عنه « اتبعنى » . ولقد ذكرت قصة الأنجيل ست أو سبع حالات استعمل فيها يسوع هذا الاصطلاح المحبب إليه .

وكانت حالة فيلبس أولى تلك الحالات . لم يقل له كما قال للتلميذين «ماذا تطلبان؟» ولا كما قال لبطرس «أنت الصخرة». ولكنه اقترب إلى هذا الإنسان الهادىء، الغارق فى دراسة الناموس والأنبياء، الذى يشعر فى أعماق نفسه بحاجته القصوى لله، وقال له «اتبعنى!»، أى سر معى فى الطريق، ورافقنى فى رسالتى. وتنطوى هذه الدعوة على جهاد وتضحية، لأن السير وراءه يحمل معه إنكار النفس وحمل الصليب: «إن أراد أحد أن يأتى ورائى، فلينكر نفسه، ويحمل صليبه ويتبعنى»

كانت الدعوة بسيطة فى مظهرها، ولكنها عميقة فى مغزاها ونتائجها، لأنها أومأت إلى فيلبس أن يسلم نفسه لمطالب يسوع ومقاصده، وأن يسير معه فى طريقه، وينكر نفسه، ويضحى بكل مطالبها .

ومن ثمّ نرى المسيح يجد فيلبس، ويستميله إلى جانبه، وقد أطاع دعوته لأنه انطلق تواً إلى صديقه نثنائيل، معلناً له أنه قد وجد من كتب عنه فى موسى والأنبياء . وبعد قليل يختاره المسيح ويعينه رسولاً مع الأثنى عشر، ليكون معه أولا، ثم ليرسله مع الآخرين لبث دعوته وحمل رسالته .

وبعد ذلك نرى يسوع يوجه إلى فيلبس سؤالا عن إشباع الخمسة آلاف: «من أين نبتاع خبزاً ليأ كل هؤلاء؟». وغريب أنه لم يوجه هذا السؤال لاندراوس، ولا ليوحنا، ولا لبطرس. ولعل هذه هى الواقعة الوحيدة التى نسمع فيها ربنا يطلب نصيحة إنسان. وقد كان يوحنا حريصاً مدققاً فى سرد القصة حتى علق على السؤال بقوله «وإنما قال هذا ليمتحنه لأنه هو علم ما هو مزمع أن يفعل».

لم يفتقر المسيح إلى ناصح، ولا إلى مشير. ولكن فيلبس هو الذى افتقر إلى دليل يشدد إيمانه، ويزكى الدعوة التى قبلها. وكان فى اجابته أميناً حريصاً محاسبا يقدر النفقة، فكشف بذلك عن ناحية من نواحى شخصيته كما تقدم. وبعد أن قال فيلبس ما قال، تلقى هو وزملاؤه أمرا بأن يجلسوا الجموع، ورأى فيلبس بعينيه سيده يتناول الأرغفة، ويباركها، ويكسرها. رأى سيده

يشبع بطون الألوف الجائعة ، ويشبع إيمان التلاميذ فى قدرته الخارقة للطبيعة .

والمشهد الثانى الذى نرى فيه فيلبس ، كان — كما قلنا — فى رفقة اندراوس يوم طلب اليونان الدخلاء رؤية يسوع وبعد التشاور مع اندراوس تقدم فيلبس إلى معلمه وأنبأه بالأمر . ولا يساورنا الشك فى أن أجابة يسوع أذهلت فيلبس وأوقعته فى حيرة فكرية غلبت عليه أمره : « قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان. الحق أقول لكم إن لم تقع حبة الحنطة فى الأرض وتمت فهى تبقى وحدها ، ولكن إن ماتت تأتى بثمر كثير .. الآن نفسى قد اضطربت ،وماذا أقول ، أيها الآب نجنى من هذه الساعة ،ولكن لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة.أيها الآب مجد اسمك».

وقد استجاب إلى نجوى يسوع صوت من السماء ، عاد يسوع بعــــده إلى الكلام فقال : « الآن دينونة هذا العالم . الأن يطرح رئيس هذا العالم خارجا . وانا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلى الجميع » .

وطبعاً سمع فيلبس هذه الأقوال ، حائراً مذهولاً ، ولعلنا لا نعدو الصواب إذا نحن لخصنا جواب يسوع لفيلبس واندراوس بشيء من هذا النص :

« إن أولئك اليونانيين لن يقدروا أن يرونى الآن . ان الطريق الوحيد الذى يرونى به هو طريق موتى وقيامتى » . والقصة كلها تؤيد لنا أن يسوع أراد أن يعلن بها لفيلبس وللآخرين بأن الوسيلة الوحيدة لرؤيته فى مجده ، هى الصليب .

ثم تنقضى ساعات ، وإذا بفيلبس فى العلية مع سائر التلاميذ . وهناك فى غمرة الحديث يلقى فيلبس كلمته الهائلة « ياسيد أرنا الآب وكفانا » .وهنا يعاتبه السيد عتاباً رقيقاً لبطء فهمه : « أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفنى يافيلبس ؟» ويخيل إلينا أن فيلبس لم يجب فوراً على هذا السؤال ، لذلك لم يقف يسوع عند حد السؤال بل أردف بقوله : « الذى رآنى فقد رأى الآب » ،وهى عبارة مدوية فى الأنجيل تشهد لألوهية المسيح ، جاءت على لسانه هو .

ونحسب أن فيلبس قد استنار ساعتئذ بالروح القدس، وعرف تماما من هو سيده

الذي يخاطبه ، والذي وجده قبل سنوات ، وراح يحمل نصيبه في المسئولية مع الآخرين . ونخلص من هذا كله أن فيلبس أطاع الدعوة الأولى ، وطفق يرافق المسيح في رحلاته ، شاهداً بأنه وجد المسيا . وعلى مر السنين يزداد فهمه وإدراكه حتى يرى أخيراً الآب في وجه يسوع .

ونحن لا نعرف شيئاً عن فيلبس غير هذا ، ولم يدوّن شيء من أقوال تفوّه بها ، ولا أعمال أتاها . وليس لدينا بيان عن الرحلات التي قام بها ، أو البلدان التي زارها . وهو غير فيلبس الشماس الذي ورد ذكره في سفر الأعمال... نحن لا نعرف عنه شيئاً من الأسفار المقدسة غير ما ذكرناه ، ولكننا نعرف يقيناً أنه كرسول من الاثني عشر قد نقش اسمه على أساسات مدينة الله .

وفي دراسة هذه السيرة عظة للإنسان البطيء ، الذي لم يفز بقسط من الجاذبية وقوة التأثير . وما أكثر هؤلاء ! ان اندراوس لا يطلب مثل هذا الإنسان ، حتى ان كان من أبناء بلدته . ولكن المسيح يفكّر فيه ، ويسعى إليه ليجده ، لأنه يحتاج إلى أمثاله في خدمته وتنفيذ مقاصده . وقد يكون أولئك بطيئي الفهم ، ولكنه يكون معهم صبوراً طويل الأناة . وقد لا يعلو لهم صيت ، ولا تكتب لهم سير ، ولا تتغنى المحافل بمآثرهم الخالدة ، ولكن تكتب أسماؤهم في مدينة الله ..

على أن التقاليد المسيحية تقول ان هذا الرسول انطلق إلى بعض بلدان أفريقية للمناداة برسالة الأنجيل ، وآمن على يديه جموع كثيرة في بلدان كثيرة ، ثم ذهب إلى «هيرابوليس» ، ورد أهلها إلى معرفة الله إلا أن غير المؤمنين هناك تشاوروا على قتله بحجة أنه عصا أمر الملك الذي كان يمنع دخول الغرباء إلى مدينتهم فوثبوا عليه وقيدوه ، أما هو فكان يبتسم في وجوههم قائلا لهم : لماذا ترفضون الحياة الأبدية ، ولا تفكرون في خلاص نفوسكم . ولكنهم لم يعبأوا بكلامه وتألبوا عليه وعذبوه عذاباً كثيراً ، ثم صلبوه منكسا . . . ودفن جسده في هيرابوليس وهي مدينة في آسيا الصغرى على مقربة من لادوكية .

الفصل التاسع

نثنائيل

« فى الغد أراد يسوع أن يخرج إلى الجليل . فوجد فيلبس فقال له اتبعنى . وكان فيلبس من بيت صيدا من مدينة اندراوس وبطرس . فيلبس وجد نثنائيل وقال له وجدنا الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء يسوع ابن يوسف الذى من الناصرة . فقال له نثنائيل أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح . قال له فيلبس تعال وانظر .

« ورأى يسوع نثنائيل مقبلا إليه فقال عنه هوذا إسرائيلى حقاً لاغش فيه . قال له نثنائيل من أين تعرفنى . أجاب نثنائيل وقال له يامعلم أنت ابن الله . أنت ملك إسرائيل . اجاب يسوع وقال له هل آمنت لأنى قلت لك إنى رايتك تحت التينة . سوف ترى أعظم من هذا . وقال له الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان »

(يوحنا ١ : ٤٣ — ٥١)

يكاد يجمع الشراح وعلماء الكتاب المقدس على أن نثنائيل وبرثولماوس هما اسمان لشخص واحد ، يسميه متى ومرقس ولوقا برثولماوس ، ويسميه يوحنا نثنائيل . وحين يتحدث البشيرون الثلاثة عن هذا التلميذ يقرنون اسمه باسم فيلبس ، وحين يتحدث عنه يوحنا ، يقرن اسمه أيضاً باسم فيلبس . هذا ما يؤيده الشراح والعلماء . لكن قد يقال بحق إنه ليس لدينا دليل مادى يثبت أن الاسمين هما لمسمى واحد ، ولم يتأيد هذا الرأى إلا فى القرن التاسع .

و « برثولماوس » كلمة آرامية معناها « ابن الحارث » . وفيما عدا ذكر اسمه فى قائمة الرسل ، لا نجد فى رواية الأنجيل قصة عن هذا التلميذ غير التى صدرنا بها هذا

البحث . وقد ذكر اسمه مرة أخرى ، فى الفصل الأخير من إنجيل يوحنا كواحد من السبعة الذين ظهر لهم المسيح بعد قيامته فى ذلك الصبح المأثور ، وهم يصطادون فى بحيرة طبرية (يوحنا ص ٢١).

والقصة التى تروى عنه تلقى ضياء لامعاً على أخلاق الرجل وصفاته ، ومبلغ تقدير المسيح له ، وإعجابه به . ولعلّه الوحيد بين التلاميذ الذى يمدحه المسيح من أول لقاء ، ويخلع عليه لقباً تاريخياً ، يجعله فى مصاف النبلاء الأتقياء . ذلك لأن القصة تقول ان فيلبس جاء به إلى يسوع ، فلما رآه السيّد قال عنه على مشهد من المخاطب ومن الآخرين الواقفين معه :

« هوذا إسرائيلى حقاً لاغش فيه ».

ويكاد يكون يقيناً أن اندراوس وأخاه سمعان ، ويوحنا وربما أخاه يعقوب وفيلبس ، وغيرهم كانوا بين الحاضرين .

ونحن لا نعرف شيئاً من تاريخ نثنائيل . لا نعرف مَن كان أبوه ، ولا مَن كانت أمه . ولكن قيل انه كان من قانا الجليل . والعبارة التى قالها عنه يسوع تشمل وصفين ، يقترن أحدهما بالآخر — الأول « هوذا إسرائيلى حقاً » والثانى « لاغش فيه » . وإذ نقرأ هذه العبارة يتبادر إلى الذهن فكرة مماثلة فى العهد القديم تلقى عليها ضياء . وهل نكون متجاوزين الصواب إذا قلنا ان ربنا كان يفكّر فى تلك الساعة فيما جاء بالعهد القديم عن يعقوب . ولا يظهر هذا الاسم فى سياق الحديث ، ولكن الإشارة إليه واضحة .

فالشق الأول من رواية العهد القديم وصف للتلميذ بطريق المقارنة بينه وبين يعقوب ، وأما الشق الثانى فنجده فى قولة المسيح : « من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان » . والاشارة الأولى « إسرائيلى » وصف لأخلاق يعقوب وصفاته ، وخاصة بعد أن عاد إلى موطنه ، بعد غيبة طويلة

وبعد أن أصاب ثروة طائلة ، وأطلق عليه اسم « إسرائيل » . والإشارة الثانية تسبق الأولى ويرجع تاريخها إلى اليوم الذى غادر فيه يعقوب موطنه ، هائما على وجه ، طريداً منفياً بسبب نفاقه وخداعه ، وانه لكذلك وإذا به يرى ملائكة السماء صاعدة نازلة .

وهذه المطابقة مجرد فكرة لا غير ، ولعل نثنائيل كان مغموراً تحت التينة بقصة يعقوب ، يتلوها ويتأملها . لذلك اتخذ ربنا ، حين لقيه ، هذه القصة مصدراً للاوصاف التى خلعها عليه .

فماذا كان نثنائيل فى نظر يسوع ؟ كان أولا « إسرائيلياً » . وقد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أن الكلمة يقصد بها أنه « عبرانى » من شعب الله المختار ، ولكن الواقع أنها تحمل معنى آخر . فإذا رجعنا إلى القصة التى ألمحنا إليها الآن ، نجد اللقب « إسرائيل » قد خلع على يعقوب فى الليلة التى صارعه فيها الله — فى شكل بشرى — وأضحى بعد المصارعة رجلا جديداً ، ممتلئاً بقوة الله ، خاضعاً لسلطانه وإرادته . لهذا دعى الشعب العبرانى فى كتابهم « بنى إسرائيل » ، والكلمة فى تجزئتها إلى حرفين (Isra El) تعنى الخاضع لسلطان الله وإرادته. هذا هو الأسم الذى أعطى ليعقوب ، يوم أدرك أن سر قوته إنما هو فى خضوعه لحكم الله وسلطانه. من ثم نرى الله يقمده ليتوجه ، ويحطمه ليصدمه ، ويتسلط عليه ليمنحه عزة ومجداً.

فالإسرائيلى حقاً ، فى معناه الكامل ، هو الإنسان الذى يعيش تحت سلطان الله وحكمه. وبهذا المعنى وصف ربنا نثنائيل ، وأضاف إلى ذلك « إسرائيلى حقا ».

وفى سياق القصة نعلم أن نثنائيل كان مقبلا من تحت شجرة تين ، لأن يسوع قال له : « قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك » . وشجرة التين الورقة فى فصل الصيف تصلح عادة أن تكون ظلا ظليلا يتفيأه العابرون طلبا فى الهدوء والراحة . ولا شك أن نثنائيل كان هناك المناجاة والتأمل الروحى ، ولعل العبارة

التي قالها ربما تحمل بين ثناياها التلميح إلى إختبار ديني تكشف لنثنائيل في ذلك اليوم . ولعله كان يقرأ تحت التينة قصة يعقوب بعد أن سمع مناداة يوحنا المعمدان . كل هذا من قبيل الحدس والتخمين ، لا التأكيد واليقين . على أن الوصف الذي خلعه عليه المسيح يؤكد لنا أن نثنائيل كان رجلا يكمل مقاصد الله التي أرادها يوم أطلق لقب « إسرائيل » على يعقوب : « هوذا اسرائيلي حقاً » :

وكم كان يسوع كريماً مغدقاً في الإعتراف عما لهذا الإنسان من فضل . فهو لم يقل انه خاطئ ، مع أنه كان بلا شك خاطئا ، لأن الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله . إنما اعترف له بأمانته وإخلاصه على قدر النور الذي تكشف له ، ولأنه كان عائشاً حياة الخضوع والإستسلام لطاعة الله وأحكامه ، إذ يقول بعد ذلك :

« لاغش فيه »

وهنا تراودنا الفكرة عينها بأن ذكرى يعقوب كانت من وراء الستار . وكأني بالسيد يقول ان ليس في هذا الإنسان غش ، ولا خداع ، ولا تضليل ، وما إلى ذلك مما كان في يعقوب قبل مصارعته . انه ، في نظر المسيح ، إنسان قد بلغ المثل الأعلى الذي بلغه يعقوب في القديم بعد جهاد ومصارعة ... إذ كان الرجل مخلصاً ، مستقيما في الرأي ، ذا نفس شفافة لا تخفي وراءها ضغناً ولا إثماً — « لاغش فيه » وليس في فمه مكر .

وهنا نقف هنيهة لنلقي نظرة إلى الدليل الذي يؤيد هذا الوصف : فحين أقبل فيلبس إلى نثنائيل وقال له ، لقد وجدنا من كتب عنه موسى والأنبياء ، أجاب بقول خال من المكر والغش « أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح؟ » ... عبارة أطلقت على سجيتها ، لا تصنع فيها ولا تمحل . ولم يكن نثنائيل من أبناء الناصرة ، ولكنه كان من قانا الجليل . ولعله أراد أن يساير أهل اليهودية في احتقارهم الجليل ومدائنه ، ونطق بالعبارة كرجل طيب القلب يسير مع الرأي العام . ولكن رأياً

آخر هو أقرب إلى الصواب والتفكير السليم ، ذلك أن الناصرة اشتهرت فى ذلك الزمن بفسادها وإثمها . وهى واقعة على سفح تلّ يلامس الطريق العام الذى سارت فيه جنود الرومان وتجار السلع ، فكان هؤلاء وأولئك يبيتون الليالى فيها ، ويرتكبون فعالا من الفجور والأباحية . هذا هو الذى قصده نثنائيل ، وسؤاله مبطن بسلامة الطوية ، يواجه الحق دون مواربة ، بلا غش ولا مكر :

« أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح ؟ »

وسلامة طويته تبدو فى أبهى أوضاعها ، حين علّق على قولة السيد فى مدحه : « من أين تعرفنى ؟ » وهو هنا يسلّم ضمناً بقول المسيح ، دون أن يدّعى لنفسه تواضعاً مصطنعاً . أما الذى يحيره فهو كيف استطاع يسوع أن يعرف هذا عنه .

أقبل الرجل إلى يسوع بناء على دعوة من فيلبس ، وإذ يقترب من سيده الجديد ، يساط عليه أشعة من نور تكشف حقيقته أمام الواقفين حوله وقد أحس نثنائيل بصدق الوصف الذى أطلق عليه ، ولكنه تحير كيف يعرف يسوع هذا عنه قبل أن يراه ، فأجابه السيد إجابة دلت على معرفته ما وراء الحجب ، وما تخفى الصدور : « قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك » .

وهنا يرى نثنائيل نفسه واقفاً أمام إنسان عرفه معرفة تفوق كل المدركات الأرضية . فهو قد اختلى تحت شجرة التين بعيداً عن أنظار الناس ، يناجى الله فى خلوته ، ولكن هناك رآه يسوع . فصرخ نثنائيل مذهولا : « يا معلم أنت ابن الله ، أنت ملك إسرائيل » !

« قبل ... فيلبس ... أنا رأيتك » ! إن يسوع كان أسبق من فيلبس ، وهو دائماً السبّاق فى رؤية الناس ومعرفتهم وهذا فخر للمسيحية ، فأننا قبل أن نسعى إلى أحد ، نجد رئيس أيماننا قد سبقنا إليه . وربنا لا يقيس أفضال الناس وأقدارهم بمقاييس البشر . هو لا يقيس الناس ، وهم فى الكنائس ، أو المحافل ،

أو المجتمعات ، لأننا فى مثل هذه الأماكن نكسو أنفسنا ثياباً مصطنعة، قد تكون أحياناً أثواب البهاء . ولكنه يرانا ويقيسنا ، حينما نكون فى خلوة، تحت شجرة التين ، حيث تبدو نفوسنا على حقيقتها أمام « العين » الفاحصة . وصدق من قال: لا تظهر اخلاق الرجال إلا فى الظلام ، حينما تسدل الستائر ، وتختفى أعين الرقباء ، وتختلى النفس مع نفسها ومع الله :

« ... وأنت تحت التينة رأيتك ... رأيتك اسرائيلياً حقاً لاغش فيك ، لأنى عرفت باطنك ، وسرائر قلبك ، ونجوى نفسك » .

أرأيت ، ان السيد يقول لهذا الإنسان : انت اسرائيلى حقاً ... فيجيبه : « يامعلم أنت ملك اسرائيل » ، وقد شملت العبارة معنى اعمق من مظاهرها لأنه يردفها بقوله « انت ابن الله » . بيّن أن المسيح استأثر بالإنسان كله .

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد . فما ان ينتزع المسيح هذا الاعتراف من شفتى تلميذه الجديد حتى يقول له : « هل آمنت لأنى قلت لك انى رأيتك تحت التينة . سوف ترى اعظم من هذا .. الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الانسان » .

وبهذه الكلمات يعود السيد بفكره إلى قصة يعقوب ، وحلمه الذى رأى فيه سلماً ، ويهوه واقفاً إلى جانبه ، والملائكة صاعدة ونازلة . رآها صاعدة تحمل رسائل عن مهامها فى الأرض، ونازلة محملة بتبعات السماء . والآن يقول ربنا لنثنائيل، انك سترى حلم يعقوب فى القديم مترجماً الى حقيقة روحية جديدة وماتضمنه الحلم بطريق الايحاء ، سيكمل فعلا فيه . والذى كان يفكر فيه نثنائيل وهو تحت التينة بكل اسراره الغامضة ، سيتحقق فى شخص ربنا فى الأرض وفى السماء .

لقد أفصح نثنائيل عن إيمانه فى أول لقاء بالمسيح ، فاضاء له ربنا شعلة الرجاء ، واعداً إياه أن ستكشف له طيات المستقبل اختبارات أعمق وأعظم . من ثم تأيدت الرؤيا التى رآها يعقوب قديماً فى المسيح، فابن الانسان سيكون مجرى الصلاة الذى

تمثل فى الملائكة الصاعدة، ومجرى الاستجابة الذى تمثل فى الملائكة النازلة. وبعد ان استيقظ يعقوب من حلمه قال : « ان الرب فى هذا المكان وانا لم أعلم » . وفى المسيح استكشف نثنائيل قربه من الله ، وهو لا يعلم .

وفى القصة القديمة يقول يعقوب : : «ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء». وقد أكمل هذا فى المسيح وبواسطته ، الذى قال لامرأة فيما بعد : « تأتى ساعة لا فى هذا الجبل ولا فى أورشليم تسجدون للآب .. الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق ، لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له » .

فحيث يكون المسيح ، هناك بيت الله . هو الحضرة الالهية ، والاعلان الالهى ، والوحى الالهى ...

فى كلمات قلائل روى يسوع لنثنائيل اسراراً وعجائب ، قوت ايمان الرجل ، ومكنت محبته منه ، وزادت ولاءه له . لذلك كان بين الذين اختارهم يسوع رسلا له فى المستقبل . وفى المشهد الأخير يظهر اسمه بين الصحابة على بحيرة طبرية، وهو يراقب السيد يهتم بالصيد ، ويعد الضرورات الجسمانية للتلاميذ الكادحين المكدودين ، ثم يسمعه مرة أخرى يؤيد دعواه التى طالما سمعوها منه ، ويعهد اليهم برعاية شعبه .

وترى ما مغزى قصة هذا التلميذ لنا فى هذا العصر؟ قد يكون لنا أصدقاء تحلوا بكثير من جميل الخصال ، والمؤهلات . ولكن ينقصهم شىء ما. ومهمتنا ان نقول لهؤلاء ماقاله فيلبس لنثنائيل : « تعالوا وانظروا » .. ونفعل هذا ونحن موقنون ان السيد يعرفهم تماماً قبل ان ندعوهم ، وان لهم عنده مكاناً . والانسان قد يكون وحيداً مستوحشاً فى مدينة كبرى ، وفى وسط جماهير غفيرة . وحينما نجىء بمثل هذا إلى المسيح ، انما نجىء به إلى من يعرفه كفرد فى مجموع ، وكانسان مفرد بين الناس . ذلك لأن المسيح لا يُعنى بالإنسانية جماعات ، ولكنه يُعنى بها افراداً ، فكل انسان — مهما وضع وصغر — عزيز عليه .

وقصة هذ التلميذ تحدثنا بأن المسيح يكمّل كل نقص ، ويجمّل كل جميل فى الانسان . ففيه يجد « الاسرائيلى » ملكا، وفيه يجد الباحث الظمآن اشباعاً وريّاً لنفسه ، وفيه تجد النفس التقية المتصوفة ابن الله .

وكلمة أخيرة : ان كلمات يسوع لنثنائيل لتنبئنا بأن تجسد ابن الله هو أساس الصلة بين الله والانسان . لقد قال له نثنائيل « انت ابن الله » . اماهو فقال عن نفسه « ابن الانسان » ..

فهو ابن الانسان القريب الى انسانيتنا ، وهو ابن الله المتصل بالالوهية منذ الأزل فى السماء . وهواليوم يجىء للبشر ليوسع آفاق روآهم ،ويحقق آمالهم وأحلامهم، ويتوج حياتهم بالهبات والنعم بأيدى الملائكة الصاعدة والنازلة !

* * *

وتقول التقاليد ان هذا الرسول انطلق إلى الواحات ، ومعه بطرس . وقد أدخله بطرس إلى المدينة بحيلة ، إذ باعه كعبد وعاد هو من حيث أتى . وأخذ برثولماوس يبشر أهل الواحات ويدعوهم الى معرفة الحق ، وهو يعمل فى الكرم كعبد مع سيده الذى اشتراه . ومن هناك تلقى هاتفاً سماوياً ان يمضى الى بلاد البربر مع اندراوس تلميذه الذى آمن على يديه ، وبقى الأثنان يجاهدان بين تلك القبائل ، على كثرة ما كان فيها من عناد وشر ، حتى قبلوا دعوتهما ، ودخلوا فى دين المسيح ، فاقاما لهم كهنة وبنيا كنائس . ومن هناك مضى برثولماوس وحده الى البلاد التى على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، الى قوم لا يعرفون الله ، فنادى فيهم وجاءهم الى الايمان بيسوع المسيح،وكان يأمرهم بالطهر والعفاف والعزوف عن المنكرات والفجور . وانتهى أمره الى اغرباس الملك فحنق عليه ، وأمر أن يضعوه فى غرارة (تليس) من شعر ، ويملأوها رملاً ، ويطرحوه فى البحر . ففعلوا به كما أمر الملك .

الفصل العاشر

توما

هو التلميذ الذى اساء الناس فهمه ، لأنهم قصروا عن ادراك اتجاه تفكيره، وجعلوه شعاراً لموقف معين ، بسبب كلمة قالها لم يتبين السامعون مغزاها ودلالتها .. قالوا عنه توما « المرتاب » أو « المتشكك » ، والله يعلم انه لم يكن كذلك بالمعنى الذى نفهمه فى هذا العصر ، بل هو الرجل المصارع، المكافح، الذى يقدر ان يقول اخيراً فى ثقة وايمان « ربى والهى [1] » .

وقبل كل شيء لا ننسى ان المسيح هو الذى اصطفاه بين الاثنى عشر ، وعينه رسولا . من ثم كان من زمرة الصحاب الأخصاء الاوفياء الذين قال لهم المسيح فى ختام خدمته : « لا أعود اسميكم عبيداً ... لكنى قد سميتكم احباء » .

والآن ماذا نعرف عن توما هذا من الأنجيل ؟ الكلمة « توما » مشتقة من أصل آرامى ، ومعناها «التوأم» . وهذا هو اللقب الذى كان معروفاً به فى آسيا الصغرى التى عاش فيها يوحنا البشير . ولم يذكر متى ومرقس ولوقا اسمه إلا مرة واحدة كما فعلوا مع فيلبس . وقد ذكره لوقا فى انجيله وفى سفر الأعمال . وهو يذكر بين الاثنى عشر ، لأن السيد هو الذى اصطفاه ، وهو الذى عينه . واذا اردنا ان نعرف المزيد عن توما ، فلا معدى من الرجوع الى انجيل يوحنا .

ويذكر توما خمس مرات فى انجيل يوحنا ، وفى ثلاث منها كان ذكره فى مناسبات كئيبة محزنة . ولم يخلف لنا السفر المقدس صورة لتوما، ولا بيانا عن أعمال أو أقوال له فى أوقات الصفاء . وخير ان نقف هنيهة الآن لنلقى نظرة عابرة الى المناسبات التى ورد اسمه فيها :

جاء فى إنجيل يوحنا ص ١١ : ١٦

« فقال توما الذى يقال له التوأم للتلاميذ رفقائه، لنذهب نحن أيضاً لكى نموت معه »

وفى ص ١٤ : ٥

« قال له توما ياسيد لسنا نعلم أين تذهب فكيف نقدر أن نعرف الطريق ».

وفى ص ٢٠ : ٢٤

« أما توما واحد من الإثنى عشر الذى يقال له التوأم فلم يكن معهم حين جاء يسوع فقال له التلاميذ الآخرون قد رأينا الرب . فقال لهم ان لم ابصر فى يديه أثر المسامير واضع اصبعى فى أثر المسامير واضع يدى فى جنبه لا اؤمن » .

وفى ص ٢٠ : ٢٦ — ٢٨

« وبعد ثمانية أيام كان تلاميذه أيضاً داخلاً وتوما معهم فجاء يسوع والابواب مغلقة ووقف فى الوسط وقال سلام لكم . ثم قال لتوما هات اصبعك إلى هنا وابصر يدى . وهات يدك وضعها فى جنبى ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً » .

وفى ص ٢١ : ١

« بعد هذا أظهر أيضاً يسوع نفسه للتلاميذ على بحر طبرية . ظهر هكذا: كان سمعان بطرس وتوما الذى يقال له التوأم ونثنائيل الذى من قانا الجليل وابنا زبدي واثنان آخران من تلاميذه مع بعضهم » .

ويقول لوقا فى سفر الأعمال (١ : ١٣) إن توما كان بين الذين صعدوا إلى العلية . وفى سفر الرؤيا إشارة أخرى إليه مع الإثنى عشر دون تعيين اسمه بالذات: « وسور المدينة كان له اثنا عشر أساساً وعليها أسماء الرسل الإثنى عشر » .

وها نحن أولاء نشهد ثلاث مناسبات كبرى يظهر فيها هذ التلميذ ، وكلها ، كما قلنا ، مناسبات قاتمة . أولها عند موت لعازر وإقامته من الأموات . وكان توما

مع زملائه فى رفقة يسوع عبر نهر الأردن يوم تلقوا نبأ مرض لعازر. وكان توما هناك أيضاً ساعة ورود النبأ الأخير بأنه قد مات. وإذ يتلقى ربنا هذا النبأ، يعتزم أن ينطلق إلى اليهودية، وقد بذل تلاميذه أقصى الجهد لحمله على العدول عن هذه المغامرة، بعد إذ عرفوا موقف اليهود حياله، وخشوا أن يظفروا به، فيلقوا عليه القبض ويقتلوه. وهنا يقول توما: «لنذهب نحن أيضاً لكى نموت معه». هذه نغمة المحبة التى ليست حسب المعرفة، ولغة الصراحة والعزيمة.

ثم نرى توما مرة أخرى، يوم كان يلقى يسوع تعاليمه الوداعية على التلاميذ، ويكشف لهم عن ذات نفسه، وعن مصيره المحتوم. وقد تعلق القسم الأول من تلك التعاليم بالصعاب والمشاكل التى أقامها الرسل، وقد أذهلتهم الحيرة من جراء الظروف التى اكتنفتهم، وداعب الاضطراب الفكرى أذهانهم مما كانوا يسمعون. وفى تلك المناسبة تكلم كل من بطرس وفيلبس ويهوذا وتوما أيضاً.

فسأله بطرس: «ياسيد إلى أين تذهب؟» فأجابه يسوع، ثم ختم كلامه بقوله ان فى بيت أبيه منازل كثيرة، وانه ماض لكى يعد لهم مكاناً.. «وتعلمون حيث أنا اذهب وتعلمون الطريق». وهنا يعترض توما بقوله: «ياسيد لسنا نعلم إين تذهب، فكيف نقدر أن نعرف الطريق!».

وأغلب الظن أن توما ورفقاءه فهموا أن السيد إنما يشير إلى الكون كله حين كان يتحدث عن بيت الأب، وانه كان مزمعاً أن يجتاز إلى منطقة أخرى من هذا الكون ليعد لهم فيها مكاناً. فاعتراضه قائم على أنهم يجهلون ذلك العالم الروحى الفسيح، وأنهم لايعرفون الطريق إلى تلك المناطق المجهولة. ولست أجد غضاضة فى هذا السؤال، فهو منطو على تفكير عميق، وعلى تساؤل حق، وما كان التلاميذ يومئذ يعرفون شيئاً عن العوالم، أو «الأمكنة» الأخرى، فيما وراء مناطق الأرض.

وإذ يجتمع الرسل بعد القيامة لايكون توما معهم. وهنا يعرّض التلميذ نفسه

للفقد ، ربما بحق . ولكن ترى ما علة غيابه ؟ إن الرجل ، على ما يبدو ، عصبي المزاج يعيش بعواطفه . وقد تأثر من هول ما رأى ، ولم تطاوعه نفسه أن يتحدث إلى سمعان أو يوحنا أو غيرهما من الصحابة ، بل أراد أن يهرب من هذا الوسط الذى حطم أعصابه ، وأن ينطوي على نفسه إلى أن يفيق من أثر الصدمة التى أصابت إيمانه ورجاءه . وما أحسب أن غيابه كان نقصاً فى ولائه وإخلاصه ، بل كان مبعثه الحزن الذى أغرقه ، وفى ساعة الحزن الشديد يميل الانسان إلى الإختلاء مع نفسه ليجتّر احزانه.

ثم تنقضي ثمانية أيام ، وإذا بتوما مع زملائه ، فابتدروه قائلين : «قد رأينا الرب » وهنا يطفو على السطح ألمه الدفين وتوجعه المكتوم ... «لا أصدق . إن لم أبصر فى يديه أثر المسامير ، وأضع أصبعى فى أثر المسامير ، وأضع يدى فى جنبه ، لا اؤمن » . ويذهب جمهرة الشراح إلى أن توما قد أمعن فى هذا الطلب ، وركب متن الشطط ، وجمل عدم الإيمان فى لهجته أقوي من الإيمان ، على أننى لا أكاد أحسُّ – وأنا اقرأ هذه العبارة – إنكاراً أو عدم إيمان ، بل أحسها سكيباً من قلب متوجع ، جرع كأس الألم والهول حتى الثمالة ، وهو يرى جسد سيده يمزق تمزيقاً ، وينزف الدم غزيراً من جروح غائرة فى يديه ورجليه وجنبه . والدليل الوحيد الذى يقنعه بأن سيده حيٌّ ، هو تلك الجروح تلمسها يده .

ونراه بعد ذلك على شاطىء بحر طبرية يستمع إلى يسوع ، ولكنه لم يقل شيئاً ، كان مستمعاً فقط يصغى إلى ما كان يقوله المسيح لبطرس .

ومرة أخري نراه فى العلية يوم الخمسين ، يقبل معمودية الروح القدس . وبعد ذلك يختفى عن الأنظار ، فلا نعود نراه فى السفر المقدس ، وإن كانت الأحاديث المسيحية المتواترة قد روت عنه الشيء الكثير ، ولا يخلو بعضها من الصدق . وأخير نري اسمه منقوشاً على أساسات مدينة الله كما ينبئنا الرائى .

* * *

وأي إنسان كان توما؟ لاريب أنه كان إنساناً عملياً ، وإنساناً صريحاً ، لالف فيه ولا دوران . يغالبه اليأس حين يعتزم يسوع الإنطلاق إلى اليهودية ، وكان قد فهم حقيقة الموقف ، وقدّر لرجله قبل الخطو موضعها من الناحية البشرية ، وعرف ان اليهود سيقبضون على سيده لو ظفروا به ، فاعتزم أن يذهب ليموت معه .

ثم كان صريحاً عملياً ، يوم اعترض على سيده ، وهو يتحدث عن الأمكنة المجهولة التي يزمع الرحيل إليها ، وقال انه لايعلم إلى أين هو ذاهب ، فكيف يعرف الطريق . لم يتظاهر بأنه يفهم ما كان سراً غامضاً خفياً ، وهو يبدي هذه الصراحة عينها يوم أصر على أن يبصر . . . ويضع أصبعه . . . ويضع يده ، قبل أن يؤمن .

وهذه الحوادث تصوره مخلصاً الإخلاص كله . فهو لايمتنق إيماناً لايتمكن من نفسه ، ولا يدّعي فهم ما لم يفهمه ، ولا يرضى عن شيء مصانعة ومداراة . وإخلاصه يتلمع كشهب منيرة فى القصة كلها ، وخاصة يوم قال « لنذهب نحن أيضاً لكي نموت معه » . وهنا يقبل أن يشاطر سيده الفشل ، بل الموت . وكان هذا مظهراً من أنبل مظاهر الولاء والإخلاص. والذى نعلمه أنه أرتد فيما بعد عن هذا الموقف النبيل ، وهرب مع الباقين فى ساعة المحنة والشدة . ولكنه كان فى ذلك الظرف الخاص مخلصاً أميناً لسيده .

وكان شجاعاً جريئاً ، وقد تبدت شجاعته فى قولته الختامية بعد إذ إقتنع وأشرق عليه نور اليقين « ربى والهى ! »

لقدتجلّت صفات هذا التلميذ النبيلة فى مناسبات حزينة كئيبة — كماقلنامن قبل — وفى هذه نراه إنساناً مرهف الحسّ ، يفصح عن مكنونات صدره بعبارات صريحة . والنفس الحساسة العصبية قلما تقوى على الكتمان والتخفى وراء الظواهر المصطنعة . لقد عرفه العالم بالمرتاب المتشكك ، وما هو كذلك بالمعنى الذى نعرفه فى هذا العصر عن المرتابين المتشككين، الثرثارين ، ذوى الألسنة الزلقة ، الملحدة،

الذين يتخذون الكلام صناعة لهم . أما هو فقد كان متشككاً من النوع الصالح، الذي يريد أن يرى الحق بعينه ، ويلمسه بيده ، فيصرخ عندئذ : ربي وإلهي ! إن المتشكك المرتاب ـ بالمعنى السليم ـ هو الذي ينكبُّ على الأشياء لفحصها فحصاً دقيقاً ، وفي قلبه عزم صادق أن يصل إلى عمق معناها . فأنعم بهؤلاء ، لأنهم سيكونون في آخر المطاف فخر المسيحية ، ومصدر قوتها .

والآن ننتقل إلى الطريقة التي عالج بها طبيب الأرواح هذه الشخصية الفريدة بين تلاميذه • وسنضطر إلى إعادة سرد الحوادث مرة أخرى •

وقبل كل شيء ، نحن لا نعلم كيف ومتى دعاه ربنا ليكون تلميذاً له، ولكن جاء أسمه في قائمة التلاميذ المختارين من بين الاتباع الكثيرين الذين ساروا وراء هذا المعلم الجديد • وقد اتبع معه السيد طريقته المألوفة في تقوية ضعفه ، وإصلاح عيبه • فلما قال : لنذهب نحن أيضاً ، لكي نموت معه ، لم يمنعه يسوع ، فانطلق معه والباقون ، وهناك أراه يسوع بأنه سيد الموت ، ورب الحياة • هناك رأى معلمه الذي رافقه ليموت معه ، يقف عند حافة القبر ، ويكلم العالم غير المنظور، ويستدعي روحاً انتقلت إليه • وإن المرء ليتساءل هنا ، ألم يذكر توما هذه الواقعة، حينما قال فيما بعد لسيده انه لا يعرف أين هو ذاهب ، وانه لا يعرف الطريق ؟ •••

ولما اجتمع توما مع رفقائه في اليوم الأول من الأسبوع ، ظهر لهم المسيح مرة ثانية • ونكاد نجزم بأن ظهوره في تلك المرة كان لاقناع توما • وفي هذه المرة نسمعه أيضاً يحييهم بكلمته المألوفة : « سلاما لكم » ؛ ثم يوجه كلامه إلى توما، ويقدم له جسده ليراه ويجسه ، ويتأكد من شخصيته • وما أحسب أن توما جرؤ في ذلك المقام على مدِّ يده ولمس الجروح ، خشية منه ورهبة، ولكن المرض قدم إليه وقيل له : لا تكن غير مؤمن ، بل مؤمناً •

وما أعظم الفارق بين موقف المسيح هنا وموقفه أزاء المجدلية • فقد أبى على

تلك أن تلمسه بعد قيامته حين أرادت ذلك ، لأنه رغب في أن يعلمها درساً جديداً عن العلاقة الروحية التي بينه الآن وبين أتباعه ، بعد زوال العلاقات الأرضية التي قامت على النظر والسمع واللمس . أما توما الذي شك فيما هو خارق للطبيعة ، ولم يقدر أن يفهمه إلا عن الطريق الطبيعي ، فقد أجابه إلى سؤل قلبه . إن ربنا كان يصف لكل شخص ما يلائمه من علاج . وقد افتقرت المجدلية إلى تعلم الروحيات دون الاستعانة بالعلاقات الأرضية ، أما توما فقد افتقر إلى المظهر الطبيعي لاثبات ما هو روحي ، فكان لهذا وتلك ما افتقر إليه .

قد وثق يسوع بتوما ، وآمن به ، واختاره رسولا ، وبقي على الايمان به إلى نهاية الطريق . ثم أنه عالجه بالصبر والتؤدة ، واخذه باللين والحلم ، وهيأله الفرصة تلو الفرصة للتقدم والارتقاء ، حتى تم له النصر أخيراً يوم صرخ « ربي وإلهي ! »

وقصة هذا التلميذ درس قيِّم للكل ، ولكنها درس خاص للبعض ، إذ تعلمنا أن الإيمان المكين الموطد لن يكمل إلا بالكفاح والجهاد . وبين الناس من لا تصدمه الصعاب والشكوك ، وهم جدُّ مغتبطون راضون ، فطوبى لهم . ولكن آخرين لا يقدرون أن يجتنبوا الشك ، ولهم مزاج لا يقبل التسليم ، ويأبى الاستسلام إلا بعد اليقين ، ولا مثال هؤلاء نقدم توما نموذجاً في شكه الأمين المخلص ، وإرتيابه الباحث المنقب . وطوبى لامرىء يناضل شكوكه ، فيكتسب قوة ، ويأبى التسليم الأعمى فينال حكمة ونوراً . أما الذين يكتفون بالثرثرة الكلامية ويشغفون بالنقد لذاته — وهم كُثر في هذه الأيام — فليسوا من طراز هذا الرسول الأمين الصريح .

وأكبر خطأ يؤآخذ عليه توما هو غيبته عن التلاميذ بعد القيامة ، وان يكن هذا مرده إلى حالته النفسية كما قلنا . وخليق بنا أن نجتمع معاً في أوقات الشدة ،

وساعات الظلام • وانها الخسارة بالغة تلك التي تصيب المتخلفين عن محضر القديسين، لانه في ساعة لا تخطر على بال أحد، يظهر المخلص ذاته لجماعة المؤمنين •

* * *

وقد نسجت التقاليد ـ أي الأحاديث المسيحية ـ حول هذا التلميذ قصصاً ووقائع كثيرة • فقيل انه انطلق بعد حلول الروح القدس على التلاميذ إلى بلاد مابين النهرين وفارس. وهناك نادى برسالة الانجيل، وصنع الله على يديه آيات كثيرة، وآمن على يديه كثيرون، وبنى لهم كنائس • ولعل بقايا المسيحيين من الكلدان والاشوريين هم من سلالة المسيحيين الذين آمنوا على يدي الرسول توما. ويقول المؤرخ يوسابيوس ان توما هو الذي عمد المجوس الثلاثة الذين أتوا من المشرق وسجدوا الى السيد المسيح بعد ميلاده في بيت لحم، ثم قصد بعد ذلك الى بلاد الهند حيث أسس هناك كنيسة، ماتزال باقية حتى اليوم، وتعرف بكنيسة مار توما في جنوب الهند، ويتبعها نحو مليون نسمة • وقيل ان ملك تلك البلاد حنق عليه أخيراً وأمر بضربه بالحراب ومات شهيداً •

الفصل الحادي عشر

متى العشار

ان دعوة متى ليكون تلميذاً من صحابة يسوع قلب للاوضاع المألوفة ، وانكار لكل مقتضيات الحكمة المالية . ذلك لان عشاراً ، بل رسولا عشاراً ، يقف حجر عثرة أمام التزمت اليهودى . وهو لهذا مصدر ضعف ، لا قوة ، إلى حين على الأقل . ولكن يسوع ، وهو عالم بهذه الحقيقة ، دعا إلى زمرة صحابته الأقربين إنساناً من جباة الأموال ، ثم اختاره فيما بعد واحداً من الاثنى عشر . وعمل المسيح هنا غريب حقاً ، إذا قورن بما أتاه فى حالات مماثلة كانت فى ظاهرها أفضل فى مزاياها ، وأقوى فى دلالتها . ففى ذات يوم أقبل اليه أحد كتبة اليهود طائعاً مختاراً وقال له « يامعلم اتبعك أينما تمضى » . وكان الرجل ذا مكانة اجتماعية مرموقة ، ومؤهلات مهنية محترمة ، ويبدو – فى ظاهره على الأقل – سيداً تميماً . ولكن « المعلم » يصدمه بقولة تثبط العزيمة : « للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار ، وأما ابن الانسان فليس له أين يسند رأسه » .

كانت عين يسوع فاحصة خارقة ، عالمة بما تخفى الصدور . لقد نظر إلى القلب فى داخله ، ولم يقم وزناً إلا للكفاية الروحية . وهو لا يقبل تلمذة تقوم على سوء الفهم ، أو على غايات خفية . ولكنه من الجهة الأخرى لا يخشى العيوب والنقائص التى قد تنشأ عن المظاهر الخارجية أو التاريخ الماضى للمؤمنين حقاً . انه لم يكترث بما يسمونه « صحيفة السوابق » ، لانه وثق فى قوة الحق ، وآثر أشياء العالم الوضيعة على الأشياء التى أحلها الناس مكانة الاحترام والتقدير ، واثقاً أن النصر ، فى نهاية

الأمر ، نصيب الأمناء المخلصين . وكان يعلم انه وتلاميذه سيحتقرون و ينبذون إلى حين،لذلك مضى فى طريقه فى اختيار أتباعه وأنصاره الذين أرادهم ، غيرعابىء عا يقوله عنهم بنو قومهم وأبناء جيلهم .

ولهذا التلميذ المشار اسمان فى قصة الانجيل . فنى البشارةالأولى يسمى «متى» ، وفى البشارة الثانية والثالثة يسمى « لاوى » . وقد أجمع جمهرة الشراح على أن الأسمين هما لشخص واحد . لأنه بعيد جداً أن يدعى عشاران إلى التلمذة فى المكان عينه ، والزمان عينه ، وفى الظروف الملابسة عينها . ولا غرابة أن نرى كتاب الانجيل يغفلون الاشارة إلى أن الأسمين لشخص واحد ، وذلك لأن القوم ألفوا فى القرن الأول أن يطلقوا اسمين على مسمى واحد ، ولم ير كتاب الانجيل مسوغاً لذكر معلومات غير ضرورية .

ومن المرجح أن الأسم « لاوى » هو الذى عرف به التلميذ قبل دعوته ، وأن « متى » هو الأسم الذى أطلقه عليه المسيح بعد أن صار رسولا . « متى » كلمة آرامية معناها « هبة الله » — وهذا الأسم الجديد رمز وذكرى لما أصابه من تغيير فى القلب وفى الحياة . وفى بكور العهد الأول كان تغيير الأسماءأمراً مألوفاً ، فسمعان بن يونا سمى بطرس ، وشاول الطرسوسى سمى بولس ، ويوسف القبرسى أطلق عليه الأسم المحبب « برنابا » (أى ابن التعزية أو النبوة) تقديراً لاحسانه ، ونبله ، وحكمته الروحية .

والظاهر أن متى كان ، عند دعوته ، معيناً فى وظيفة لجباية الأموال،فى مدينة كفر ناحوم ، التى اتخذها يسوع موطناً له ، كما قيل عنها « فى مدينته» . يوم قدموا له الرجل المفلوج لابرائه . ويقول البشيرون جميعا انه فى طريقه من البيت الذى أجريت فيه المعجزة ، أبصر متى وقال له «اتبعنى» . وما نحسب هذه الدعوة مفاجأة . وما نحسب تلبيتها أيضاً كانت مفاجأة ، كما يفهم من النص «فقام وتبعه» . وذلك

لأن يسوع كان مواطناً فى كفر ناحوم التى عاش فيها التلميذالمدعو ، ولاشك أنهما تعارفا من قبل ، وجرت بينهما أحاديث وأحاديث .

ولسنا نقدر أن نجزم بقول فاصل عن الموعد الذى دعى فيه متى ، ولكن الدليل الثابت أن دعوته كانت قبل الموعظة على الجبل ، لأن متى أثبت نصها الكامل فى إسهاب أكثر من الآخرين . وأغلب الظن أنه كان بين السامعين ، وإلاَّ ما استطاع أن يدونها بهذا التفصيل . وإذا نحن رجعنا إلى البشارة الثالثة ترانا أمام دليل يجعل هذا الاحتمال شبه يقين . وذلك لأن لوقا يمهد لبيانه الموجز عن الموعظة ، بإعلان عن تأليف الجماعة الرسولية ، ويمثل يسوع متقدماً «معهم» ـ أى الأثنى عشر الذين ذكر أسماءهم من قبل ـ إلى المشهد الذى ألقى فيه الموعظة (لوقا ٦ : ١٣ — ١٧) . وطبيعى أن تسبق دعوة الأفراد ، وخاصة دعوة متى ، تأليف الجماعة . ولذلك يذكر البشير لوقا دعوة متى فى فصل سابق (ص ٥ : ٢٧). ونحن نسلِّم أن وضع الدعوة فى مكان ما من بشارة لوقا لا يثبت شيئاً ، وذلك لأن متى ذاته يروى قصة دعوته بعد الموعظة على الجبل ، فلا هذا ولا ذاك يتبع التسلسل التاريخى فى سرد القصة . على أن لوقا يقيد نفسه بتسلسل تاريخى فى جعل رسامة الأثنى عشر سابقة للموعظة على الجبل . أما متى فلم يُعنَ بهذا التسلسل اطلاقا فى الجزء الأول من بشارته ، ورتب مواده على أساس الموضوعات ، لا بحسب تسلسلها التاريخى ، فهو :

فى ص ٥ — ٧ : يصور يسوع معلماً أخلاقياً عظيما .

وفى ص ٨ — ٩ : يصوره صانع معجزات .

وفى ص ١٠ : يصوره معلماً يختار الأثنى عشر ، ويلقنهم ، ويَكل إليهم رسالته .

فى ص ١١ : يصوره ناقداً لمعاصريه ، ومؤيداً لفضله ومزاياه .

وفى ص ١٢ : يصوره هدفاً للجحود وانكار الذات .

وفى ص ١٣ : يصوره معلماً لمبادىء ملكوت الله بطريق الأمثلة .

* * *

وإذ ننتقل من هذه النقطة الثانوية ، إلى الدعوة ذاتها ، نرانا أمام قصة ، مقتضبة فى عبارتها ، مجزأة فى تركيبها . فليست هناك أية أشارة إلى معرفة سابقة تدل على أن متى كان متأهباً لاستجابة الدعوة التى قدمها له يسوع . على أن إغفال الأمر ليس دليلاً على عدم وجوده . وليس ما ينفى قيام تعارف سابق بين الأثنين ، كما هو الحال فى دعوة الصيادين الأربعة الذين رويت قصتهم بهذا الاقتضاب عينه فى البشائر الثلاث الأولى ، بينما نعلم من بشارة يوحنا أن ثلاثة منهم كانوا على معرفة سابقة بيسوع . والحق انه فى كلتا الدعويين عنى البشيرون فقط بالحادث عينه ، ومروا مر الكرام صامتين على الأدوار التمهيدية ، ولم يروا ضرورة فى أن يقولوا لقراء فاهمين انه ، لا العشار ، ولا أى تلميذ آخر ، انقاد انقياداً أعمى وراء إنسان لم يعرف عنه شيئاً ، ولبى الدعوة تلبية عاطلة عن التفكير ، غير مسبوقة بتأهب ذهنى وقلبى .

واقامة متى العشار فى كفر ناحوم تؤكد لنا انه عرف عن يسوع قبل أن يدعوه . فلا يعقل أن أحداً من سكان تلك المدينة ، وفى تلك الأيام ، لم يسمع عن الأعمال العظيمة ، والآيات الباهرات ، التى جرت حوله . فكوى السماء قدتفتحت فوق كفر ناحوم أمام أنظار الشاهدين ، وملائكة السماء قدهبطت على ابن الإنسان ذلك لأن البرص طهروا ، والمجانين عادوا أصحاء ، والعمى نعموا بالبصر ، والمقعدين دبت الحياة فى أعضائهم المشلولة . هناك شفيت أمرأة من داء عضال ، وأقيمت من الأموات صبية ، هى ابنة يايرس رئيس المجمع . كل هذه الأيات صنعت علانية ، ولاكتها الألسنة ، وأحدثت ضجة فى المدينة هائلة . ويروى البشيرون كيف تحير

كل الناس « حتى سأل بعضهم بعضاً قائلين ما هذا : ماهو هذا التعليم الجديد لأنه بسلطان يأمر حتى الأرواح النجسة فتطيعه » (مرقس ١ : ٢٧) و كيف مجدوا الله قائلين : « ما رأينا مثل هذا قط » ا مرقس ٢ : ١٢) و « اننا قد رأينا اليوم عجائب » (لوقا ٥ : ٢٦) . ومتى نفسه يختم قصة إقامة ابنة يايرس بقوله « خرج ذلك الخبر إلى تلك الأرض كلها » (متى ٩ : ٢٦) .

ونحن لا نؤكد بأن هذه المعجزات كلها صنعت قبل دعوة العشار ، ولكن بعضها على الأقل صنع قبلها . ولدى مقارنة البشائر ، بعضها ببعض ، نخلص بأن آخر هذه المعجزات ، وهي أعظمها جميعاً وأن تكن ذكرت آخر الكل ، وقعت فعلا قبل دعوة متى ، وأن يكن رواها بعد دعوته . وحسبنا هذا للتدليل على قوة الأثر التي خلفتها هذه المعجزة في نفس جابي الأموال ، فأعدت قلبه وذهنه ، وجعلته يحس — عند سماعه النداء الخطير « اتبعني » — أنه صادر من رب الأموات والأحياء ، ويذعن للأمر إذعاناً لا تردد فيه ، ولا إحجام .

ومعرفة متى السابقة بيسوع تجعل تجديده وقبوله التلمذة في نطاق المعقول دون الإقلال من قيمته الأدبية ، فليس جزافاً أن ينهض العشار ويصير تابعاً ليسوع ، بمجرد سماعه أو رؤيته عجائب سيده الجديد . ذلك لأن المعجزات من تلقاء ذاتها لا تجعل الإنسان مؤمناً ، وإلا كان آمن أهل كفر ناحوم جميعاً . على أن الواقع كان على نقيض ذلك ، لأننا نسمع شكوى يسوع المرة من جحود المدائن الواقعة على ضفاف بحيرة جنيسارت ، حيث أجرى أكثر معجزاته ، وكان لكفر ناحوم بالذات نصيب الاسد في هذا المضمار ، تلك التي قال عنها بمرارة : « وأنت يا كفر ناحوم المرتفعة إلى السماء ستهبطين إلى الهاوية ، لأنه لو صنعت في سدوم القوات المصنوعة فيك لبقيت إلى اليوم » . وكانت شكاة يسوع ضد سكان تلك المدن المحظوظة أنهم لم يتوبوا ، أي لم يجعلوا ملكوت السموات غايتهم وأربهم . لقد بهتوا من معجزاته ، وتحدثوا عنها طويلا ، واستمتعوا بلذة الدهشة والانذهال .

ولكنهم بعد حين عادوا خاسئين إلى بلادتهم القديمة وجودهم المأثور ، أبناء العالم، لا أبناء الملكوت .

أما مع جابى المكوس ، فلم يكن الأمر كذلك . فلم يكتف بالتعجب والحيرة بل « تاب » وآمن . وهو قد انتمى إلى طبقة من الناس، كانت فى أعين مواطنيهم حرباً عواناً على وطنهم وأمتهم ، وكانوا كلهم من فئة خاسرة ، وأتهم كثيرون منهم بالغش والتواطؤ ، والاستغلال وابتزاز الأموال . ولكن ربما كان هذا العشار مستثنى من هؤلاء . وتدل وليمته الوداعية على أنه كان من ذوى اليسار ، ولكن ينبغى ألا نسلم جدلا بأنه احتاز ثروته بطريق غير شريف . وكل ما نقدر أن نقوله فى غير زلق أو خطأ أنه ولئن كان العشار جشعاً من قبل ، فإن روح الطمع قد زايلته الآن ، ولئن كان قد ظلم الفقراء واستغلهم ، فهذه كلها الآن مكرهة قلبه . لقد مجت نفسه تحصيل الضرائب والمكوس من شعب نافر متمرد ، واغتبط أن يتبع الآن أنساناً جاء ليحمل ثقال الناس بدل أن يحملهم إياها ، وليتجاوز عن الديون بدل أن يقتضيها بالصرامة والعنف . من ثم كان صوت يسوع أشبه بأنامل سحرية لعبت على أوتار قلبه « فترك كل شىء وقام وتبعه » .

والذى نعلمه عن متى هذا أنه كان عبرانياً ، ومن سبط لاوى كما يفهم من اسمه قبل دعوته . وكعبرانى اتسم بالكبرياء القومية وبالضيق الذى كان من شيمة القوم ، وهى شيمة ما فتئت تلازم الشعب العبرانى حتى اليوم . ذلك لأن كل عبرانى فخور بجنسه وبتاريخه وبماضيه . وعلى كثرة المظالم التى عاناها والويلات التى أصابته فإن العبرانى لم يحن قط رقبته الصلبة . وكان متى واحداً من هؤلاء ، ضيق الفكر والأفق . وهذا الضيق صفة مستحبة من بعض الوجوه لأننا أصبنا فى هذا العصر بلغة « السعة » ، لغة التراضى والتوفيق بين المتناقضات على حساب المبادىء . وشىء من « الضيق » يقوى شعب الله فى هذا الجيل .

وكان متى عشاراً، ولهذه الوظيفة أثر فى أخلاقه . وإذ ننظر إليه نراه « جالساً عند مكان الجباية » فى كفر ناحوم على ضفة البحيرة . وهناك كان يتقاضى ، يوما بعد يوم ، الضرائب والمكوس من الصيادين عن أسماكهم ، ومن التجار عن سلعهم . وكان الرجل فى سلطنة هيرودس ، الذى عيلته رومية حاكما على الجليل . وذهبت الضرائب كلها للحاكم ، إلا أن رومية كانت تحدد فئاتها وأنواعهـا . وكان الحاكم محتقرا ومرذولا من الشعب ، ولكن ظهره استند إلى قوة الحكومة الرومانية وسلطانها . ووظيفة متى تدلنا على أنه كان رجلا محاسباً ، حريصاً . وكان على أولئك الجباة المشارين أن يجمعوا المكوس على أساس فئات تعينها الحكومة الرومانية ، ولكنهم كثيرا ما كانوا يبتزون أكثر من الحقوق ، ولذلك أثرى كثيرون منهم . على أنهم كانوا ، على أى حال ، من المدققين فى الحساب النابهين فى تصريف الأمور ، وتقديم الوثائق والأدلة .

وهذه الحقائق كلها تعكس نوراً على متى وأخلاقه . فقد كان الرجل عائشاً فى جو حكومى ، عالما بكثير من شئون الإمبراطورية الرومانية . ومن المرجح أنه باعتزازه بقوة الحكومة التى أسندت ظهره ، لم يعبأ كثيرا بعداء أمته وكراهيتها للطبقة التى انتمى إليها . إذاً كان متى عبرانياً ، فخورا ، متكبراً ، ضيق الأفق بحكم انتمائه إلى شعب متزمت ، شاعراً بسلطان الدولة التى منحته السلطة ، مقدراً المسئولية فى حفظ الأرقام والودائع التى أؤتمن عليها .

على أن أفضل شىء فى متى ، مما قد لا نراه طافياً على السطح ، هو أنه كان رجلا متديناً قبل أن يدعوه المسيح . ودليلنا على ذلك معرفته الواسعة بالأسفـار المقدسة وبالشعب العبرانى . ولعله يبزّ مرقس ولوقا ويوحنا وبولس فى هذا المضمار فأنت لا تقرأ بشارته دون أن تحس إلماماً تاماً بأسفار العهد القديم . واقتباساته من العهد القديم تربو على اقتباسات البشيرين الثلاثة الآخرين مجتمعة معاً . ولو أننا أحصينا هذه المقتبسات لوجدناها تقارب المائة . وقد اقتبس من الأسفار جميعاً ،

من التوراة (أو الناموس) ، ومن الأنبياء ، ومن الكتابات الأخرى . وإذ يروى قصة يسوع نراه يستعين بهذه المعرفة الواسعة فى القصة كلها من مولده إلى موته ، ويُشهد أسفار الكتاب على الحوادث المتتابعة ، وله عبارة مأثورة عنه لم يقلها غيره من البشيرين « لكى تكمل الكتب » . فهو ، وإن يكن فى نظر معاصريه مرتداً مارقاً عن الولاء لشعبه ، فانه لم يكن كذلك فى الدين العبرى . لقد درس كتابات الأقدمين ، وتعمق فى الأسفار المقدسة ، ويحق لنا ، فى غير زلل ، أن نحسبه من المتدينين .

وعلى قول البشيرين الأربعة ، أقام متى مأدبة فى بيته بعد اتخاذ هذا القرار الخطير . وهو يقول فى بشارته ، تواضعاً منه « فى البيت » فقط ، دون ذكر اسمه (متى ٩ : ١٠) . ولوقا يصف الوليمة كأنها حادث عظيم ، أقيمت تكريماً ليسوع . على أنه تكريم من نوع لا يقدره إلا الاقلون ، لأن الضيوف كانوا من طراز غريب : « والذين كانوا متكئين معهم كانوا جمعاً كثيراً من عشارين وآخرين » (لوقا ٥ : ٢٩) . وبين « الآخرين » قوم كانوا يُحسبون « خطاة » .

والوليمة ، حسب وصفها ، حفلت بالمعانى الأدبية الرائعة ، كما حفلت بصنوف من الطعام شهية . وذلك لأن المضيف نظر اليها كحفل تذكارى احتفاء بعتقه من بالوعة الاثم ، وبيئة الخطية والشر ، ودخوله إلى أخوية مباركة مع يسوع .
وكانت الوليمة ـ كما قلنا ـ تكريماً واعترافاً بالولاء والاخلاص للسيد الجديد كما فعلت مريم يوم سكبت قنينة الطيب الزكى على قدمى السيد . والذين يوهبون وفرة من الخير والنعمة ، خليق بهم أن يأتوا أعمالا تتسم بطابع الروعة والبهاء ، وقد رحب يسوع بمثل هذا الولاء السخى الذى يحسبه البخيل اسرافاً وتبذيراً .

ثم أن وليمة هذا العشار كانت بمثابة حفلة وداعية لزملائه وأقرانه ، وقد أراد أن يفترق عنهم فى سلام وصفاء ، ثم يذهب كل منهم لحال سبيله .

ويحلو لنا هنا ان نقول ان متى قصد بوليمته هذه أن يقدم أصدقاءه وجيرانه ليسوع محاولا ، بحماس « التلميذ الشاب » ، أن يغرى الآخرين على اتباع مثاله . أو على الأقل راجياً أن يجتـــذب قوماً من طرق الغواية والاثم إلى طريق الصلاح والبر .

من ثم كانت وليمة متى — من الداخل — حفلة مفرحة بريئة بانية . ولـكن واحسرتاه ! نظر إليها قوم من الخارج كأنها أمر إداً ، وعمل ذميم فاضح . ذلك لأن نفراً من الفريسيين رأوا المدعوين مجتمعين أو متفرقين ، وعرفوا هوياتهم . وراحوا يلذعونهم باقذع الـكلام . وهنا سنحت لهم الفرصة فاقبلوا إلى تلاميذ يسوع وألقوا عليهم سؤالا ، فيه عذل وفيه مديح : « لماذا يأ كل معلمكم مع العشارين والخطاة » . وكان أ كثر السائلين من طائفة الفريسيين المحليين . لأن لوقا يدعوهم « كتبتهم والفريسيون » . وقد كانت كفرناحوم من أمهات المدن اليهودية . فلم تخل طبعاً من ممثليهم لهذه الطائفة الدينية . وربما كان بين المشاهدين الحاقدين نفر من الفريسيين الذين قدموا من أورشليم مركز الحـكومة الدينية ، ليتعقبوا خطى النبي الناصرى ، ويترصدوا أفعاله ويتصيدوا أقواله ، كما فعلوا بالمعمدان من قبل . وذلك لأن عجائب يسوع كان قد ذاع أمرها فى البلاد كلها . وجذب إليه النظارة من كل الانحاء — « . . . الجليل والعشر المدن وأورشليم ، واليهودية ومن عبر الأردن » (متى ٤ : ٢٥) . ولا نشك أن الـكتبة والفريسيين من المدينة المقدسة كانوا من أوائل الناشطين فى هذه الجاسوسية الدينية .

وكان وجود ذوى النوايا السيئة من طائفة الفريسيين ملازماً ليسوع أينما ذهب ، ولـكنه لم يقم لهم وزناً بل سار فى طريقه هادئاً . وحين كانوا ينتقدون مسلـكه كان دائماً يلجم ألسنتهم بالقول المبين . ومن بين أجوبته القاطعة تلك التى دافع فيها عن نفسه ، وزكى موقفه فى اختلاطه مع العشارين والخطاة ، وقد اصطدم وإياهم فى هذا الأمر فى مواقف ثلاثة : الأول فى مأدبة متى هذه ، والثانى فى بيت سمعان الفريسى

والثالث في حالة لم يحدد مكانها بالضبط ، يوم جاءه فريق من الكتبة والفريسيين وأقاموا عليه تهمة قائلين : « هذا يقبل خطاة ويأ كل معهم » . (لوقاص ١٥) . والحق ، كانت دفوعه لتبرير موقفه حيال طبقات الساقطين في نظر المجتمع ، مليئة بالحق والنعمة ، ناطقة بالشعر والشجن ، لم تخلُ من غمزات ولمزات هادئة موجهة نحو أولئك الناقدين ، والمتدثرين برداء التقوى .

وأول تلك الدفوع كانت حجته المهنية : « أنا أغشى مساكن الخطاة لأني طبيب ، وهم مرضى يفتقرون إلى العلاج . أفلا يكون الطبيب دائماً بين مرضاه ، وخاصة بين حالات الاصابات الخطرة التي تفتقر إلى عنايته وخدمته ؟ » .

والدفع الثاني كانت حجته السياسية : « انه من اصالة الرأي وحسن السياسة أن أكون صديق الخطاة ، الذين يفتقرون إلى كثير من الغفران ، لأنهم حين يُعادون إلى مسلك الفضيلة والتقوى ، تفر محبتهم ، ويعظم تقديرهم . أما رأيتم إلى هذه المرأة التائبة النادمة ، التي تذرف الدمع من فرط الحزن ، ومن فرط الفرح ، حتى بلت رجلي مخلصها بالدموع . . . ان تلك الدموع تدخل الغبطة إلى نفسي ، كنبع ماء سلسبيل في بيداء الفريسية القاحلة ، وترمتها الجاف الأربد » .

والدفع الثالث كانت غريزته الطبيعية : « أنا أقبل الخطاة ، وآوا كلهم ، وغايتي من وراء ذلك أن أردهم إلى طريق الحق والفضيلة ، مثلي في ذلك مثل الراعي الذي يصعد النجاد ، ويهبط الوهاد ، سعياً وراء خروف ضال . وهو يترك قطيعه الذي اجتمع شمله في البرية ، لأن قلبه يحن إلى الضال المفقود ، ويفرح حين يجده ، ويكون فرحه به أعظم من امتلاك أغنام القطيع التي لم تضلّ . والذين لا يفهمون قيمة هذا الأمر ، انما هم المعزولون عن الكون ، العائشون لأنفسهم ، لأن الملائكة في السماء ، والآباء والأمهات والرعاة الذين تربطهم بحياة الأرض قلوب بشرية ، يفهمون هذا تماماً ، ويعيشون على مقتضاه كل يوم » .

وفي هذه المحاجّة ناقش يسوع المدّعين في نطاق تفكيرهم وادعائهم ، وسلّم

مبدئياً بما ينسبونه لأنفسهم من كرامة قدر ، وعلو مكانة ، وبما ينسبونه للآخرين الذين يأبون الاشتراك معهم والاتصال بهم ، وينبذونهم كما ينبذالأبرارأو المتبررون الخطاة الآثمين . ولكنه في الوقت عينه حرص كل الحرص على أن يبين لهم أن حكمه على الفريقين ـ الابرار والخاطئين ـ لايتفق مع وجهة نظر السائلين المدعين وهذا ما فعله في مأدبة متى ، اذ أمرهم أن « اذهبوا وتعلموا ماهو انى أريد رحمة لا ذبيحة » . وباقتباس هذه الآية أراد أن يلقنهم بطريق الايماز والتلميح أن الفريسيين ، مع تدينهم الكثير ، هم أيضاً غير رحماء ، مشحونون كبرياء وتعصباً وقسوة وكراهية . وهذه الصفات مكروهة في نظر الله ، وهو يعجها أكثر من الرذائل الفشيمة التي يرتكبها عامة الشعب عن جهل وغير دراية . فضلاعن ذلك فان بين هؤلاء « خطاة » في وهم الفريسيين فقط ، ومن وجهة نظرهم لا غير .

ثم يختم محاجته ، لا كمحام يقدم الدفوع ، بل كقاض يصدر الأحكام : « لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة » . وهنا اشارةخفية إلى نبذ المتبررين ودعوة الطالبين الأمناء ، غير المتدين بذواتهم ، إلى التوبة وأفراح الملكوت ، وهم الذين يستمتعون بوليمة الانجيل . وتشمل هذه العبارة تلميحاً إلى قرب حدوث ثورة دينية ، تنقلب فيها الأوضاع ، يغدو فيها الأخيرون أولين ، ويبيت الأولون أخيرين ، ويصير منبوذو اليهود ، وكلاب الأمم ، شركاء في أفراح الملكوت ، أما « الابرار » والمتبررون ، فيطرحون خارجاً . . .

انها قولة حافلة بالمعاني لقوم يفهمون ، أراد يسوع أن يقول بها للناس ان دينه دين جامع شامل للانسانية كلها ، هو انجيل للبشرية قاطبة ، لأنه انجيل للخطاة . وقد أدركت الغريزة الفريسية ، فيما رأته من محبة وعطف على « الخطاة والعشارين » نذير شؤم عليها ، لأن هذا انطوى على حل الاحتكار الديني ، وقتل الكبرياء اليهودية ، وجعل الناس كلهم سواسية في نظر الله ، أهلا للخلاص والنعمة بشروط واحدة متعادلة للجميع .

* * *

وماذا كانت نتيجة دعوة ذلك الانسان ؟ ان الجواب على ذلك نجده فى بشارته التى كتبها [1] ، فلقد صار بحق « الكاتب الملكى » الذى كتب لشعبه خاصة ، ولسائر الشعوب من بعدهم ، قصة الفادى الملك ، والملك الفادى ، قصة من جاء ليسترد الملك الذى لوثته الخطية ، ويرده إلى مكان الجمال والمجد والبهاء .

وكما وقف المسيح يومئذ عند مكان الجباية ، وأومأ إلى التلميذ أن يتبعه ، يجول اليوم ببصره فى الطرقات والأمكنة ، ويقول لكل إنسان فى طريق الحياة : « قم واتبعنى ! دع عنك ذهولك ، وتساؤلك ، ومحاجتك العقلية . تعال وسر معى ، فى زمالتى المذبة » .

* * *

وتقول التقاليد ان هذا التلميذ نادى بأرض فلسطين ، وفى صور وصيدا ، ثم انطلق إلى بلاد الحبشة ودخل بلاد الكهنة ، وردهم إلى معرفة الله .

وقد جاء فى سيرة القديس « تكلاهيمانوت » الحبشى أن احد كهنة الإسرائيليين ويدعى صادوق ، كان قد أرسل ولده ويدعى « ابن الحكيم » ومعه أخوه عزاريا الكاهن ، ليبسطا سلطانهما على بلاد « التجريا » . وأخذ عزاريا معه كل الوسائل لتأدية الشعائر اليهودية فى تلك البلاد . وتزوج عزاريا بدقنادس ابنة أحد عظماء عاصمة « التجريا » ، ورزق منها ولداً أسماه « صادوقاً » ، وولد صادوق لاوى . وأخذ هؤلاء الكهنة يعلمون أهل الحبشة التوراة والناموس . وكانوا يجتمعون فى ديوان الملك كعادة الكهنة فى القبة . ولذلك أطلق على هذه المدينة « مدينة الكهنة » . على أنه على مر السنين تحول أهل تلك المدينة إلى الوثنية ، حتى ذهب إليها الرسول متى وهداهم إلى الايمان المسيحى .

وقيل انه لما أراد الرسول متى دخول المدينة ، لقيه شاب وقال له : « انك لا تستطيع الدخول إلا إذا حلقت رأسك ولحيتك وأمسكت بيدك سعفة » ، ففعل كما

(١) يظن بعض المفسرين أن كاتب بشارة متى انسان آخر غير متى التلميذ .

أخبره الشاب ، ثم دخل المدينة كأحد كهنتها . ومضى إلى هيكل « أبللون » ، فوجد رئيس الكهنة ، وراح يكلمه ، ويعظه ، ويشرح له أن الآلهة التى يعبدونها لاتسمع ولا تعى ، وأن الإله الحقيقى هو الذى خلق السموات والأرض . فآمن أرميوس الكاهن ، وتبعه جماعة كبيرة .

ولما علم بذلك حاكم المدينة أمر باحراقهم ، ولكن حدث أن مات ابن الحاكم فتضرع متى إلى الله أن يقيم هذا الإبن ، فاستجاب الله صلاته ، وقام الولد من الموت . فآمن الوالى وبقية أهل المدينة ، وعمدهم الرسول ورسم لهم أسقفاً وكهنة وبنى لهم كنيسة .

وبعد أن جاب فى أنحاء أخرى من الحبشة ، عاد إلى أورشليم ، فاجتمع إليه جماعة من اليهود الذين كانوا قد اهتدوا على يديه ، وطلبوا منه أن يدون لهم خلاصة تعاليمه ، فكتب بداية البشارة المنسوبة إليه باللغة العبرية ، وقيل انها كلها أثناء بعثته إلى بلاد الهند ، وكان ذلك فى السنة الأولى من حكم الامبراطور اقلاديوس ، وهى السنة التاسعة بعد الصعود .

وتقول الأحاديث المتواترة انه مات شهيداً رجماً بالحجارة على يد فستوس الوالى ، ودفن جسده فى قيصرية .

الفصل الثانى عشر

الصغير

... هو يعقوب بن حلفى ، الملقب « بالصغير » تمييزاً له عن يعقوب آخر بين الصحابة ، هو يعقوب أخو يوحنا .

ذكر اسمه فى قائمة الاثنى عشر (متى ١٠ : ٣) . وكانت أمه « مريم أم يعقوب » واقفة من بعيد مع الأخريات عند الصليب (متى ٢٧ : ٥٦) ، بين اللواتى تبعن يسوع من الجليل وكن يخدمنه . ولعلها كانت أيضاً « مريم الأخرى » التى كانت جالسة مع المجدلية تجاه القبر ، ساعة دحرج يوسف الرامى حجراً كبيراً على بابه (متى ٢٧ : ٦١).

وكان ابن حلفى مع التلاميذ أيضاً فى العلية بعد صعود المسيح إلى السماء . (اعمال ١ : ١٣).

هذا هو كلّ ما رواه عنه السفر المقدس . فمن كان هذا اليعقوب ؟ هنا المشكلة ، فقد تضاربت الآراء ، وذهب الباحثون والعلماء مذاهب شتى فى تعيين شخصيته. وقد استشرت تفاسير الاسفار المقدسة ، وكتابات الاولين مثل هجسبس ، ويوسابيوس ، ويوسيفوس وغيرهم ، وآراء الراسخين فى العلم من المحدثين ، فما وجدت اتفاقاً فى الرأى ، ولا سنداً تاريخياً يصحّ الاعتماد عليه .

فمن هو يعقوب بن حلفى ؟ !

أهو بعينه يعقوب أخو الرب الذى ورد ذكره فى (متى ١٣ : ٥٥ ومرقس ٦ : ٣) بين اخوة المسيح حسب الجسد « يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا » . والذى أشير اليه أيضاً فى (أعمال ١٢ : ١٧ و ١٥ : ١٣ و ٢١ : ١٨ وغلاطية ٢ : ٩ و ١ كورنثوس ١٥ : ٧) والذى أطلق عليه الكتّاب الأولون لقب « العادل » أو « البار »

وحسبوه أول أسقف لكنيسة أورشليم ورئيساً لأول مجمع مسيحى أم هو شخص آخر غير هذا ؟ !

هنا تضاربت الآراء ، بل أقول الظنون والتخمينات ، فذهب فريق الى أن الاثنين واحد ، وانه ابن خالة يسوع ، امرأة حلفى . وظن آخرون انهما شخصان، وان عبارة «أخى الرب» تفيد معنى الاخ لأم ، أو الاخ لأب من امرأة سابقة لأم يسوع ... وظن غيرهم ان حلفى كان أخاً ليوسف ، وكان قد مات مبكراً فتبنى يوسف أولاده من بعده .

وعندى ان هذه كلها ظنون اجتهد فيها الباحثون ، ولكنها لا تستند فى الواقع الى دليل تاريخى يركن اليه . وما دمنا فى نطاق الظنون والتخمينات ، فانى أميل الى الاخذ بوجهة نظر القائلين إن يعقوب الصغير هو بعينه يعقوب أخو الرب ، رئيس أولى المجامع المسيحية ، وأول أسقف لكنيسة أورشليم ، وصاحب الرسالة المنسوبة اليه فى أسفار العهد الجديد . وعلى هذا الأساس سأعالج أمره فى هذا البحث.

وأرانى الآن مضطراً ان اقول كلمة عن اخوة يسوع ، ما دمنا نعتبر يعقوب هذا أخا الرب ...

ذكر كلٌ من متى ومرقس اسماء اخوة يسوع - كما تقدم - على لسان الساخرين من اليهود، فى معرض الاستهانة به والتحقير من شأنه . وهم « يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا » . فمن كان هؤلاء ؟

(١) ذهب قوم الى أنهم اخوة يسوع من مريم ويوسف بعد ولادة المسيح . غير ان احترام العذراء وتوقيرها ، والاشمئزاز من اعتبارها أماً عادية تحبل وتلد بعد حلول الروح القدس فيها وولادة المسيح منها ، قد دفعت الكنائس الكاثوليكية والارثوذكسية وبعض الكنائس الانجيلية الى رأيين آخرين :

(٢) انهم أولاد يوسف من امرأة أخرى قبل مريم ، وبهذا علم ابيفانوس والكنيسة الارثوذكسية .

(٣) انهم أولاد مريم امرأة حلفى ،وهى أخت العذراء ، أى انهم أولاد خالة يسوع ، وبهذا علم أيرونيموس والكنيسة الكاثوليكية .

أما عن الرأى الأول ، فانى أراه مجانباً لأصول الذوق والكياسة . وما دمنا فى نطاق الحدس والتخمين ، فالأولى ان نفترض انه لم يكن للمسيح أخوة من أمه، لأن يوسف الرجل البار تهيب فى رهبة مقدسة أن يقترب منها كزوجة بعد إذ علم انها حبلت بالروح القدس . ولو ان العذراء ولدت آخرين غير يسوع ، لما كان قد وكل بها يوم صلبه الى عناية يوحنا الرسول قائلا له : « هو ذا أمك » .

وعندنا أن الرأى الثانى غير مستبعد ، ولعله أقرب الآراء الى العقل .

أما الثالث فالاعتراض عليه أنه يخالف معنى الاخوّة الصريحة . ولا يعقل ان يكون فى الاسرة الواحدة اختان باسم واحد وهما : مريم العذراء ، ومريم أم يعقوب واخوته .

واذا اعتبرنا يعقوب بن حلفى ، هو بعينه يعقوب « أخو الرب » ، فانه فى هذه الحالة إما أن يكون أخاً لآب وإما أن يكون ابناً متبنى ليوسف عمه بعد موت أبيه حلفى ، على رأى بعضهم . وكلمة «أخى الرب» اطلقت عليه لقباً لصلة القرابة الوثيقة . والى عهد قريب كان الابناء فى مصر وبعض بلدان الشرق ينادون أعمامهم بكلمة « أب » ، كما كانوا يقولون أيضاً ان « الخال والد » .

ونحن نستبعد ان يكل الرسل أمر الكنيسة فى أورشليم ،وهى أم الكنائس وقتئذ ، إلى شخص غريب لم يكن بينهم ضمن الاثنى عشر . كما نستبعد أن يقيموا رئيساً عليهم فى المجمع ، ويضعوه فى موضع الصدارة والنفوذ ، انساناً لم يسبق لهم زمالته فى سنوات الترويض والتدريب التى قضوها مع ربهم . وبعد هذا كله لا يسعنا إلا أن نقول ، ما يقوله عادة اخواننا المسلمون ، فى مثل هذه الأحوال : والله اعلم !

* * *

ولم تروِ بشائر الأنجيل حوادث ذات شأن تتعلق بيعقوب ، ولا نسبت اليه سؤالا أو كلاماً . انما رآه فى سفر الاعمال زعيما للجماعة » . ويقول اكليمندس فى الكتاب السادس من مؤلفه « وصف المناظر » ان بطرس ويعقوب ويوحنا بعد صعود مخلصنا لم يسعوا وراء الكرامة، بل اختاروا يعقوب البار أسقفاً لأورشليم .

وكان يعقوب هذا - بماله من حق الزعامة - رئيساً لأولى المجامع المسيحية . ولهذا المجمع قصة ذكرها الكاتب فى سفر الاعمال ص ١٥ - والظاهر انه بينما كان بولس يستريح من عناء العمل ، بعد ان جاب انحاء غلاطية ، أقبل اليه قوم من قبل يعقوب ، زعيم الجماعة فى أورشليم ، وألحوا على بولس أن يختتن كل الامم أولا ، ويتقبلوا الشريعة اليهودية قبل المعمودية ، وناصرهم فى هذا الرأى فريق المسيحيين فى انطاكية ، وحتى برنابا نفسه كان متقلقلا مرتاباً . وكان بطرس فى انطاكية فى ذلك الوقت فوقف إلى جانبهم . وبعد كثير من المشاحنة والنقاش، تقرر ان ينطلق بولس وبطرس وبرنابا الى أورشليم مع بعض الاخوة لفض الأشكال والبت فى الأمر . وأخذ بولس معه تيطس أخا لوقا (٢ كورنثوس ٨ : ١٨ و ١٢ : ١٨) . وكان بين الذين اهتدوا حديثاً من ابناء الوثنية ، وأبى بولس فى اصرار أن يختنه . وهناك فى المجمع شرح بطرس وجهة نظره (اعمال ص ١٥) . وروى بولس وبرنابا قصص الاعمال العجيبة التى أجراها الله بين الامم ، ولخص يعقوب - رئيس المؤتمر - آراء المؤتمرين (اعمال ١٥ : ١٣ - ٢١) - والظاهر انه كان يتكلم بالآرامية بدليل قوله « سمعان قد اخبر ... » بدلا من أن يقول « بطرس » - وسلك مسلك الرصانة والتعقل ، وحال دون الانشقاق بين الحزبين ، اليهود والامم ، فكان بذلك وسيطاً بين النظامين القديم والجديد ، مع انه كان أكثر الرسل تمسكاً بالتقاليد اليهودية ، ولازم خدمة الهيكل ما بقى له رجاء بادخال أمة اليهود الى دين المسيح ، حتى لقد اعتبره اليهود واحداً منهم . وفى قراره الحكيم - الذى يعتبر نصرا تاماً لرسالة الانجيل الجامعة الشاملة - لم يفرض على المتنصرين شيئاً من أحكام الناموس

الطقسي ، ولكنهم حذروا فقط من اقتراف الجرائم الأدبية. وقال يعقوب ان العهد القديم ذائع معروف ، فيمكن المتنصرين الامم ان يراعوا هذه الاحكام ، على ضوء إلهام المسيح وارشاده . وقد قوبل قرار يعقوب بموافقة تامة ، فان اولئك المسيحيين الأولين ما كانوا سياسيين حزبيين يقترع بعضهم ضد بعض ، بل كانوا رجالاً ملهمين بالروح القدس ، راغبين فى ان يعرفوا ارادة الله ، فاتحدوا فى الرأى بعد إذ شهدوا بركة الله على العمل بين الامم .

* * *

وقد اختلفت آراء الشراح والمفسرين حول مؤلف رسالة يعقوب ، احدى رسائل العهد الجديد ، ونهضت الأدلة لتأييد أو تفنيد الفكرة القائلة ان واضعها هو يعقوب المعروف فى العهد الجديد « بأخى الرب » . ومن أراد الاستزادة من هذا البحث ، فليرجع الى التعليقات والمقالات فى قواميس الكتاب المقدس . وحسبنا القول هنا انه ليس ثمة سبب جازم يحيد بنا عن الاخذ بالنظرية التقليدية القائلة ان واضع الرسالة هو الرسول يعقوب ، وانا لواجدون مشابهات كثيرة بين هذه الرسالة وبين الرسائل الدورية التى كانت تصدر من أورشليم للكنائس الصغرى التى انشأها بولس الرسول ، وقد كان يعقوب هذا رئيس مجلس الكنيسة وأسقفها كما تقدم .

* * *

ويقول يوسابيوس فى الفصل الثالث والعشرين من الكتاب الثانى تحت عنوان « استشهاد يعقوب الذى كان يدعى أخا الرب » : —

« وبعد أن أرسل فستوس بولس الى رومية نتيجة رفع دعواه الى قيصر ، ووجد اليهود انهم فشلوا فى اصطياده فى الفخ التى نصبوها له ، تحولوا الى يعقوب أخى الرب ، الذى أوكل اليه الرسل كرسى أسقفية أورشليم ، واتخذوا ضده الاجراءات الشنيعة التالية :

« أقاموه فى وسطهم وطلبوا منه أن ينكر الإيمان بالمسيح أمام كل الشعب ، ولكنه رفع صوته بجرأة ، وصاح أمام كل الجمهور معترفاً بأن مخلصنا وربنا يسوع هو ابن الله . فلم يطيقوا شهادة ذلك الرجل الذى كان يحسبه الجميع أعظم بار بين البشر لتقواه وحياته التقشفية ، وتهيأت لهم فرصة قتله بسبب الفوضى التى ضربت أطنابها بوفاة فستوس وقتئذ فى اليهودية ، وترك الولاية بلا وال أو رأس » .

أما كيفية وفاة يعقوب ، فقد قال اكليمندس فى الكتاب السادس من مؤلفه « وصف المناظر » أنه طرح من فوق جناح الهيكل وضربه قصار[1] بمصاغليظة حتى مات . أما هيجسيبوس (Hegesippus) ، الذى عاش بعد الرسل مباشرة وكتب فى القرن الثانى ، فإنه يصف طريقة استشهاده ، وصفاً دقيقاً ، فى مؤلفه « سير الأبطال » كما يلى :

« إن يعقوب أخا الرب تسلم من الرسل إدارة الكنيسة ، وقد لقبه الجميع بالبار ، من وقت مخلصنا إلى اليوم ، لأنه وجد كثيرون يحملون اسم يعقوب .

« وقد كان مقدسا من بطن أمه ، ولم يشرب خمراً ولا مسكرا ، ولا أكل لحماً ، ولم يعل رأسه موسى ، ولم يدهن نفسه بالزيت ..

« وكان مسموحاً له بدخول القدس ، لأنه لم يلبس ملابس صوفية بل كتانية ، وكان من عاداته دخول الهيكل وحده ، وكثيرا ما روئى جاثياً على ركبتيه طالباً الصفح عن الشعب ، حتى صارت ركبتاه خشنتين كركب الجمل نتيجة الانحناء المستمر فى عبادة الله لطلب الصفح عن الشعب .

« وبسبب بره الزائد ، دعى « البار » ، و« أبلياس » ومعناها فى اليونانية « حصن الشعب » ، و « العدل » وفق ماصرح به الأنبياء عنه[2] .

« وقد سأله بعض الشيع السبع ، التى كانت موجودة بين الشعب والتى

---

(١) القصار هو الذى ينظف الأقمشة أو يبيضها .

(٢) لعله يشير الى قول اشعياء « قولوا للصديق خير » ١ شعياء ٣ : ١

ذكرتها فى كتاب « سير الأبطال » قائلين : ما هو باب يسوع ، فأجاب : هو المخلص ذاته .

« وبسبب كلامه آمن البعض أن يسوع هو المسيح . على أن الشيع السابق ذكرها لم تؤمن لا بالقيامة ، ولا بمجيء أحد ليعطى كل واحد حسب أعماله . والكثيرون الذين آمنوا كان يعزى ايمانهم إلى يعقوب . . .

« ولما تكاثر عدد المؤمنين ، حتى بين الحكام ، صار اضطراب بين اليهود والكتبة والفريسيين الذين قالوا انه خطر أن يلتف جميع الشعب حول يسوع على أنه المسيح . لذلك أتوا إلى يعقوب كتلة واحدة وقالوا : نتوسل إليك أن تصد الشعب لأنهم ضلوا اذ آمنوا أن يسوع هو المسيح . نتوسل إليك أن تقنع كل الذين قدموا إلى عيد الفصح ، ونحن جميعاً نثق بك ، ونشهد لك ، كما يشهد كل الشعب ، أنك بار ولا تحابى بالوجوه . . .

« قف فوق جناح الهيكل لكى يراك جميع الشعب من ذلك المكان المرتفع ويسمعوا كلماتك ، واقنع الجماهير حتى لا تضل ، لأن كل الأسباط مع الأمم أتت فى هذا العيد . . .

«ووضع الكتبة والفريسيون يعقوب فوق جناح الهيكل وصرخوا اليه قائلين: أيها البار ، الذى نثق به ... من حيث أن الشعب قد ضل وراء يسوع المصلوب ، فبيّن لنا ما هو باب يسوع ...

« فأجاب بصوت مرتفع : لماذا تسألوننى عن يسوع ابن الانسان ، انه هو نفسه يجلس فى السماء عن يمين القوة ، وسوف يأتى على سحاب السماء .

« ولما اقتنع كثيرون ، وهتفوا ليعقوب ، قال الكتبة والفريسيون بعضهم لبعض : لقد أسأنا التصرف اذ مهدنا لشهادة كهذه ، ولكن لنصعد ونطرحه الى أسفل لكى يخافوا أن يصدقوه ..

« فصعدوا وطرحوا البار إلى أسفل ، وقالوا لنرجم يعقوب البار لأنه لم يمت أثر سقوطه . أما هو فالتفت وجثا على ركبتيه وقال : أتوسل اليك أيها الرب أن تغفر لهم ، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون .

«وبينما هم يرجمونه صرخ واحد من الكهنة ، من أبناء ركاب ابن الركابيين الذين ذكرهم إرميا النبي (ارميا ص ٣٥) وقال : كفوا ، ماذا تعملون ، ان البار يصلي من أجلكم .

« وللحال تقدم أحدهم ، وكان قصاراً ، وضرب البار على رأسه بالعصا التي كان يضرب بها اللابس ، وهكذا استشهد ، فدفنوه في الحال بجانب الهيكل ... »

هذه هي الرواية التي كتبها تفصيلا هيجسبسوس ، وأيده فيها اكليمندس. وقد اعتقد كثيرون من عقلاء اليهود يومئذ أن علة حصار أورشليم الذي حل بهم بعد استشهاده مباشرة مردها إلى سوء تصرفهم في قتل هذا البار .

ومن الغريب أن يوسيفوس المؤرخ اليهودي يؤيد هذا الرأي إذ يقول : « لقد حلت هذه الأمور باليهود انتقاما لدماء يعقوب البار الذي كان أخاً ليسوع الذي يدعى المسيح . لأن اليهود قتلوه ، مع أنه كان رجلا باراً جداً » .

ويسجل هذا المؤرخ عينه حادثة موته في السفر العشرين من مؤلفه عن الآثار بهذه الكلمات : « لما علم الامبراطور بموت فستوس ، أرسل ألبينوس والياً على اليهودية . على أن حنانوس الصغير[1] الذي حصل على رئاسة الكهنوت ، كان ممعناً في الجرأة وعدم الاكتراث ، وكان ينتمي إلى طائفة الصدوقيين الذين كانوا أقسى اليهود في تنفيذ الأحكام . . . وإذ كانت هذه صفات حنانوس ، وإذ رأى

(١) هو الابن الخامس لحنان رئيس الكهنة المذكور في العهد الجديد . وقد كان أبوه واخوته الأربعة رؤساء كهنة من قبله كما يقول يوسيفوس . وقد أقامه أغريباس الثاني رئيس كهنة حوالي سنة ٦١ أو ٦٢ م ولم تدم رئاسته اكثر من ثلاثة شهور .

الفرصة موآتية له لأن فستوس كان قد مات ، وكان ألبينوس لا يزال فى الطريق، فانه جمع السنهدريم ودعا أمامه يعقوب أخا يسوع ، المدعو المسيح ، مع آخرين ، واتهمهم بنقض الناموس وحكم عليهم بالرجم ... على أن المعتدلين فى المدينة ، الخبيرين بالناموس ، غضبوا جداً ، وأرسلوا إلى الملك سراً طالبين منه أن يأمر حنانوس بالكف عن هذه التصرفات . وذهبت جماعة منهم لمقابلة ألبينوس الذى كان قادماً من الاسكندرية ، وذكروه بأنه ليس من حق حنانوس استدعاء السنهدريم دون علمه ...

« أما ألبينوس فاقتنع بما عرضوه عليه ، وكتب بغضب إلى حنانوس مهدداً إياه بالقصاص ... ومن أجل ذلك أيضاً حرمه الملك أغريباس من رئاسة الكهنوت التى كان قد تولاها ثلاثة أشهر، وأقام بدلا عنه يسوع بن داميئوس».

الفصل الثالث عشر

المثلث الاسم

تداوس أو لباوس أو يهوذا

هو التلميذ ذو الثلاثة أسماء ...

يدعوه البشير مرقس « تداوس » ويدعوه متى « لباوس » ، ويسمى فى كتابات لوقا «يهوذا أخا يعقوب» (لوقا ٦ : ١٦ وأعمال ١ : ١٣) . على أن فريقاً من علماء الكتاب يذهب إلى أن لباوس ويهوذا اسمان لشخصين مختلفين ، وأن الأول كان قد مات فى حياة المسيح ، وأن يهوذا قد أختير ليحل محله . ولكن تنقصهم الأدلة المقنعة لإثبات هذا الرأى ، وخير أن نقبل الرأى التقليدى الذى أيده الكتّاب الأولون ، ونسلّم بأنه كان لهذا التلميذ أسماء ثلاثة .

وقد ذكر اسمه بقائمة الرسل الاثنى عشر التى رواها البشيرون . وذكر مرة فى بشارة يوحنا مميزاً عن الاسخريوطى (يوحنا ١٤ : ٢٢) . وكان فى تلك الليلة كليماً سائلا ، كما ذكر فى سفر الأعمال زميلا للرسل فى العلية بعد الصعود .

و « لباوس » كلمة أرامية معناها « صاحب القلب » . و « تداوس » كلمة أرامية أصلا ويونانية صورة ومعناها «رجل العاطفة» . و «يهوذا» كلمة عبرية معناها « الممدوح » . هذا هو التلميذ صاحب القلب ، ورجل العاطفة ، والممدوح .

وفيما عدا ذلك لا نعرف عنه شيئاً من أسفار الأناجيل ، إلا ما كتبه فى رسالة يهوذا التى ينسبها بعض الشراح اليه . ويكاد يجمع الباحثون على أن يهوذا هذا كان أخاً ليعقوب بن حلفى ، وهو أخو الرب . ومن ثم يكون يهوذا ابنا ليوسف وأخا للمسيح .

أما عن رسالة يهوذا ــ وهى أحد الأسفار القانونية فى الأنجيل الكريم ــ فإنها

تتألف من فصل واحد . ولعل اشارة كاتبها ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى بعض الأسفار غير القانونية – خارج اسفار العهد القديم – تلقى بعض الضياء على شخصية الكاتب . وغير خاف أنه فى القرن السابق ، والقرن اللاحق للتاريخ الميلادى ، صدرت فى أنحاء الجليل – وهو القسم الشمالى من فلسطين الذى كان أهم مسرح لخدمة المسيح وتعاليمه – :بذا و كتب كثيرة ، وهى المعروفة بالأسفار غير القانونية ويقتبس يهوذا كاتب الرسالة من سفر أخنوخ السابع ، ومن شهادات الآباء الاثنى عشر ، ومن شهادة موسى . وقد لا نعدو الصواب إذا نحن قلنا انه كان لهذه المؤلفات الجليلية تأثير فى ذهن الكاتب ، مما يصح أن يؤخذ دليلا على أنه كانت تربطه بالجليل علاقة ما . ولما كانت هذه المؤلفات قد ذاعت فى القرن السابق للميلاد ،وفى القرن الأول اللاحق ، وهى مؤلفات يهودية جليلية وليست مسيحية ، فانه من الصواب أن يقال إن الكاتب انحدر من أصل جليلى ، وبلغ مكانة النفوذ فى مدى نصف قرن من تاريخ الصلب . وهذه الحقائق المنبعثة من دراسة الرسالة ، هى التى حملت جمهرة العلماء المسيحيين على التسليم بوجهة النظر التقليدية التى تقول ان كاتب الرسالة هو يهوذا المعروف فى بشائر الانجيل كاحد الاثنى عشر وأحد « اخوة الرب » . والغريب انه يستهل الكاتب رسالته بقوله « يهوذا عبد يسوع المسيح وأخو يعقوب » . ويقول الشراح ان يعقوب المشار إليه هنا هو يعقوب بن حلفى ، أخو الرب ، والذى عين أول أسقف لكنيسة أورشليم. ونحن نفترض أن يهوذا الجليلى ، الذى تربى فى الناصرة مع يسوع المسيح ، وأحد الرسل الاثنى عشر المختارين ، هو الذى كتب هذه الرسالة فى النصف الأخير من القرن الأول إلى جماعة أو جماعات من المسيحيين فى الشرق الأدنى .

ولهذا التلميذ موقف معروف فى العلية ليلة العشاء الأخير ، حينما كان يلقى السيد وصاياه الوداعية . وما أن يسمع هذا التلميذ – ويدعوه يوحنا هنا « يهوذا ليس الاسخريوطى » – سيده يقول « بعد قليل لا يرانى العالم، وأما انتم فترونني

والذى يحبنى أظهر له ذاتى » ، حتى يحتج قائلا « ماذا حدث حتى انك مزمع أن تظهر ذاتك لنا ـ وحدنا ـ وليس للعالم » . ويمكن تأويل هذا السؤال بأحد معنيين ، فإما ان يكون التلميذ قد قصد « كيف هذا ، كيف تكون منظوراً لنا نحن التلاميذ ، وغير منظور للعالم كله » . ومثله فى هذا مثل نيقوديموس الحبر اليهودى يوم قال « كيف يكون هذا ؟ » . اما المعنى الآخر فهو : « كنا ننتظر مجىء ملكوتك فى مجده وقوة ، أمام أعين جميع الناس ، فماذا حدث حتى تغير برنامج حياتك » . كانت افكار التلميذ خاطئة عن المسيا المنتظر ، فقد كان يتوقع هو وزملاؤه أن المسيح سيظهر ذاته لخاصته وللعالم معا ، بأن يقيم نفسه ملكا أرضيا ، سياسيا . فلما سمع يهوذا قول المسيح ، أحس أن آماله فى ملكه قد خابت وراح يسأل : ماذا جرى، حتى تظهر لنا فقط ، فى دائرة ضيقة ، لا فى العالم كله.

والمسيح ، فى اجابته ، لم يحاول أن يبين الفارق بين الملك الروحى ، والملك الأرضى المادى ، ولكنه قال : « ان احبنى أحد يحفظ كلامى » . هذا هو الشرط الأول الذى تفرضه محبة التلميذ لسيده ، والتى تضمن له أن يرى معلنات السماء فى مملكة الروحيات .

* * *

وتقول التقاليد ـ أي الأحاديث المتواترة عن الآباء الأولين — ان يهوذا جال ينادى برسالة الانجيل فى بلاد كثيرة ، ثم مضى بعد ذلك إلى سورية وما بين النهرين ، فآمن كثيرون على يديه . ويقول تاريخ الأرمن القديم ان تداوس كان أول من غرس البذرة المسيحية فى بلادهم .

ويروى يوسابيوس[1] فى تاريخه قصة مأثورة شائقة عن التلميذ يقول فيها

(١) الفصل الثالث عشر من الكتاب الأول .

ان الملك ابجارا ملك ادسا Edessa[1] الذى حكم الشعوب القاطنة وراء نهر الفرات أصيب بمرض مروع عجزت عن شفائه كل حكمة البشر ، وانتهت الى سمعه أنباء يسوع ومعجزاته ، فبعث اليه برسالة مع رسول خاص يدعوه للقدوم اليه . وقد نقل المؤرخ القديم نص تلك الرسالة ، ورد المسيح عليها ، وما تلاها من أحداث ـ من مستندات مملكة ادسا ، وكانت محفوظة فى عصره فى السجلات العامة الرسمية المتضمنة أعمال ملوكها ـ والى القراء نص الرسالة التى نقلها يوسابيوس من اللغة السريانية :

الرسالة التى كتبها ابجارا الحاكم إلى يسوع ، وأرسلها اليه فى أورشليم على يد حنانيا ، الساعى الخفيف الحركة ...

« ... السلام من ابجارا حاكم ادسا إلى يسوع المخلص السامى ، الذى ظهر فى مملكة أورشليم لقد سمعت انباءك وآيات الشفاء التى صنعتها بدون أدوية أو عقاقير . لانه يقال انك تجعل العمى يبصرون ، والعرج يمشون ، وانك تطهر البرص وتخرج الأرواح النجسة والشياطين ، وتشفى المصابين بأمراض مستعصية ، وتقيم الموتى .

« وإذ سمعت كل هذه الأمور عنك ، استنتجت بأحد أمرين ، كلاهما صحيح ، فاما انك انت الله هبطت من السماء ، وأما انك ابن الله اذ تصنع هذه الأمور » .

« لذلك كتبت اليك راجياً أن تكلف نفسك مشقة المجيء الى ، لتشفينى من المرض الذى أعانيه ، لأننى سمعت ان اليهود يتآمرون عليك لايذائك . ولدى مدينة جميلة ، تتسع لكلينا ، على صغرها » .

---

(١) ادسا عاصمة مملكة ابجارا ، وكانت مدينة شمال غرب مابين النهرين ، قريبة من الفرات . ويظن بعضهم انها كانت فى موقع أور الكلدانيين موطن ابراهيم . وقد لعبت هذه المدينة دوراً هاماً فى التاريخ المسيحى ، فيها اسس افرام السريانى مدرسة لاهوتية فى القرن الرابع ، غير انها وقعت فى ايدى الاريوسيين بعد موته .

اجابة المسيح على الحاكم ابجارا

بيد الرسول حنانيا

« ... طوبى لك يا من آمنت بى دون أن ترانى . لأنه مكتوب عنى ان الذين رأونى لايؤمنون بى ، أما الذين لم يرونى فيؤمنون ويخلصون . أما عن مجيئى اليك ، فانى مضطر أن أتمم هذا الرسالة التى جئت من أجلها . وبعد ذلك أعود الى الذى أرسلنى . على انه بعد صعودى سأبعث اليك بأحد تلاميذى ليشفى مرضك، ويعطى حياة لك ولآلك » .

وقد اضيف لهاتين الرسالتين اللتين نقلهما المؤرخ يوسابيوس عن السجلات الرسمية البيان التالى باللغة السريانية :

« وبعد صعود يسوع أرسل يهوذا الذى يدعى توما[1] أحد السبعين المدعو « تداوس » [2] . ولما أتى سكن مع طوبيا بن طوبيا ، ولعله كان يهودياً . ولما ذاع خبره ، قيل للملك ابجارا ان أحد رسل يسوع قد جاء إتماماً للوعد .

« وأخذ تداوس يشفى كل مرض ، وكل ضعف ، بقوة الله ، حتى تعجب الجمع . ولما سمع الملك ابجارا بالأعمال العظيمة التى صنعها ، وآيات الشفاء التى أجراها أخذ يفكر فى ان هذا الانسان قد يكون الرسول الذى كتب عنه يسوع: بعد صعودى سأبعث اليك بأحد تلاميذى .

(١) لم يعرف توما باسم يهوذا ، على انه قد دعى باسم «يهوذ توما» فى « أعمال توما» وفى كتاب « تعاليم الرسل » السريانى .

(٢) الظاهر أن بعض الأثنى عشر حسبوا ضمن السبعين . ويقال ان متياس الذى انتخب ليكون تلميذاً بعد يهوذا الخائن كان أيضاً أحد السبعين ، هو والشخص الآخر الذى كان مرشحاً معه (يوسف الذى يدعى بارسابا الملقب يوستس) . كما قيل ان تداوس كان أيضاً فى الوقت عينه أحد السبعين .

« لذلك استدعى الملك طوبيا الذى كان يسكن معه تداوس وقال : سمعت ان شخصاً ذا سلطان أتى الى هنا ، وهو يقيم معك فى بيتك . احضره إلى . فأتى طوبيا الى تدواس وقال له : استدعانى الحاكم ابجارا وأمرنى ان آخذك اليه لكى تشفيه . فقال تداوس : سأذهب لأنى بسلطان أرسلت اليه .

« ومن ثم قام طوبيا مبكراً فى اليوم التالى ، وأخذتداوس وأتىالى ابجارا ، وكان أشراف مملكته قائمين حوله . وحالمادخل ظهرت رؤيا باهرةلابجارا فىوجه الرسول تداوس . ولما رآها ابجارا انطرحأمامتداوس، حتى تعجب كلالواقفين، لأنهم لم يروا ما رآه الملك .

« ثم استعلم من تداوس ان كان هو حقاً تلميذ يسوع ابن الله ، فقال تداوس: لأنك آمنت باقتدار من أرسلنى ، فها قد جئت اليك . وان كنت تؤمن به ، فسيمنح لك سؤل قلبك ، حسب ايمانك . فأجاب ابجارا : لقد آمنت ، حتى لقد وددت ان اجرد جيشاً ، وأهلك الذين صلبوه ، لو لم يمنعنى سلطان الرومان . فقال تداوس : لقد تمم ربنا إرادة الآب ، وإذ تممها أصعد اليه . فأجاب ابجارا : وأنا أيضاً آمنت به وبالآب .

« فقال تداوس : لذلك أضع يدى عليك باسمه. ولما فعل ذلك شفى ابجارا فى الحال من المرض والآلام التى كان يعانيها . فذهل ابجارا لأنه نال بالفعل ما عنى بدون دواء ولا عقاقير . وليس هو وحده بل أيضا ابدوس بن ابدوس الذى كان مصاباً بالنقرس (داء المفاصل) ، والذى أتى هو أيضاً ، وسقط عند قدميه ، ونال منه البركة بوضع يديه . ولقد شفى تداوس كثيرين ، وصنع أعمالا مدهشة، ونادى برسالة المسيح » .

وظل تداوس زماناً يبث الدعوة فى هذه البلاد، حتى آمن الملك وكل شعبه . ولم تذكر التقاليد شيئاً عن استشهاده ، وأغلب الظن انه جاهد جهاداً طويلا. ومات ميتة طبيعية .

الفصل الرابع عشر

الغيور

هو سمعان القانوى، لا نعرف عنه شيئاً من قصة الانجيل سوى ذكر اسمه فى قائمة الرسل (متى ١٠ : ٣). واسمه غريب حقاً، فان لقبه «القانوى» سياسى لا جغرافى، وكلمة «قانوى» عبرية من «قنا» معناها هاج واحمر. لذلك اطلق عليه البشير لوقا لقب «الغيور». وهذا اللقب يجعله عضواً فى حزب الغيورين الارهابيين، الذين رفعوا راية العصيان تحت زعامة يهوذا الجليلى فى أيام الاكتتاب (أعمال ٥ : ٣٧)، وذلك قبل ان يبدأ المسيح خدمته العامة بعشرين عاماً ...

والمدهش حقاً ان التقليد لم يذكر شيئاً عن هذا التلميذ، ولم تتعرض له كتابات الأولين اطلاقاً، وقد ذكر اسمه بين التلاميذ الذين دلفوا الى العلية فى أورشليم بعد صعود المسيح، حيث كانوا يواظبون بنفس واحدة على الصلاة (أعمال ١ : ١٣) مما يدل على انه ظل أميناً مخلصاً لعهد التلمذة الى المنتهى.

ولحكمة سامية اختاره المسيح بين صحابته. فأنت لست واجداً فى بطون التاريخ البشرى اختلافا صارخا فى الروح والمبادىء والغايات والوسائل مثل الاختلاف بين هذا الثائر «الغيور»، وبين المسيح. فهو متمرد سياسى، يأبى الخضوع لرومية ويشهر فى وجهها الخنجر القتال، بينما استهدف يسوع السلام والمحبة، وأمر أن يعطى ما لقيصر لقيصر. وحسناً فعل ذلك الثائر المتمرد بالخروج على حزبه والانضمام تحت لواء يسوع، ذلك لأن الحزب الذى تخلى عنه جلب فيما بعد الدمار والخراب على الأمة بأسرها، ولاشى كيانها السياسى من التاريخ.
وكنا نتوقع — على مقتضى الحكمة البشرية — ان يتريث المسيح قبل اختيار تلميذ

كهذا قد لا يؤمن جانبه كجاسوس خطر ، أو قد يثير وجوده بين الجماعة متاعب سياسية مع الهيئة الحاكمة . ولكن رئيس ايماننا كلى الحكمة ، وقد آثر أن يجمع بين تلاميذه المتناقضات الصارخة ، وان يكتسب الأنصار من الطبقات الثائرة ، والطبقات المنبوذة .

واجتماع متى العشار منبوذ الشعب ، مع سمعان الغيور معبود الدهماء ، مع صيادى الجليل الكادحين ، فى هيئة واحدة ، انما كان رمزاً الى كنيسة المستقبل التى سوف تجمع تحت لوائها كل صنوف البشر وأجناس الناس .

* * *

ولعل خير مانفعله الآن أن نورد فذلكة تاريخية عن الحزب الذى انتمى اليه سمعان الغيور ، وما آل اليه مصيره بسبب الغيرة العمياء ، التى تسوق أصحابها الى الحتف والبوار :

كان اليهود (إذا استثنينا الفترة من ٤١ — ٤٤م التى خضعوا فيها لحكم الملك هيرودس أغريباس الأول) تحت الحكم الرومانى مباشرة من سنة ٦م إلى تاريخ زوالهم كأمة ذات كيان . فى سنة ٦ ميلادية أدمجت اليهودية فى ولاية سورية كيليكية ، ومن ثم باتت تحت سلطان نائب الامبراطور الذى كان مقره فى انطاكية . ولكن نظراً لبعد المسافة بين أورشليم وانطاكية ، كان يعين وال على اليهودية ، مقره فى قيصرية ، ولكنه كان يقيم أحياناً فى أورشليم ، وخاصة فى المواسم والأعياد . ومع أن الوالى كان مسئولا نظريا أمام نائب الامبراطور فى سورية ، فان ولاة اليهودية فى الواقع تمتعوا بقسط وافر من الاستقلال . ولم يكن من اليسور الاشراف عليهم أو محاسبتهم على تصرفاتهم . وكان نواب الامبراطور أو الحكام ينتخبون عادة من الأسر النبيلة العريقة ، ومن ذوى الأخلاق العالية الكريمة ، وممن تلقوا قسطاً وافراً من التعليم والثقافة الارستقراطية . أما الولاة

فكانوا في أغلب الأحيان يُنتخبون من « المحدثين في الغنى » ، تنقصهم الخبرة والدراية ، ويعوزهم النبل الأخلاق الذي يختفي عادة من النفوس التي تغتر بالغنى المفاجىء والترقية السريعة . وقد كانت نكبة أن يعين أمثال هؤلاء ولاة على اليهودية ، وهي المنطقة الحساسة الثائرة يومئذ في جسم الامبراطورية الرومانية . ويضاف الى سوء الحكم ، حساسية الشعب . فمنذ موت هيرودس الكبير ، أخذت ترتفع درجة الغليان في نفسية ذلك الشعب ، وقوى فيهم ذلك الأمل الذي كان يراودهم دائماً ، بأن تدخلاً إلهياً فجائياً سوف يحدث لقلب النظام الحالي ، وانقاذهم من براثن رومية . وقد صم هذا الأمل آذانهم ، وأعمى بصائرهم ، وأضل تفكيرهم ، فما فطنوا إلى العواقب الوخيمة التي أوقعهم فيها افراطهم في التمني ، وامعانهم في التجني ...

ولم يكن هذا شأن اليهود جميعاً . فالفريسيون مثلا لم يتأثروا بهذه الآمال ، وشغلوا بدراساتهم وتعاليمهم ، وأيقنوا ان الله ، إن تدخل ، فسوف يتدخل على طريقته الخاصة ، وفي الزمن الذي يعينه . ولكن الصاخبين الثرثارين هم الذين التف حولهم الشعب ، وكان « حزب الغيورين » من أكثر الجماعات صخباً ولجاً في الدعاية ، ونادوا بالعصيان السافر ضد رومية ، كواجب ديني ، متخذين شعارهم « ليس لنا ملك إلا الله » . ولم يتورعوا في السعي الى غاياتهم عن استخدام أسلحة العنف ، والقتل ، وسفك دماء الأبرياء . وطبيعي أن ينضم تحت لواء هذا الحزب المتمردون الثائرون ، واللصوص وقطاع الطرق (وكانت فلسطين تعج بهم في ذلك الحين) ، وذلك لأن الارهابيين لا يصطادون عادة إلا في المياه العكرة . ويبين ان الروماني لايقدر ان يفهم وجهة نظر الغيورين ، لأنه ــ وهو رجل عملي ، مادي ، قليل التصور والخيالات ــ ينظر الى أحلام اليهود وآمالهم وأمانيهم نظرة استخفاف وازدراء . لذلك لم يتخذ الرومان أية خطوة لحل « مشكلة الغيورين » الى أن

إستحكمت حلقاتها ، واستعصى حلها ، واضطر الرومان فى سبيل التخلص منها ، إلى إبادة الأمة والقضاء عليها .

وبهذه الطريقة ظل « الولاة » يداورون ويماطلون ، ويلفون ويدورون ، مدة سبعين عاماً ، كانت الأحوال فى خلالها تسير من سىء إلى أسوأ ، واتبع الطرفان سياسة وخز الابر ، فظالم حقيرة من جانب الرومان (أنظر مثلا لوقا ١٣ : ١) وعصيان وتحد من جانب اليهود (أنظر مثلا لوقا ٢٣ : ١٨ ـ ٢٥) .

ولا حاجة بنا هنا أن نطيل الحديث عن الولاة أنفسهم . فإن بيلاطس البنطى لم يكن أشرهم ، وقد وجد نفسه وقت محاكمة المسيح فى مركز حرج دقيق . فلو أنه أصر على اطلاق سراح يسوع، لحدثت فتنة لأن أعداء يسوع لعبوا بالورقة الرابحة فى إثارة الشعب ، وكانت عدة الجيش الرومانى المرابط فى اليهودية وقتئذ ضعيفة لا تزيد عن قوة بوليسية ، ولم يكن لدى بيلاطس من الجند ما يكفيه لإخماد ثورة فى أورشليم ، فى وقت عيد الفصح الذى تفد فيه الى المدينة ألوف من الحجيج، وكل ثورة تغذيها العواطف الدينية ، تجمح عادة جوحاً سيئاً لا تحمد مغبته .

وقضية بولس تماثل الى حد ما قضية سيده . لأن أعداء الرسول الكبير أثاروا الدهماء ، واتهموه بأنه ينقض الناموس ، وكان ذلك فى عيد كبير هو عيد الخمسين . ولكن الى هنا ينتهى التشابه بين الحالتين . لأن الوالى فيلكس لم يكن فى أورشليم يومئذ ، فأرسل بولس الى قيصرية . وهناك فى المدينة التى كانت غالبية سكانها من « الأمم » ، لم تتهيأ الظروف المواتية للغوغاء اليهودية الثائرة المتعصبة . وقد عرف أعداء بولس هذه الحقيقة ، وحاولوا إقناع فيلكس لتكون المحاكمة فى أورشليم . ولو كان يسوع قد حوكم فى قيصرية ، لما وجد بيلاطس صعوبة فى اطلاق سراحه . ثم ان بولس كان رومانى الرعوية ، ويسوع لم يكن كذلك . وكان فى وسع بولس أن يستأنف دعواه أمام قيصر ، أما يسوع فلم يكن له هذا الحق . .

ومن أسفار العهد الجديد نعلم أن والياً آخر خلف فيلكس ، هو فستوس (أعمال ٢٥ : ٦). وآخر اولئك الولاة كان يدعى « فلوراس » ، قدم الى اليهودية سنة ٦٤م وقت اشتداد الأزمة وتحرج الأحوال . وسرعان ماتقلد مهام منصبه حتى اشتبك مع اليهود فى نزاع حول مشكلة صغيرة تتعلق بمبلغ من المال طالب به من خزينة الهيكل . فقاومه اليهود أشد المقاومة، ووجد الرجل نفسه أمام مدينة ثائرة متمردة ، قوية التحصين ، تلتهب بنار التعصب الدينى والعنصرى . وهنا يتدخل نائب الملك فى سورية ، ولكن الثورة كانت قد نشبت ، وحمل الثائرون السلاح فى كل أنحاء البلاد دفاعاً عن دينهم ... أخيراً هبت العاصفة التى كانت تختمر مدة طويلة ، واشعلت نيران الحرب بين اليهود وروميه.وكان الرومان بين أحد أمرين، إما أن يغادروا فلسطين،أويتخذوا أعنف الاجراءات لاعادةسلطتهم. وقد اختاروا الأمر الأخير ، وفى سنة ٦٧م وصل القائد «فسبسيان» ومعه الامدادات الحربية ، مزوداً بسلطان للقضاء على « الغيورين » مهما كلفه الأمر .

وكان واضحاً لكل ذى عينين من بادىء الأمر، ان اليهوديلعبون على الجواد الخاسر ، وان الحرب التى بدأوا يضرمون أوارها من أحمق المغامرات التى رواها التاريخ . وقد سجل المؤرخ اليهودى يوسيفوس أحداث تلك الحرب تفصيلا ، وهو المصدر الذى نستقى من كتاباته اكثر وقائع التاريخ فى القرون الأولى ... وكان فلافيوس يوسيفوس هذا من أسرة كهنوتية عريقة ، أصاب حظاً موفوراً من العلم والثقافة ، ودرس القانون (الشريعة أو الناموس) وكان نابهاً فى دراسته . وتنبىء كتبه وكتاباته العديدة على سعة اطلاع ، وعلى علم واسع بالأفكار والامصار . وكان قد زار رومية ، وفهم وجهة النظر الرومانية ، وتمرس بعادات الرومان وأخلاقهم . وكان فى هذا على نقيض أبناء جلدته من اليهود ، ولكنه كان مزيجاً غريباً . فهو قد أحب جنسه ، واعتز بسلالته ، وأحب الخير لأمته وبلاده .

ولكنه رأى في الوقت عينه أن سياسة الوطنية المتطرفة سوف تجرُّ على بلاده النكبات والويلات ، وحاول المرة تلو الأخرى أن يستميل إليه قادة الشعب وزعماءه وخاصة رؤساء الكهنة . وفي الأوقات العادية كان يمكن ليوسيفوس أن يكون سياسياً محنكاً ، ولكن الزمن الذي عاش فيه لم ينبت إلا الصفات والمزايا القليلة الشأن . وإنك لتحسُّ وأنت تقرأ كتاباته بذلك الانطواء على الذات ، وهو يروي الحيل والألاعيب المختلفة التي لجأ إليها للخلاص بجلده . ولا ينكر الباحث أنه كان وطنياً شجاعاً إلى حدٍّ ما ، ولكن مصلحته الخاصة كانت دائماً توقفه عند حدِّ الحرص عليها . وكان يوسيفوس جندياً شجاعاً اشترك في الحرب اليهودية إلى أن وقع أسيرا بأيدى الرومان . ويسوقه حسن الطالع إلى أن يتنبــأ وهو في الأسر أن فسبسيان قائد الجيش في اليهودية سوف يجلس على عرش رومية . ولسنا ندرى أكان مصدر هذه النبوة بعد نظره ، وإصالة رأيه ، وصدق فراسته أمام الحوادث الجارية ، أم حظ مقامر ضرب ضربة عشواء . على أنها كانت له الخير كله ، فقد أحسن آسروه معاملته ، وبعد أن ارتدى فسبسيان الإمبراطور حلّة العرش الارجوانية ، علا نجم يوسيفوس في عهده ، وظل موضع التجلة والتقدير في عهد ابنه تيطس .

ويوسيفوس ــ شأن كل قدماء المؤرخين ــ لا يُعتمد عليه اعتمادا مطلقاً . ولكن إذا غضضنا الطرف عن بعض مواضع المغالاة والمبالغة في رواياته ، وعن اغراقه في إطناب شجاعته وبسالته ، نراه قد ترك للعالم بعده أدق تاريخ لوصف حوادث ذلك الزمن .

وقد حاول فسبسيان في أطوار الحرب الأولى أن يطهر الجليل ومناطق الريف من شراذم الغيورين ، وبعد ذلك يحصر الحرب في أورشليم . وقد اقتضته هذه العمليات الحربية أن يحاصر عدة مدن ، كان يوسيفوس جندياً يهودياً في إحداها ، فوقع أسيرا بين أيدى الرومان . وما أن تنتهى هذه العمليات حتى يتلقى الجيش نبأ انتحار نيرون ، وكانت تلك فترة عصيبة في تاريخ الإمبراطورية ، وصفها المؤرخ الرومانى تاسيتوس في الفصل الأول من كتابه الأول « التاريخ » بقوله : إننا نقترب

من فترة حافلة بالنكبات ، تهددنا فيها الحرب والمنازعات الأهلية ... ان أربعة من الأباطرة قتلوا بحدّ السيف» . وفى وسط هذه الأزمة الخانقة، اتجهت أنظار الجيش إلى فسبسيان ، ونودى به امبراطوراً فى قيصرية ، ثم أسرع إلى مصر ليضمن ذلك الاقليم ، الذى كان يغذى رومية بأهراء الحنطة ، وبعد ذلك انطلق إلى إيطاليا ، واستتب له السلطان ...

وقد اعترضت هذه الحوادث الحرب فى اليهودية إلى حين ، ولكنها لم تؤثر فى نتائجها ، ذلك لأن فسبسيان ترك القيادة بيد ابنه تيطس ، الذى بدأ بحصار أورشليم فى ربيع سنة ٧٠ ب . م ولكن المدينة لم تسقط إلا بعد خمسة أشهر ، قضاها الأهلون كأنهم فى نار جهنم . وكان الغيورون قد احتلوا الهيكل والمدينة كلها ونظموا الدفاع عنها . وأذاعوا من بدء القتال أنهم لن يخضعوا للغزاة الغاصبين، وفى هذا السبيل قتلوا كثيرين من مواطنيهم ، من المعتدلين أو المشتبه فيهم . وكان الغيورون أنفسهم أحزاباً ، يحارب بعضها بعضاً ، حتى فى الوقت الذى عسكرت فيه الجحافل الرومانية خارج أسوار أورشليم . وذلك لأنهم آمنوا يقيناً أن صهيون لن تؤخذ عنوة ، وأن يهوه لن يتخلّى عن هيكله ، وأنه فى النهاية سيتدخل لينقذ شرفه وجنوده الأمناء . . ولكن البطاريات الرومانية ظلّت ترعد وتزمجر ، على الرغم من نجاح بعض الهجمات المضادة التى قام بها اليهود ، وسقطت أبراج المدينة وحصونها وأسوارها بين أيدى الرومان . وكان ذلك فى أشد أيام القيظ ، وقد تفشت الأوبئة ، وفشت المجاعات التى روى يوسيفوس الكثير من أنبائها المريعة المفزعة . وحتى الذين كانوا يهربون ، ويسلّمون أنفسهم للرومان ، كان الغيورون يقتلونهم من وراء ظهورهم ، أو يقتلهم الرومان (ضد أوامر تيطس) ، وذلك لأن اشاعة سرت بأن الهاربين من اليهود قد ابتلعوا الذهب فى بطونهم قبل أن يغادروا المدينة.

وأخيراً أعمل الرومان النار فى أسوار الهيكل ، وبات الهيكل المقدس رماداً،

والمدينة كلها خرابا يباباً ، وصدقت نبوة يسوع يوم قال « لا يترك حجر على حجر لاينقض » (مرقس ١٣ : ١ و ٢) .

ان سقوط أورشليم وانتهاء تاريخ اليهود كشعب له كيانه المستقل ، انما كان مرده الى المحاولات الفاشلة لإقامة ملكوت الله بقوة السلاح ، استناداً الى عقيدة خرافية في قدسية الهيكل المادى، وانكار قدسية الحياة الانسانية... ان الغيورين قد فشلوا فشلا ذريعاً ، لأنهم أنكروا مبدأ الحق ، وهو ان ملكوت الله لن يقوم إلا على البر والعدل والمحبة ...

ألم يحسن سمعان القانوى (الغيور) صنعاً في ترك حزب الغيورين ، حزب الحديد والنار والخنجر ، والانتماء الى جماعة تلاميذ يسوع ، التى شعارها الحق والبر ، والرحمة والعدل ؟! ...

الفصل الخامس عشر

التلميذ الخائن

فى تلك الليلة المأثورة ، ليلة الصلب ، وفى أثناء العشاء الأخير أزاح المسيح القناع عن خيانة كانت مستكنة فى صدر أحد صحابته ، وفضح رسولا كانت تحدثه نفسه الامارة بالسوء عن جريمة بشعة . وكان أثناء غسل أرجل تلاميذه قد أومأ إيماءة عابرة إلى هذا الرجس بين التلاميذ ، إلى أنهم أطهار ولكن واحداً منهم قد تبطنت نفسه بالإثم . وبعد أن فرغ من هذه المهمة الوضيعة ، تمثيلا لتواضعه وخدمته ، أخذ يفصح عن هذا الاثم المستتر ، وعن التلميذ الذى ألمح اليه . وبروح أضناها التفكير فى الافضاء بهذا السر الثقيل على نفسه ، وبنفس ترتعد أمام هول هذا الشر بدأ يقول :

« الحق الحق ، أقول لكم ان واحداً منكم سيسلمنى » .

واجابة على أسئلة تلاميذه عيّن هذا الانسان بالذات ، قائلا ان الخائن هو الذى أغمس اللقمة وأعطيه إياها .

وكانت هذه الواقعة مثار دهشة للتلاميذ ، ولكنها لم تدهش السيد ، الذى كان قد عرف أن خائناً بين صحابته الأقربين يحبك جريمة فى الظلام . والواقع أنه كان قد ألمح إلى هذه الخيانة قبل سنة ، ولكنه أخفاها عبئاً ثقيلا فى قلبه ، وقد حان الحين ليفضح هذا السر الذى لم يعد خفياً ، لأن الساعة قد أتت التى يتمجد فيها ابن الإنسان .

أما يهوذا فكان قد استقر رأيه على أن يكون أداة لتسليم سيده إلى الموت ، وعلى أن يقوم بفعلته الشنعاء فى غير إبطاء . لذلك أراد يسوع أن يتخلص من

عشرة هذا الأثيم ، وأن يقضي السويعات القلال الباقية من حياته في زمالة عذبة ، وفي ألفة ودودة ، مع أحبائه المخلصين الأوفياء ، بمنجاة عن المضايقات التي قد تنشأ عن وجود عدو زنيم ، وأن يكن حتى الآن مستتراً . وهو لم ينتظر الساعة التي يحلو فيها ليهوذا أن ينطلق ، بل يأمره بالذهاب فوراً ، معلناً سلطانه عليه ، حتى بعد أن خان عهد الولاء ، وقلب له ظهر المجن ، وباع نفسه لخدمة الشيطان . وبعد أن يناوله اللقمة يقول له : أنا أعرفك يا يهوذا . أنت هو الإنسان ! لقد اعتزمت أن تسلمني . « ما أنت تعمله ، فاعمله بأكثر سرعة » . وكان هذا أمراً مطاعاً ، فانطلق الخائن على الفور .

غادر الجماعة التي كان عضواً غريباً فيها . وان المرء ليتساءل : كيف أختير الاسخريوطي ليكون واحداً من الاثني عشر . ألم يكن يسوع يعرف أخلاق هذا الإنسان يوم اصطفاه تابعاً له ؟ إن الكلمات التي نطق بها يسوع ساعة غسل أرجل تلاميذه « أنا أعلم الذين أخترتهم » تستبعد هذه الفكرة ، ومعنى هذا أنه عرف كل شيء عنهم حينما اصطفاهم . فهل اختار يهوذا ، وهو عالم خبيئة أمره ، ليكون بين الاثني عشر ، واحد يسلمه فتكمل بذلك الكتب ؟ هذا ما ألمح إليه ضمن العبارة التي أشرنا إليها ، لأنه أردف يقول : « ليتم الكتاب : الذي يأكل معي الخبز رفع علي عقبه » ...

على أنه بعيد أن يكون الاسخريوطي قد أختير ليكون خائناً وحسب ، كأنه ممثل اختاره المخرج ليلعب على المسرح دور « ياجو » في رواية « عطيل » للشاعر الخالد شكسبير . قد يكون القصد المشار إليه هنا قد كمل في نهاية الأمر بسبب اختياره ، على أن هذه الغاية لم تكن الباعث إلى اختياره . ولا نكاد نصدق بأن يهوذا قد صار تابعاً للمسيح وقد انطوت نفسه على نوايا خبيثة شريرة من أول الأمر ، كما لا نكاد نصدق بأن يسوع قد اصطفى يهوذا ليكون أحد الاثني عشر ، لأنه عرف مقدماً أنه سيكون الخائن فيما بعد .

وإذا كان اختيار هذا التلميذ الخائن لم يكن عن جهل ، أو عن علم سابق ، فكيف نعلله ؟ ان التعليل الوحيد الذى يخطر بالبال هو أن يهوذا كان فى مظهره إنساناً مقبولاً ، لاتبدو فى صفاته وسجاياه ما ينفر الناظر إليه. وفى هذه الحالة كان اختيار يسوع له أمراً مفهوماً . ولم يفعل ربُّ الكنيسة شيئاً غير ما ينبغى أن تفعله الكنيسة فى الظروف المماثلة. فالكنيسة تختار رجالاً ليشغلوا وظائف مقدسة ، على مقتضى مؤهلاتهم ومزاياهم الظاهرة من علم ، وغيرة ، وتقوى ، ومسلك خارجى. وفى أحيان يكون اختيارها بعيداً عن التوفيق ، وتخلع رداء الكرامة على أناس من طراز يهوذا ، فيهيلون التراب فى وجهها ، ويشينون الوظائف التى يلونها ، وتكون الاساءة بالغة . على أن يسوع قد علمنا ، بمثاله فى اختيار يهوذا ، وفى مثل الزوان ، أنه يجب أن نخضع للشر ، ونترك العلاج لمن بيده البرء من الداء . وطالما أخرج الله الخيرَ من الشرّ ، كما فعل فى حالة هذا الخائن الذى بات مثلا فى التاريخ .

وهبوا يهوذا قد أُختير للرسالة على مقتضى اللياقة الظاهرة ، فأى إنسان هو فى الواقع ؟ أهو وغد دنىء ، تسربل بثوب الرياء ، لتحقيق غاية دفينة فى نفسه ؟ لعلّ هذا أيضاً بعيد الاحتمال ، فقد كان هذا التلميذ الزائف دقيق الحسّ ، من أهل التقى المخدوعين ، عرف الخير واستصوبه ، ولكنه لم يمارسه عملا . أحسبه إنساناً ، مال فى شعوره وخياله وفكره إلى الأشياء النبيلة الطاهرة ، ولكنه فى إرادته وسلوكه كان عبداً لشهوات دنيئه أنانية ... إنساناً يضع ذاته فوق كل شىء ، ومع ذلك يقدر أن يهب نفسه لفعل الخير حينما لا يتعارض مع مصالحه الخاصة ... إنساناً يصحُّ فيه ماقاله الرسول يعقوب « رجل ذو رأيين ».

وبهذا الوصف ، لا نرسم يهوذا وحشاً ضارياً لا مثيل له بين الناس. فالتاريخ العالمى ، والدينى أيضاً ، يقدّم لنا نماذج كثيرة من يهوذا ، ساهمت بنصيب فى الشئون البشرية ...

فبلعام فى القديم الذى توافرت لديه رؤيا النبى ، ونفسية البخيل ، كان هذا الإنسان ...

وروبسبير نابغة الثورة الفرنسية الشرير ، كان إنساناً آخر من هذا الطراز. ذلك لأن هذا الرجل الذى طوّح برقاب ألوف إلى المِقْصَلة ، قد اضطر فى أيام شبابه إلى اعتزال وظيفة القضاء ، لأن ضميره لم يطاوعه أن يصدر حكم الموت على مذنب أُتهم فى جناية قتل ...

وثمة مثال ثالث أهم من هذين ، نجده فى الإغريقى الشهير « ألسبياديس » الذى جمع إلى جانب مطامعه الجشعة ، وإباحيته الفاجرة ، ومبادئه السافلة — جمع إلى جانب هذه كلها ولاءً منقطع النظير لأفضل وأنبل وأعظم منَ أنجبهم تاريخ الإغريق . وهذا الإنسان الذى خان وطنه ، واستعدى عليه الأعداء ، كان فى أيام شبابه تلميذاً غيوراً للفيلسوف سقراط .

وأخلاق يهوذا كما وصفنا ، فليس غريباً أن ينقلب خائناً . فالذى يحبُّ ذاته حبّـاً مفرطاً ، ويعلو بها فوق الأشخاص والمبادىء ، معرّض دائماً للوقوع فى التجربة والإنزلاق إلى الغواية. هو خائن فى قلبه منذ البدء ، وكل مايحتاجه توافر الظروف المواتية لإيقاظ العناصر الشريرة فى طبيعته . وهنا نتساءل: ما الظروف التى قلبت يهوذا من خائن فى طبيعة مستكنة ، إلى خائن فعلى «على المكشوف»؟

ان الجواب على هذا السؤال عسير حقاً . فإن الخيانة التى اقترفها يهوذا ، والتى جعلته « عَلماً » فى التاريخ ، كانت ومازالت ، على كثرة ما تعرضت له من تحليل ونقاش ، سرّاً غامضاً لا يمكن تعليله أو تأويله . ولقد اجتهد الباحثون والدارسون فى شرح البواعث الكامنة المحتملة ، التى ولدت هذا العمل القبيح اللعين ، وذهب بعضهم إلى التماس المعذرة للفاعل ، كما ذهب آخرون إلى تهويل الجريمة وصبّ اللعنات على مرتكبها . على أن هذه كلها لم تكن إلا من قبيل الحدس والتخمين ، ولا يقبلها

العقل • أما قصة الانجيل فلم تتعرض لتعليلها ، واكتفت بالالماع إلى شره يهوذا • على أن البشائر الثلاث الأولى فى الانجيل قد أشارت فعلاً إلى أن الخائن قد ساوم الكهنة ، وتناول منهم قدراً من المال لقاء الخدمة التى أداها لهم • كما أن يوحنا قد أشار فى قصة دهن قدمى يسوع بالطيب ، إلى أن التلميذ الذى احتج على هذا الصنيع كان «سارقاً» يبتز ما بقى فى « الصندوق » الذى كان بعهدته (يوحنا ١٢ : ٦) • وهذه الوقائع تصور يهوذا رجلا طامعاً جشعاً • ولا يأخذ مالا لأداء مثل هذه الخدمة غير إنسان شره جشع • أما الرجل المنتقم الذى جرحت كرامته ، أو تخيل أنه أسيء إليه ، فقد ينقلب خائناً إشباعاً لشهوة الانتقام ، ولكنه يحتقر رشوة من المال أجراً لعمله • كما أن اختلاس المال الضئيل الذى كان فى « صندوق » جماعة فقيرة دليل آخر على الدناءة والخسة • ولعل فى قيامه بامانة الصندوق بين الجماعة دليلا آخر على أن الطمع كان شهوة قلبه • وأغلب الظن أنه حمل أمانة الصندوق لأن آخرين من الصحابة لم يعبأوا بالمال ، أما هو فقد باتت نيته على الانتفاع بالفائض ، وما وجد الآخرون غضاضة فى أن يتولى هذه المهمة واحد عنهم ، وهم قد تعلموا من سيدهم ألا يفكروا فى الغد • لذلك لم يزاحمه فى هذه الوظيفة أحد منهم .

إذاً نرى البشيرين يصورون يهوذا إنساناً طامعاً جشعاً . على أنهم لم يصوروا جشعه كأنه الباعث الوحيد ، أو الباعث الأقوى ، لارتكاب الجريمة . وما نحسب أن الأمر كان غير ذلك ولو أن الجشع كان الباعث الوحيد ، لكان أفضل ليهوذا أن يبقى أميناً للصندوق ، يختلس منه ما تيسر ، من أن يبيع سيده لقاء دراهم معدودات لا تربو على خمسة من الجنيهات . ثم ما الذى يغرى إنساناً شهوته الغالبة محبة المال ، أن يصير تلميذاً ليسوع ؟ ان السير وراء من لم يكن له أين يسند رأسه ، ليس وسيلة لاقتناء المال وإشباع شهوة الطمع الاشعبي . وأيضا كيف نعلل توبة الخائن ، توبة مفرطة فى شدتها ، وأن تكن خبيثة فى طبيعتها ، ان كان هدفه الوحيد أصلاً هو اقتناء دراهم من فضة ؟ إن الشح قد يجعل الإنسان ذا المواهب السامية ،

طماعاً ، شغوفاً بالكسب عن طريق السحت الحرام ، ولكنه قلما يساق مثل هذا الانسان إلى ارتكاب الجرائم تحت تأثير هذه العوامل . إن من طبيعة الشح أن يفسد الضمير ، وأن يجعل كل الأشياء — مهما كانت مقدسة — تباع وتشترى بالمال . فمن أين إذاً هذه الثورة الجارفة فى صدر يهوذا ؟ يقيننا ان شهوات أخرى كانت تتضرم فى نفسه حين باع سيده ، غير حب الكسب وشهوة المال !

وتحت ضغط هذه الأدلة ، ذهب بعض الشراح إلى أن يهوذا كان مسوقاً فى خيانة سيده ـ بدوازع من الحسد أو الكراهية ، نبتت فى قلبه من منازعات داخلية ، أو اساءات وهمية . ونحن لا نستبعد مثل هذا الرأى ، فالعثرات قد تخلقها فى يسر بواعث شتى . ويهوذا لم يكن جليلياً ، فمن الهين أن يقع سوء التفاهم بينه وبين زملائه ، وأكثرهم من أبناء الجليل . والذى نعلمه أن أسباب التعاطف أو الكراهية بين الناس تنشأ عادة من أشياء صغيرة تافهة . فالقرابة ، أو الاسم المشترك ، أو مسقط الميلاد — هذه كلها تربطنا عادة بأواصر خاصة . أما روابط الرجاء المشترك ، والحياة الروحية المشتركة ، فتكون عادة أضعف إذا قورنت بروابط الطائفة ، أو العادات والآراء الدينية . ومن يدرى تلك الاساءات التى ربما تكون قد تجمعت فى نفس ذلك التلميذ الغريب ، وهو يسمع أحاديث الشحناء بين الآخرين حول من يكون الأعظم فيهم فى الملكوت ؟ أفلا يكون ذلك الاسخريوطى قد أحس أن لا مجال له فى حلبة هذه المنافسة ، كائنة ما كانت النتيجة لأنه ليس جليلياً مثل الذين تصدروا الزعامة بين الصحابة ؟ ثم ان أفاعيل يهوذا الشريرة فى أمانة الصندوق ، وخشيته أن تكشف سيئاته يوماً ما ، قد تكون عاملا آخر من العوامل التى خلقت فى نفسه ذلك الإحساس الدفين الشائن .

على إننا إذا سلمنا بأن سوء المظنة قد ثارت بين يهوذا وبين زملائه بسبب هذه العوامل ، فما ذنب سيده ، ولماذا يصب جام نقمته على السيد بالذات ؟ أمن المحتمل أن يكون يسوع قد أعثر ذلك الخائن الذى أسلمه ، وخلق فى نفسه إحساساً

بالضغينة والغل ؟ نعم ، فلعل يهوذا قد عرف من تلميحات السيد ، ونظراته ، وأقواله ، ما أقنعه بأن أمره قد انكشف . ذلك لأن الناس لا يقدرون أن يعيشوا فى ألفة وقربى دون أن يعرف بعضهم إحساس بعض ، ولو حاولوا إخفاء ما تبطنه الصدور ، فليس خلة تخفى على الأقربين منك مهما أمعنت فى المداراة والمصانعة. وما أظن يسوع الأمين ، الذى بلا خطية ، حاول يوماً أن يخفى اعتقاده فى يهوذا أو إحساسه نحوه . أجل ، هو لا يتطفل تطفلا هجومياً ويفضح يهوذا علانية ، ولكنه لن يحاول إخفاء شعوره عامداً ، مصانعة لذلك السارق ، أو تهدئة الامور بين التلاميذ . والذى عمل فى أمانة واخلاص على إصلاح أخطاء التلاميذ الآخرين لن يسقط يهوذا من حسابه فى الاصلاح والتوجيه ، لعله يرعوى ويثيب إلى رشده ويقلع عن عاداته الشريرة وطرقه الآثمة . وقد كان أثر هذا الاصلاح عكسياً فى نفس يهوذا ، ففى بطرس أنبت الاصلاح ثمراً شهياً ، ولكنه فى يهوذا أخرج صاباً وعلقماً . وعندنا ان إحساس يهوذا بأن يسوع لا يحسن عنه التفكير ، وخشية أن يفضحه علانية ، كان قميناً أن يخلق فى قلبه مرارة وحقداً ، ويباعد بينه وبين سيده وتلاميذه ، إلى أن تنقلب المحبة كراهية ، وتتوالد فى نفس التلميذ الجاحد الشهوات الإنتقامية .

والطريقة التى تم بها التسليم تؤيد الفكرة بأن الخائن كان مدفوعاً بشهوة الانتقام . فهو لم يقنع بإعطاء المعلومات التى تمكن السلطات اليهودية من القبض على فريستهم ، ولكنه قاد شرذمة الجند ، وأعطاهم علامة التعرف عليه ، هى القبلة الغاشة التى أمست مثلا على الخيانة الفاجرة . ومثل هذه القبلة يستعذبها المنتقم لإرواء ظمأه ، أما لإنسان ذى مزاج آخر ـ ولو كان خائناً ـ فهى كريهة ممجوجة لا يستسيغها ذوق بشرى ! وكانت التحية تطوعاً لا غير ، فهى لم تكن ضرورية لنجاح المكيدة ، لأن شرذمة الجند كانت تحمل مشاعل ، وكان يكفى أن يومىء يهوذا بأصبعه إلى غريمه ، ويبقى هو من وراء الستار ، ولكن هذا الموقف لن

يطفىء النار المتأججة فى صدر صديق انقلب عدواً لدوداً . ويؤيد هذه الفكرة الفيلسوف الفرنسى رينان فى كتابه « حياة يسوع » حين يقول فى صدد التحدث عن الخونة فى الجمعيات السرية « ان الغيظ الخفيف يكفى لأن يجعل من انسان العالم خائناً »[1] .

وإلى الخبث والطمع ، والحقد والضغينة ، قد نضيف باعثاً آخر إلى البواعث التى كمنت فى صدر يهوذا ، وهو ضياع الأمل ، والخيبة ، ونكث العهود ، التى أوحت بها إلى يهوذا حصافته الأنانية ، وحكمته الخاطئة . فقد كان الخائن حكيما ، أريباً ، داهية ، أحس أن نكبة ماحقة توشك أن تقع . لقد فهم حقيقة الموقف أكثر من زملائه ، لأن أبناء العالم أحكم من أبناء النور فى جيلهم . وقد عميت عيون التلاميذ الآخرين عن علامات الازمنة بسبب حماسهم الكريم وآمالهم الوطنية الفائرة . أما التلميذ « الكذاب » الزائف ، فقد كان أرهف منهم حساً ، لأنه كان دونهم نبلا . أما وقد رأى الخائن المصيبة وشيكة ، فماذا عساه أن يفعل ، إلا أن يكون شاهد الملك ، ويدبر الأمور لنفسه ، لعل خسارة يسوع تكون له ربحاً !

يقيناً ، ان هذه الملاحظات تضع جريمة يهوذا فى نطاق الاختبار البشرى ، وهى جديرة بأن تؤخذ مأخذ الجد . لأنه لا يليق أن نفكر فى هذا الخائن كأنه شخصية نادرة ، فريدة فى نوعها ، لا مثيل لها فى التاريخ ، قد تجسد فيها الشر كاملا ، وليس من بعد زيادة لمستزيد . والأحرى بنا أن ننظر إلى جريمته كما نظر اليها التلاميذ ساعة سمعوها ، فيسأل كل منا نفسه : هل هو أنا ؟

« السهوات من يشعر بها ، من الخطايا المستترة ابرئنى » .

وقد كان فى التاريخ خونة كثيرون غير يهوذا ، قلبوا ظهر المجن لكرام الناس وأفاضلهم ، وتنكروا لمبادئهم التى اعتزوا بها ، مسوقين إلى ذلك بالخبث والشر ، أو

(١) "Un lèger dépit suffisait poue faire d'un sectaire un traitre" (p. 395).

جرّ المغانم المادية . ولعلّ بعضهم كان أسوأ من هذا الاسخريوطى ، ولكنه امتاز عنهم بما لا يحسد عليه ، فى أنه قد خان أرفع الضحايا شأناً وأسماهم قدراً. وكثيرون ممن ارتكبوا جريمة ، واقترفوا خطية ، لم تتحرك نفوسهم ، وعاشوا حياة لينة سعيدة بعد أن تلطخت نفوسهم بلوثة الدناءة والسفالة ...

ومع أنه خير لنا ألا نفكر فى يهوذا كأنه خاطىء من طراز فريد لا نظير له فى العالم ، فانه من الخير أيضاً أن ننظر إلى جريمته الشنعاء كأنها سر غامض من أسرار الاثم والشر . وهذه هى الصورة التى يرسمها يوحنا فى بشارته ، فقد كان فى وسعه أن يسهب فى شرح العلاقات المتبادلة بين يسوع وبين يهوذا ، محاولا تعليل فعلة هذا الأخير . ولكنه آثر الاقتضاب ، وعلل الجريمة بقوله ان الشيطان قد تملكه ـ ويذكر هذا مرتين فى فصل واحد، كأنما أراد أن يعبّر عن رعبه وفزعه، ويحمل قراءه على استفظاع هذا الصنيع . وبعد سرد قصة يهوذا ، نراه يردف القصة بقوله ان الحادث وقع بعد أن أسدل ظلام الليل ستاره على الكون ، وكأنما البشير قد هزّت الجريمة كيانه ، فاخفاها وراء غلالة من الظلمة : « فلما اخذ اللقمة خرج للوقت . وكان ليلا » . وانها لساعة ملائمة لمهمة كهذه ! !

خرج يهوذا وأسلم سيده للموت ، ثم انطلق وأزهق روحه ، وقضى على حياته. وقد كان ذلك الانتحار مأساة اقترنت بمأساة الصلب ، ومثلا صارخاً على أن الشر لا يلد إلا الشر ... لقد كان يهوذا شريراً ، فاقترف جريمته الشنعاء ... وكان صالحاً لأنه لم يقو على احتمال عبء ذنبه . فويل لمثل هذا الإنسان ! كان خير له لو لم تلده أمه !

يالها من خاتمة كئيبة محزنة لبداية سعيدة موفقة ! لقد أختير أن يكون زميلا « لابن الإنسان » ، وشاهد عيان لأعماله ، وهو ينادى برسالة الانجيل ، ويخرج الأرواح النجسة . والآن ها هوذا نفسه يبيت عبداً لابليس، الذى يستذله لاقتراف أبشع جريمة ، وأخيراً تسوقه العناية العادلة للانتقام من جريمته بالقضاء على فاعلها.

وازاء هذه القصة ، ماذا عسى أن يقول أصحاب النظرية التى تعزو كل الفوارق الأدبية الأخلاقية بين الناس إلى الوسط الذى ينبتون فيه ، والظروف التى تكتنفهم ؟ وأى انسان وآتته الظروف ليكون خيراً صالحاً مثل يهوذا ؟ ومع ذلك فإنا نرى المؤثرات التى كان ينبغى أن تغذى فيه الصلاح والخير ، لم تفعل شيئاً غير إحياء بواعث الشر الكامنة فى نفسه .

لقد كان وجود انسان مثل يهوذا صليباً أليما قاسياً ليسوع ذى القلب المحب ، الرقيق ! ولكنه احتمله سنوات . وهو هنا مثال وعزاء لأتباعه حقاً ، لأنه احتمل هذا الصليب — مع صلبان كثيرة أخرى — لهذه الغاية . لقد زامل فادى البشر صاحباً رفع عليه عقبه ، لكى يكون فى هذا — كما فى غيره — مثلنا ، قادراً على أن يعين اخوته المجربين ...

أما رأيت خادماً أميناً المسيح ، كوفئت محبته بالكراهية ، وحورب حقه بالباطل ، واضطر أن يصانع زميلا له عُرف بالبطل والرياء ... أنها تجربة قاسية حقاً ...

ولكن هنا عظة ومثلا . فليذكر ، وليصبر ، فإن العقبى للصابرين !

الفصل السادس عشر

فى البستان

« تركه التلاميذ كلهم وهربوا » .

ظل التلاميذ فى العلية فترة طويلة من الزمن يستمعون فيها إلى أحاديث الوداع . ثم يخرجون مع سيدهم إلى بستان جثسيمانى ، إلى مشهد النزاع والألم النفسانى ، وهناك يلعب التلاميذ على مسرح الحوادث دوراً خلا من البطولة والتضحية . هناك ـ ينهزم الايمان والمحبة والمبدأ أمام غرائز الخوف والخجل والابقاء على الذات . وحتى الثلاثة الاخصاء الذين اصطفاهم يسوع ليكونوا معه ـ بطرس ويعقوب ويوحنا ـ فشلوا فى القيام بالمهمة التى طلب منهم اداءها . وغالبهم الكرى كما فعلوا فوق جبل التجلى ...هؤلاء المختارون اثبتوا أنهم جنود خائرون ،ينعسون أثناء القيام بواجب الحراسة : « أما قدرتم أن تسهروا معى ساعة واحدة » . وساعة يظهر العدو، يفر الثلاثة الاخصاء والثمانية الآخرون خائفين مذعورين . « تركه التلاميذ كلهم وهربوا . . . »

ومسلك التلاميذ فى هذه الأزمة الخانقة فى تاريخهم ، الدال على ضعفهم وخوارهم ، يدعو إلى التساؤل والحيرة ، ويوقفنا أمام سؤالين :

— « ماذا كنا ننتظر منهم أن يفعلوا ؟ » .

— « ولماذا فعلوا ما فعلوا ، وما علة فشلهم وخيبتهم ؟ » .

ماذا كنا ننتظر منهم ؟ أيقاومون بالقوة ؟ إن يسوع نهاهم من قبل عن اتخاذ هذا الطريق . فعند ظهور الرجال المدججين بالسلاح « قالوا يارب أنضرب بالسيف؟» (لوقا٢٢: ٤٩). وقبل الجواب على هذا السؤال بادر أحدهم ـ وهو سمعان

بطرس ـ وضرب عبد رئيس الـكهنة بالسيف فقطع أذنه . وكان هذا التلميذ قد أحضر معه احد السيفين اللذين كانا معهما فى العلية ، لعله يستخدمه للدفاع إذا اقتضى الأمر . وعلى الرغم من خوفه وجبنه ، اللذين بدرا منه فيما بعد أمام الخدم والجوارى ، فانه كان هنا جسوراً مندفعاً ، واستخدم سيفه بشجاعة ، وان تكن خلَت من الحذق والبراعة، لأن ضربته لم تكن قاضية . وهنا يتدخل يسوع بقول حاسم للقضاء على كل مقاومة : « إجعل سيفك فى الغمد . الـكأس التى أعطانى الآب ألا أشربها ؟ ... لأن كل الذين يأخذون بالسيف ، بالسيف يهلـكون ... أتظن انى لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبى ، فيقدم لى أكثر من إثنى عشر جيشاً من الملائـكة ـ فـكيف تـكمل الـكتب انه هـكذا ينبغى أن يـكون ؟ » .

أجل ، كان فى طوقه أن يلقى القوة البشرية ، بقوة علوية أقوى منها ، ولـكنه لم يرضَ عن ذلك ، لأنه فى قهر أعدائه بقوته الجارفة ، مضيعة للقصد الذى جاء من أجله ، وهو أن يغلب بالحق والمحبة والصبر ، لا بالعنف والقوة والقهر .

إذاً لم يُدع التلاميذ للدفاع عن سيدهم بالقوةالبدنية ، فماذا كنا ننتظر فيهم ؟ أكان من واجبهم أن يألموا معه ، وأن يحققوا ما قاله بطرس فى سويعة من سويعات الثورة العاطفية ، بأن يساقوا معه إلى السجن والموت ؟ لم يكن هذا أيضاً مطلوباً منهم . فإنه بعد أن وقع يسوع فى قبضة عداته ، رجاهم أن يأخذوه ويدعوا هؤلاء أحراراً . ولم يقل هذا رفقاً بهم ، وحناناً عليهم فقط ، بل كرئيس الخلاص ومكمله ، أراد أن يُبقى على حياتهم ليـكونوا عدة الـكفاح فى ملـكوته . ولم يكن فرضاً على التلاميذ أن يضحوا بحياتهم يومئذ ، بل أن يحرصوا عليها إلى أن تؤدى رسالتها ويحين أجلها .

وإن كان التلاميذ لم يُدعوا للـكفاح والدفاع ، ولم يدعوا للبذل والتضحية، فاذا كنا ننتظر منهم ، وعلامَ نلومهم ؟ اننا نلوم الأحد عشر لنقص ايمانهم . وكان يسوع قد قال لهم فى مستهل حديثه الوداعى « آمنوا بالله وآمنوا بى ».وفى الساعة

الحرجة لم يؤمنوا ، لا به ولا بالله . لم يؤمنوا أن العقبى ستكون خيراً لهم ولسيدهم ، وأن الله سيضمن لهم سلامتهم دون أن يضحوا بمبدأ أو بكرامة من جانبهم . لقد أودعوا كل ثقتهم فى سرعة سيقانهم . ولو انهم آمنوا بالله وبيسوع ، لكانوا شهدوا فيا بعد عقبى المؤمنين الصابرين ، وضمنوا سلامتهم ، ورأوا عودة سيدهم اليهم . وكان أحرى بهم ، إما أن يتبعوا سيدهم فى هدوء ليروا ما سيحدث له ، أو أن يتفادوا المشاهد المثيرة الأليمة ، وينصرفوا إلى مساكنهم هادئين إلى أن تهدأ العاصفة ، وتتم فصول المأساة . ولكن لعجز ايمانهم ، ما تبعوا هادئين ، ولا انصرفوا هادئين ، بل اطلقوا سيقانهم للريح ، وفى جحود وخزى تركوا سيدهم « وهربوا » . وليس ذنبهم فى العمل الخارجى الذى أتوه ، إنما هو فى الحالة العقلية المعنوية التى بددتهم هباء . لقد ولوا هاربين ، فى يأس وإنكار ، كقوم عصفت الأحداث بكل آمالهم ، وفقدوا الرجاء فى انسان خسر قضيته ، وتخلى الله عنه ، وأسلم فريسة إلى أيدى القوم الظالمين .

وبعد أن بينا موضع اللوم ، لنبحث الآن علة هذا المسلك . ولنذكر بادىء ذى بدء ، ان يسوع سبق فأنذر أتباعه بهذا المصير ، ولم يركن إلى اخلاصهم له ، بل توقع منهم الهجر والانكار . فساعة تجارى بطرس على القول انه سيتبعه أنى يسير ، أنذره بأنه سينكره ثلاث مرات قبل أن يصيح الديك مرتين . وفى ختام حديثه الوداعى ، أنذر تلاميذه كلهم بأنهم سيتركونه وحده . وفى طريقه إلى جبل الزيتون كرر هذا الانذار بقوله : « كلكم تشكون فىّ هذه الليلة ، لأنه مكتوب انى أضرب الراعى فتتبدد خراف الرعية » . وفى أقواله هذه كلها لم يكن يسوع فى موقف العاذل المؤنب ، بل فى موقف النبى الذى عرف سير الحوادث قبل وقوعها . وقد أدرك بعين البصيرة أن تلاميذه سيغالبهم الذعر ، كغنم يفجؤها ذئب غادر فتركض مهرولة ، أو كامرأة يغمى عليها أمام مذبحة تتناثر فيها أشلاء القتلى . ومن اللهجة اللينة التى جرت على لسان السيد فى أقواله هذه ، نحكم على أنه نظر اليهم

نظرة الاشفاق ، وقدّر ضعفهم وقصورهم . لذلك نراه يقول للثلاثة الناعسين في جثسيماني : « إسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة . الروح نشيط أما الجسد فضعيف » . ان هذا الحكم الدقيق الخفيف الذى صدر على الثلاثة يسرى أيضاً على الباقين . ولقد نظر يسوع الى الأحد عشر كتلاميذ مخلصين ، لاشية في إخلاصهم له وحبهم إياه ، ولكنهم كانوا عرضة للسقوط بسبب ضعف الجسد، حينما تعرض له تجربة مفاجئة .

ومن أسباب فشل التلاميذ في هذه الأزمة نقص الادراك ، وليس ضعف الجسد وحسب . فهم قد آمنوا أن سيدهم هو المسيح ، إبن الله الحى ، ولكن اقترن إيمانهم بنظرية خاطئة عن المسيا المنتظر . ولم يكن الصليب في حسابهم أبداً . ولم تؤثر أقوال المسيح عن آلامه العتيدة في هذه الفكرة المتأصلة في أعماق قلوبهم . فلما مثل الصليب أمام عيونهم ، وبدأت تتحقق الأقوال التى سبق سيدهم وانبأ بها ، هوى ايمانهم كما تهوى الشجرة النخرة أمام عاصفة هوجاء . وكل مابقى من ايمانهم ذلك التأسي الحزين « كنا نرجو أنه المزمع أن يفدي إسرائيل » .

وثمة سبب ثالث هو جهل التلاميذ حقيقة أنفسهم . فالذى يدرك ضعفه ، قد يقوى في نقطة الضعف . أما الذى يجهل مواطن الضعف في نفسه ، فلن يقدر أن يكون قوياً . وأولئك التلاميذ لم يقدّروا ضعفهم، بل ركنوا الى كمية من الشجاعة والولاء لم تكن إلا في مخيلاتهم فقط . ولسان حالهم ماقاله زعيمهم «ولو اضطررت أن أموت معك لا أنكرك » . وبالأسف لم يفطنوا الى ما في طباعهم من خوف وجبن أمام المخاطر . وساعة الخطر ظهرت آثار هذا الاعتداد بالذات ، فانكفأ الجبابرة خائبين ، وتركوا سيدهم « وهربوا » .

علة أخيرة من علل هذا الضعف ، هى عدم اختبار التلاميذ لمثل هذه المشاهد . سل رجال الحرب والطعان ، يقولوا لك ان الجندى الشجاع الذى يصمد أمام الخطر ولا تصطك ركبتاه تحت النيران ، هو الذى عرك القتال ، وجاز المعارك ، وعرف

أخطار الحرب. وأولئك التلاميذ قد دُعوا لهجر بيوتهم وأصدقائهم وسنيهم ليتبعوا يسوع ، ولكن هذه التمرينات الأولية لا تجعل المجندين الجدد شجعاناً صناديد ، كما أن ارتداء الزى العسكرى لا يجعل من الجندى مقاتلاً جريئاً فى ساحة الحرب .

تلك كانت الأسباب التى حملت التلاميذ على الهرب . وقد أثبت الموقف أنهم كانوا ساعتئذ خرافاً لا رعاة . لذلك لا ندهش أن نرى سيدهم يأخذهم بالرقة واللين ، فأنت لا تنتظر من الخراف إلا أن تهرب أمام الذئب إذا سطا . أما الرعاة المدربون فهم الذين يداوئون الذئاب ويلاحقونها .

الفصل السابع عشر

الحيارى يؤمنون

انقضى اليوم الأسود ، يوم الصلب ، كما انقضى يوم السبت التالى الذى رقد فيه المصلوب فى قبره المنحوت ... وبزغ فجر اليوم الأول من الأسبوع ، بل قل فجر اليوم الأول فى عصر جديد من تاريخ البشرية ... وقام المسيح من الأموات ، وعاد الراعى الى رعيته المشتتة ، والى تلاميذه الحيارى ... وانها لفرحة كان من الطبيعى أن ترقص لها القلوب جذلاً ، وتبتهج لها الافئدة طرباً ! ...

لكن موقف التلاميذ لم يكن كذلك فى أول الأمر ، ذلك لأن قلوبهم لم تكن تتوقع هذه المفاجأة الغريبة . وأغلب الظن أن حالتهم العقلية حين بلغهم نبأ القيامة ، كانت أشبه بحالة العبرانيين قديماً يوم تلقوا نبأ العود إلى وطنهم وهم أسرى مسبيون فى بابل . كان القوم كمن يحلمون ، فلم يصدقوا ما كانوا يسمعون ، وجلسوا على أنهار بابل ، يبكون مدينتهم المقدسة ، فى حزن مكبوت ورجاء ميت . ولكن إذ يفيق المسبيون من دهشتهم وذهولهم ، يقعون فى نوبة من الجذل المفرط ، وتنفجر حناجرهم بضحكات هستيرية ، وأناشيد هائمة .

هكذا كان اختبار التلاميذ ساعة تلقوا نبأ قيامة سيدهم . لم يكن حزنهم هادئاً ، ولكن رجاءهم كان ميتاً . لم تكن القيامة متوقعة ، فتلقوا الأنباء بدهش وتردد فى تصديقها . وهذا ما أثبته البشيرون الأربعة بصريح القول : (انظر متى ٢٨ : ١٧ ومرقس ١٦ : ١١ و١٣ و١٤ ولوقا ٢٤ : ١١ و١٦) .

ولم يكن حظ النسوة اللواتى آمنَّ بالمسيح بأوفر من حظ التلاميذ الأحد عشر . فقد انطلقن فى غبشة الصبح إلى القبر ليحنطن الجسد الميت ، وطلبن

الحي بين الأموات . ولما وصلت المجدلية إلى القبر قبل الأخريات ، ورأت الحجر مدحرجاً ، تبادر إلى ذهنها تواً أن أحداً سرق الجسد .

ولما غلب إيمان التلاميذ بعد لأى عدم إيمانهم وترددهم ، انتقلوا — مثل العبرانيين قديماً — من غمة اليأس إلى فورة الجذل . ويقول لوقا انهم لما عرفوا الرب المقام « كانوا غير مصدقين من الفرح » (لوقا ٢٤:٤١) . وكأنهم كانوا يتلاعبون بالشك كمهماز للفرح .

ومن وجه آخر شابه الاحد عشر العبرانيين قديماً ، في وقت دعوتهم الى العودة . ذلك لانه بينما ضعف ايمانهم ورجاؤهم في الفترة بين الموت والقيامة، ظلت محبتهم لسيدهم حية نابضة . فالعبرانيون المسبيون لم ينسوا المدينة المقدسة في أرض غربتهم ، بل ان الغيبة أشعلت نيران الحب وزادتها ضراماً . وانك لتراهم وهم على ضفاف أنهار بابل ، ساهمين حالمين ، بعيون تنظر في جمود إلى مياه النهر الفاترة في جريانها ، وقطرات الدموع الكبيرة تجرى على أشداقهم ، وهم يفكرون في مدينتهم المقدسة . إن سبي النفس الخيالية الشاعرة لم ينسها عظمة أورشليم ومجدها . ولم يكن في طوق تلك النفوس الشاعرة أن تنشد أناشيد الرب على مسمع من الآذان الوثنية التي لم يكن يعنيها شيء من معانيها ، وانما طربت فقط لرخامتها وتوقيعها . وكان مثلهم مثل الاسرى الوثنيين في صقلية الذين أبوا انشاد قصائد شاعرهم المحبوب يوربيدوس على مسمع من سادتهم أهل صقلية . هكذا ظل التلاميذ أمناء لذكرى سيدهم ، وكانوا أشبه بامرأة أرملة تبقى أمينة لزوجها ، تشيد بفضائله ومحامده . والاعداء قالوا عن سيدهم انه مخادع مضلل ، أما هم فعلى الرغم من انعدام رجائهم وخيبة أملهم ، فقد ظلوا أمناء للسيد الذى غاب عنهم . فكانوا يجتمعون كاسرة منكوبة وراء أبواب مغلقة خوفاً من اليهود ، حاملين عار سيدهم ، متوقعين أسوأ المصير بسبب انتمائهم اليه . وهذا أمثولة رائعة للمسيحيين الذين يقعون في ضيقات وتجارب ، ويرون قضية المسيح أمامهم فاشلة ، وقوات الظلمة إلى حين سائدة .

ولئن يخسف الايمان، و يطفأ الرجاء ، فلتبق قلوبنا على الاقل أمينة مخلصة لربنا !

ولـكى يثبت إيمان التلاميذ ، ظهر السيح لهم مرات عديدة بعد قيامته وقبل صعوده إلى السماء . وقد ظهر أول مرة فى جسد فى مساء يوم القيامة . وكانت تلك هى المرة الرابعة التى أظهر فيها ذاته لهم بعد قيامته . وكان قد ظهر فى الصباح ذلك اليوم لمريم المجدلية فى بستان القبر ، ولم تتميزه فى غبشة الصبح الباكر من خلال عينيها المغرورقتين بالدموع . ولـكن السيد عطف عليها ، كما يعطف دائماً على أحزان المؤمنين ، وأعلن ذاته لها .

وكان ظهوره فى المرة الثانية لبطرس وليست لدينا معلومات واضحة عن ظهور تلك المرة، ولا ندرى شيئاً عن الحديث الذى دار بين السيد وتلميذه ، غير تلك اللمحة العابرة التى أشار إليها بولس فى رسالته إلى كورنثوس، والبشير لوقا فى انجيله. ولا نعدو الحقيقة إذا نحن قلنا ان السيد الرحيم المقام تذكر سقطة بطرس، وعرف اضطراب نفسه وبلبلة فـكره ، فأراد أن يؤكد له غفرانه وصفحه ، لذلك دبر أن يظهر له « وحده » فى خلوة .

وفى خلال اليوم ظهر يسوع مرة ثانية للتلميذين فى طريق عمواس. وقد صاغ لوقا البشير هذا اللقاء فى قصة أخاذة ، رواها مسهبة بأسلوبه الجذل ، وعبارته المليئة بالمعانى .وكان هذا الظهور مقدمة لظهوره للأحد عشر ــ والأصح أن نقول للعشر فى تلك الليلة فى أورشليم . وكان كاوباس وزميله ــ تلميذا عمواس ــ قد هرولا مسرعين إلى المدينة المقدسة يحملان إلى الرسل نبأ رؤيتهما للسيد . وفيما هما يرويان القصة العجيبة ظهر يسوع فى وسطهم ، باسطاً يده بالتحية المألوفة : سلاماً لـكم.

ويظهر للمرة الخامسة للتلاميذ كلهم ، ولم يـكن توما معهم فى المرة السابقة ، لذلك يدخل عليهم السيد وهم مجتمعون « داخلا » والابواب مغلقة ، ويقف فى وسطهم . وبعد أن يقرئهم السلام ، يأخذ أصبع توما ويضعه على آثار المسامير فى يديه ورجليه لـكى يؤمن .

وبعد زمن يعود بطرس وزملاؤه الى نواحي بحر الجليل ، فيقول لهم : هلم نذهب لنصطاد . وينطلق معه توما ونثنائيل ، ويعقوب ويوحنا ، واثنان آخران لم يذكر إسماها . ويذهب السبعة فى مهمة ، ويذكرون فى تلك الفرصة الايام القديمة ، ويغممون بالمشاهد المألوفة والذكريات العزيزة ... لقد كانت فرصة للاستجمام لقوم أضناهم الاختبار الاليم ، وأنهكهم الحزن ، والترقب ، وعوامل الدهش المذهلة . .

ونستطيع أن نتصور ما كان يدور بأخيلتهم ليلتئذ : « بعد كل هذا، أليس الأفضل أن نبقى صيادين بسطاء ، من أن نكون رسلاً للدين المسيحى. ماذا أخذنا من إتباع يسوع ؟ لقد شهدنا مصيره ، وقد توعدناهو أن يكون هذا مصيرنا أيضاً – حياة الحزن والعناء التي قد تنتهى بالاستشهاد . أما هنا فى ربوع وطننا الجميل، وفى مهنتنا الحرة الطليقة، نقدر أن نفكر ونعمل كما نشاء ، بمأمن من الاخطار، فى حياة حرة متقشفة على ضفاف هذا البحر ! فى الايام الخوالى ، قبل أن نترك شبابا كنا ونتبع يسوع ، كنا نمطق أنفسنا بثياب الصيد ، ونذهب أينما نشاء ، ولكن بعد إذ نصير رسلاً ، سنحمل الأعباء الثقال والتبعات الجسام، نفكر فى الآخرين لا فى أنفسنا ، ونفقد حريتنا ، لا بل حياتنا ... »

لعل هذه بعض الهواجس التي وسوست للتلاميذ يومئذ. وتشاء الأقدار أنهم لم يمسكوا شيئاً فى تلك الليلة . وربما قطع عليهم هذا الحظ العاثر خيالهم وأحلامهم . وأنهم لكذلك وإذا بمن يعرف أفكارهم ، ويقرأ دبيب مشاعرهم ، يقف إمامهم على الشاطىء: « ولما كان الصبح وقف يسوع على الشاطىء» (يوحنا ٢١ : ٤) . وكانت تلك المرة الثالثة لظهوره لتلاميذه ، والسادسة منذ قام من الاموات .

ولم يظهر لهم هذه المرة لكى يقنعهم بأنه قام ، بل لكى يحفزهم لتكريس عقولهم وقلوبهم فى المستقبل ليكونوا صيادى الناس ، ورعاة للقطعان بعد إذ يغادر هو هذا العالم . وقد أعطاهم أولا الارشادات اللازمة لصيد سمك كثير ، ليذكرهم

بدعوته لهم يوم أخذهم من وراء الشباك ، ولتكون هذه علامة مشجعة أو رمزاً لنجاحهم فى العمل الرسولى . ثم يدعوهم بعد ذلك للغذاء معه ، من سمك كان قد أعدّه هو ، مشوياً على جمر من نار من صنع يده . ولعلّ تلك كانت معجزة صنعت لتكون رمزاً يؤكد لهم أنهم فى خدمة الملكوت سوف تدبَّر لهم كل حاجاتهم من زاد وعتاد . وبعد تناول الغذاء يبدؤ حديثه مع زعيم الجماعة فى مغامرات تلك الليلة فى البحيرة ، ويخاطبه بلهجة تستفز كامن حماسه ، ولم يكن بطرس فقط هو المقصود بذلك الحديث ، بل السبعة جميعاً (اقرأ يوحنا ٢١: ١ــ١٩).

وإذ يضع المسيح على عاتق بطرس وزملائه فى ذلك اليوم واجبات رعاية المؤمنين ، يؤكد لهم أنهم الآن قد انتقلوا من طور الضعف الى طور القوة ، وكأنى به يقول لهم : « من قبل ، كنتم كغنم ، تفتقرون الى الارشاد والحراسة ، تجمعكم حكمة معلمكم وشجاعته . أما الآن فقد آن الاوان لتكونوا رعاة ، تفعلون بالضعيف ما فعلته بكم أنا ... من قبل وكلتم إلىّ أمر العناية بكم ، أما الآن فانكم تصيرون على المؤمنين قوامين ... من قبل كنتم كأطفال تحت رعاية أبيكم ، أما الآن فانكم ترعون الابناء ... من قبل كنتم كمجندين جدد ، يغالبكم الذعر والخوف ، وتهربون من وجه الخطر ، أما الآن فأنتم قواد فى جيش ، لا يعرف الخوف الى قلوبكم سبيلاً ، وبعزمكم الصادق تلهمون جنود الصليب بروح البسالة والبطولة ... »

نعم ، الآن ينتقل التلاميذ من دور الصبوة الى دور الرجولة ، من عهد الوصاية الى عهد الاستقلال ، من دور الاتكال على الغير والتحرر من الهموم ، الى دور النفوذ والسلطان والمسئولية كقادة وزعماء للجماعة المسيحية .

وقد أثبتوا فيما بعد حسن ظن سيدّهم فيهم ، لأنه بعد صعوده وحلول الروح القدس عليهم انقلب التلاميذ الخائفون الجهلاء الهاربون ، أبطالاً وحكماء وشهداء .

الفصل الثامن عشر

اللقاء الأخير

عاد التلاميذ ، من تلقاء أنفسهم أو بارشاد الروح، من الجليل الى أورشليم، حيث أظهر لهم سيدهم نفسه مرة أخرى، وكانت تلك المرة الأخيرة ، التي زودهم فيها بتعاليمه الختامية وكلماته الوداعية .

ولم تذكر البشائر شيئاً معيناً واضحاً عن ذلك اللقاء الأخير . على ان كتَّاب البشائر الثلاث الأولى قد سجَّلوا بعض الكلمات الأخيرة التي نطق بها يسوع لتلاميذه قبيل صعوده الى السماء . وتختتم بشارة متى بهذه العبارة : «دفع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض ، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم ، وعمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس ، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به ،وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر »(متى ٢٨: ١٨—٢٠) وأما في بشارة لوقا فان الكلمات التي تفوه بها المسيح في ظهوره الاخير للاحد عشر متداخلة في العبارات التي نطق بها في مساء يوم القيامة . وفي سفر الأعمال يثبت الكاتب أن يسوع تحدَّث الى تلاميذه في اللقاء الاخير عن واجباتهم الرسولية كشهود له ،ودعاة للانجيل ، وعن موعد الروح القدس الذي يزوِّدهم بالقوة للازمة للاضطلاع بهذه المهمة الخطيرة ، وعما يفعلونه الى أن يكمل هذا الوعد .

وكان من الطبيعي ، ومن الضروري ، أن يتحدث يسوع بهذه الاقوال الى مختاريه في ساعة الوداع ، مقدماً لهم الارشادات اللازمة التي تعينهم في جهود المستقبل. وربَّ قائل يقول، ان تلك كانت أقوالاً عملية وجيزة، خالية من عبارات الحنان والشجن التي تثير العواطف ، والتي تقترن عادة بخطب الوداع . ولكن مهلاً ، فان الاقوال المثيرة للاشجان لم تكن تصلح لذلك الموقف الخطير الرزين .

وفى خطابه الوداعى قبل الصلب لم يكن بدٌّ من ألفاظ تسيل حناناً وعطفاً ، أما فى الخطاب الوداعى قبل الصعود ، فلم يكن مثل هذا القول فى موضعه . ذلك لأنه فى الحالة الأولى ، كان يسوع أباً يتحدث إلى أبنائه الحزانى المتألمين بعبارات النصح والعزاء ، أما فى الحالة الثانية فهو « كانسان مسافر ترك بيته وأعطى عبيده السلطان ولكل واحد عمله، وأوصى البواب أن يسهر » (مرقس ١٣ : ٣٤)، فكان كلامه معهم مناسباً للمقام ، ولكل مقام مقال .

ومع ذلك فإن أقواله فى هذا اللقاء الوداعى لم تكن كأنها عظة من فوق برج عاجى ، يلقيه سيد على عبيده ، فإن الصديق لم يختف ساعتئذ، وظل منهم قريباً. وأى كلام أكثر اشفاقاً وحناناً من قوله لهم : « ها أنذا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر » . ثم أليست صداقة محببة ان يقول لهم وهو مزمع أن يعود الآن إلى ارتداء ثوب المجد الذى خلعه إلى حين: « دفع إلىَّ كل سلطان فى السماء وعلى الأرض». وهو يقول هذا ، لا لتمجيد ذاته ، ولا ليخلق فجوة بينه وبينهم ، ولا لكى يخفضهم من رتبة « الاحباء » إلى رتبة العبيد ... كلا ! بل لكى يشجعهم كرسل له فى العالم ، ودعاة لملكوته ، مؤكداً لهم ان قوته العليا ستؤازرهم، وتكون لهم خير المعين.

وإلى جانب هذه الأقوال اللينة المشجعة ، أتى يسوع ساعة الفراق أعمالاً كريمة تنطوى على المودة والمحبة . فلم تكن هناك — حسب رواية الأنجيل — قبلات وداعية ، ولا هزّ الايدى ، ولا غير ذلك من المظاهر التى نألفها حينما نودع بعضنا البعض ولكن طريقة الصعود كانت رائعة ، مترأفة بالذين تركهم وراءه . ذلك لأن يسوع ارتفع رويداً رويداً ، كأنه يبتعد عن الأرض بقوة الجاذبية السماوية ، ووجهه إلى أسفل ينظر بعين الرأفة والحنان إلى صحابته الأحباء، ويده ممتدة يباركهم بها . ومن ثمّ لم يحزن الاحد عشر بسبب اختفاء سيدهم . لقد ذهلوا، وتفرسوا طويلاً فى غلالة السحاب التى احتضنت سيّدهم ، كأنهم يريدون أن يخترقوها بنظراتهم، ولكن الفراق لم يترك أثراً للحزن والتأسى ، بل أحنوا رؤوسهم فى عبادة صامتة

لربهم الذى صعد إلى مجده ، ثم عادوا إلى أورشليم بفرح عظيم ، كأنهم لم يخسروا صديقهم الحبيب ، بل كسبوه من جديد . وكأن الصعود لم يكن مغيب الشمس ، بل إشراقها فى يوم بهيج .

* * *

وبعد أن غادر السيّد تلاميذه ، وارتفع إلى السماء ، عاد الأحد عشر إلى أورشليم ، وفعلوا كما أوصاهم ، واجتمعوا معاً فى العلّية فى أورشليم فى صحبة جمع من المؤمنين مع النساء المؤمنات ، ومريم أم يسوع ، وأقربائه وأخوته . وقد بلغ عدد المجتمعين مائة وعشرين ، يترقبون القوة والنور ، كقوم يترقبون بزوغ الفجر ، أو كقوم جاءوا ليشهدوا مسرحية ، وهم الآن ينتظرون ليرفع الستار الذى يخفى وراءه مشاهد رائعة ، مالم تره عين ، ولم تسمع به إذن ، ولم يخطر على بال إنسان .

ما أروع موقف أولئك الرجال فى هذه الأزمة الفاصلة من تاريخهم ! هم الآن مقبلون على انقلاب روحى ، أشبه بانتقال اليرقة فى تطور الفراش ، إلى خليقة مجنّحة . هم الآن يتوقعون انبثاق النور الذى وعدهم به يسوع قبل موته . روح الحق على وشك أن يحلّ عليهم ليقودهم إلى كل الحق . ونجم الصبح أوشك أن يشرق فى قلوبهم بعد ليل داج ، غمرتهم فى ظلماته الحيرة العقلية ، والحزن اليائس ، والهم العميق . هم الآن يتأهبون لقبول قوة تُنطق ألسنتهم البكماء ، وتحيي موات قلوبهم ، لينهضوا بالمهام التى ألقيت عليهم . .

عشرة أيام طوال ينتظرون فى العليّة ، تحدّثهم هواجسهم حديثاً غامضاً عن السرّ الذى سيعلن لهم ، وتنبض قلوبهم بأفكار ذاهلة عن العجائب التى سيرونها . ياله من مشهد رائع أخاذ ! . .

ولكن هل كانوا فى انتظارهم خامدين صامتين ؟ « كانوا يواظبون بنفس واحدة على الصلاة » . بل كانوا يدبرّون ويفكّرون ، ففى تلك الأيام وقف بطرس واقترح انتخاب رسول جديد بدل يهوذا الذى ذهب . لم يكن اجتماعهم مليلاً فاتراً ، كما

وهم الذين لم يسبق لهم اختبار الازمات الروحية، والذين يتصورون ان الانتظار روحى مرادف للاسترخاء البليد . ذلك لان الصلوات والتضرعات شغلت ساعات بلة مباركة . ولم تكن صلواتهم أشبه بالأوضاع التقليدية ، أو الصيغ الجوفاء، أو العبارات اللفظية، التى نسمعها فى كثير من محافلنا ومجتمعاتنا، بل كانت صراعاً مع الله ، فانقضت الساعات الطويلة دون أن يشعروا بالملال أو الكلال ...

وأغلب الظن أنهم كانوا أيضاً يقرأون الاسفار المقدسة ، ويفكرون معاً فيما كانوا يقرأون ، وما كانوا يتوقعون . وظلوا هكذا عشرة أيام الى أن حلّ يوم الخمسين ، يوم دوى فجأة صوت من السماء ، كهبوب ريح عاصفة ، وملأ البيت كله ، وظهرت لهم ألسنة غريبة كما بنار ، وامتلأ الجميع بالروح القدس وأخذ الجميع يتكلمون بألسنة غريبة كما أعطاهم الروح أن ينطقوا . من ثمّ يتمّ الوعد ، وتهبط عليهم قوة من السماء ، بطريقة تمثل قولة النبى فى القديم « منذ الازل لم يسمعوا ولم يصغوا . لم ترَ عين إلهاً غيرك يصنع لمن ينتظره » .

كان اللقاء الاول حادثاً بسيطاً — معلّم شاب يلتقى بخمسة من صغار القوم صاروا فيما بعد من أوائل أتباعه ، وأما هذا اللقاء الاخير فقد كان له أعظم الأثر فى تاريخ العالم . وقد تعلق رجاء العالم كله بذلك الاجتماع الذى ضمّ نخبة قليلة من أناس لم يكن لهم حول ولا طول فى يومهم . وقد يبسم الجاحدون ساخرين أمام هذه القوة الخارقة للطبيعة ، ولكنهم لا يقدرون أن ينكروا أن قوة جبارة خرجت يومئذ من تلك العلّية لتقلب العالم المعروف يومئذ ، وتهز أركان أمبراطورية عظيمة . وأما المؤمنون بتلك القوة العلوية الهابطة من السماء ، فحسبهم أن يروا تلك الجماعة الصغرى تنمو وتتكاثر ، لا بالغزو والفتح ، ولا بالقوة والبطش ، بل بروح الله ، لان مسرة الآب قد شاءت أن يعطيهم الملكوت .

المطبعة الفنية الحديثة

٢٠ شارع الأصبغ بالزيتون ت ٨٦٤٨٧١